إبداعات عالمية
أغسطس 2014
402

# عيناها

رواية

تأليف: بزرگ علوي
ترجمة: د. أحمد موسى
مراجعة: د. زبيدة أشكناني







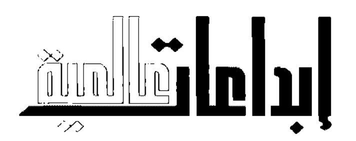
(رواية)

تـــألـــيـــف: بزرگ علوي

تـــرجـــمـــة: د. أحمد موسى

مـــراجـــعـــة: د.زبيدة أشكناني

عيناها




تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب





التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة



www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@yahoo.com



رقم الإيداع: 2014/385

ردمك: 978-99906-0-427-6

• عيناها

رواية




# چشمهايش

## بزرگ علوي

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2014م

إبداعات عالمية - العدد 402

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

# مقدمة

ولد السيد مجتبى بزرگ علوي (1904 - 1997) في أسرة تجارية متدينة وسياسية، فأبوه هو سيد أبو الحسن علوي، ووالدته خديجة قمر السادات، اللذان كانا من المناصرين للحركة الدستورية في إيران، وكان والده من أعضاء حزب إيران الديمقراطي المناهض للوجود الإنجليزي والروسي في إيران. والدته حفيدة آيت الله طباطبائي أحد أقطاب الحركة الدستورية[1]. امتدت حياته الطويلة لتغطي فترات سياسية مهمة من أواخر الدولة القاجارية وكل فترة رضا شاه وابنه محمد رضا، وأخيراً الثورة الإسلامية، وقد كان شاهداً على تغيرات سياسية واجتماعية كبيرة هزت إيران من تبعية القاجار وديكتاتورية الشاه إلى صعود الحركة الوطنية بقيادة مصدق وقمعها.

امتزجت حياته بالسياسة منذ البداية، فمن ذكرياته الأولى أن مربيته كانت تحمله عندما سمع صوتاً مروعاً من الخارج، فقالت له مربيته إنه صوت المدافع. كان ذلك اليوم هو اليوم الذي ضرب فيه المجلس النيابي الذي كان قد أسس قبل ذلك بسنتين. وهو آنذاك في حوالي الثانية من عمره. (أحمدي 1998).

أرسله أبوه مع أخيه مرتضى إلى ألمانيا لاستكمال دراستهما هناك عام 1922 ليعود إلى إيران في عام 1928 بعد تخرجه في جامعة ميونيخ، بعد عام واحد على انتحار أبيه عبر إلقاء نفسه تحت عجلات القطار في برلين إثر خسارة مالية. خلال

وجوده في ألمانيا تعرف على الفن والأدب الأوروبيين، وتأثر كثيراً بالثقافة الغربية، وكان لهذا الأثر الكبير في انتقاده الأوضاع السائدة في إيران بعد عودته إليها.

قام بالتدريس في شيراز ثم في طهران، وتعرف على شخصيتين كان لهما تأثير كبير في حياته السياسية والأدبية؛ كل شخصية من هاتين الشخصيتين كانت تمثل تياراً معيناً في إيران.

التيار السياسي الذي كان يمثله الدكتور تقي أراني (1903 - 1940) الذي تخرج في دار الفنون، وأكمل دراسته في الكيمياء بألمانيا، بعد عودته إلى إيران أسس مجلة (دنيا)، وقد كان ماركسياً، ويعتبر أحد مؤسسي حزب «توده» الشيوعي.

تم القبض عليه عام 1937 في بيته ضمن مجموعة من ثلاثة وخمسين شخصاً، بينهم بزرگ علوي بتهمة الضلوع في النشاطات الشيوعية، وقد توفي أراني أو اغتيل في سجن رضا شاه، وحكم على علوي بالسجن سبع سنوات، ولكنه أفرج عنه بعد أربع سنوات إثر نفي رضا شاه.

التيار الآخر هو التيار الأدبي الذي بدأ بتعرف علوي على صادق هدايت إثر قراءته مسرحية صادق هدايت «بروين بنت الساسانيين»، حيث تكونت مجموعة أو عصبة «الربعة» أي «الأربعة» من صادق هدايت وبزرگ علوي ومسعود فرزاد ومجتبى مينوي.

تكونت هذه المجموعة أو العصبة في وجه عصبة «السبعة» التي كان من أفرادها سعيد نفيسي وعباس رشيد ياسمي، وكانوا

يتبعـون المنهج الكلاسـيكي والمحافظ فـي الأدب بعكس توجهات ومنهـج أصحـاب عصبة «الربعـة»، والفرق الآخر بـين العصبتين حسـب قول علوي أن السـبعة كانوا أناسـاً مهمين، ولهم أعمالهم الثابتـة، وكانـوا معروفـين، وصورهم تملأ المجـلات، بينما عصبة «الربعـة» كانـت في بداية الطريـق، وتريد أن يكون لها شـأن بين الآخرين. (أحمدي مصدر سابق)

كانـوا حديثـي العهـد إلـى حـد مـا بالكتابـة، إلـى جانب أن كتاباتهم كانت تثير الجدل في الأوسـاط الأدبية من حيث المنهج والموضوع، وقد سـاهموا في تقدم عجلة الأدب الفارسـي وترسيخ ألوان ومفاهيم جديدة، فقد قاموا بإنتاج ألوان أدبية مختلفة من مسرحيات وقصص قصيرة وروايات وترجمات من لغات متعددة.

وكان علوي نشـيطاً في كلا التيارين، فلقد استوعب الماركسية ودرسـها، وقام مع تقي أراني وإيرج إسـكندري بإصـدار أعداد من مجلة «دنيا» اليسارية، حيث كان يكتب بها تحت اسم مستعار هو «فريدون ناخدا»، إلى جانب مسـاهمته في مجلات أخرى كمجلة «مردم»، وكان من مؤسسـي حزب «توده»، واشـتهر ككاتب ومناضل يساري.

أمـا مـن الناحيـة الأدبية فلقـد بـدأ بالكتابة الأدبية، ونشـر العديـد مـن كتاباتـه وترجماتـه، ويبـدو أن علـوي كان مـدركاً لـدوره السياسـي والثقافي في كل كتاباته، فهـو يبرر مثلاً كتابته مذكراتـه على قصاصات أوراق مختلفة كأوراق علب السـجائر أو الأوراق التـي كانت تغلف فيها الفاكهة، أثناء وجوده في السـجن علـى الرغم مـن إدراكه ويقينـه التامين بجسـامة المخاطر التي

قـد تعقب ذلـك، والتي كانت سـتؤدي بالتأكيد إلـى قتله لو أنها وقعت في أيدي مسؤولي السجن، وقد نشرها بعد ذلك في كتاب «قصاصات أوراق السـجن»، يبرر ذلـك بأنه كان لديه إيمان قاطع بأن شـعب إيران لم يكن على علم بما يجري في السـجون، وكان مـن الضروري أن تعرف الأجيال القادمـة كيف كان يتم التعامل مع شـباب إيران المخلـص والباحث عن الحرية، فـي تلك الفترة السوداء. (مقدمة «قصاصات أوراق السجن» علوي 1941)

في رواية «عيناها» يحاول وكيل المدرسـة أن يتوصل إلى أسرار حياة الأستاذ «ماكان» لأنه يعتقد بأن هذه المعرفة ضرورية للناس، ومفيدة لجيل اليوم المناضل.

ولذا فإن كان الكثيرون يربطون بين صادق هدايت وبزرگ علوي لتلاقـي أفكارهمـا وأهدافهمـا الأولى، فإن أهم مـا يفصل هذين الكاتبـين هـو نظرة كليهما إلى الحياة، فبينما كان هدايت مغرقاً بالتشاؤم فإن علوي عاش وهو يملؤه الأمل بالمستقبل وبالأجيال القادمـة، وقد انعكسـت نظرتاهما للحياة على كتاباتهما بشـكل جلي.

وقـد ظل علوي مشـتتاً بـين هذيـن التيارين؛ كان تيـار أراني ماركسـياً يدعـو إلى محاربـة الطبقية والظلم كجـزء من صراع عالمـي، وكان ذا خـط سياسـي واضح، بينما كان صـادق هدايت ذا نزعة قومية معادية للإسـلام والعروبة اللذين كان يعتبرهما قد شـوها الهويـة الإيرانيـة، ولذا فقـد كان يدعو إلى إعـادة الهوية الإيرانيـة لإيـران عـن طريق مـا لصق بها مـن الثقافـة العربية والإسـلامية، وعلى الرغم من دراسته وتحليله العادات والتقاليد

الفارسية لكنه كان شديد الإعجاب بالغرب.

مع ذلك فإن ما دفع علوي إلى الإعجاب بصادق هدايت بُعيد قراءته مسرحية «بروين بنت الساسانيين»، هو ما تحويه هذه المسرحية من انتقادات للعرب والدين، وكان يرى أنه من المفروض العودة إلى تاريخ إيران ما قبل الإسلام، والتخلص من التأثير العربي والإسلامي.

ولقد عبر علوي عن هذه النظرة في مجموعته للقصص القصيرة «الغول»، غير أنه كان أكثر واقعية من هدايت الذي على الرغم من تعاطفه مع الشيوعيين في إيران لكنه لم يكن ينتمي إلى أي حزب سياسي، بعكس علوي الذي كان من مؤسسي حزب «توده»، وكان يكتب في مجلاته المهمة.

كان علوي - وهذا ما نلمسه بوضوح في رواية «عيناها» - يبغض فرض أساليب الحياة الغربية بشكل تعسفي، وكان مدركاً لخصوصية الثقافة الإيرانية، ولكنه ككثير من أدباء إيران في القرن العشرين كان ينادي بالعودة إلى ماضي إيران ما قبل الإسلام. وهناك العديد من العوامل التي أدت إلى هذا المنحى من قبل هؤلاء الأدباء، تشرحها نيلوفر ذهني، وهي هنا لا تقتصر على أدباء ما بعد الحركة الدستورية بل تشمل عهد القاجار، وتورد كمثال آخوند زاده الذي نادى بتغيير الحروف الفارسية إلى اللاتينية:

«إثر عودة الطلاب الذين أرسلوا إلى الخارج في عهد فتحعلي شاه القاجاري تكونت فئة من المستنيرين الذين أخذوا بمقارنة إيران الفقيرة والمتخلفة في ذلك الزمان بأوروبا، وهذه المقارنة قادتهم

إلى الإحساس بالدونية والنقص، ولذا تعتبر إحدى خصائص هذه الفئة المناداة بمنح الهوية لمجتمع يشعر بالنقص والفقر في مقابل إنجازات الشعوب الأخرى عن طريق محاولة الرجوع إلى الماضي البعيد جداً قبل الفتح العربي الإسلامي، واعتبار السبب الوحيد لفشل وتخلف الإيرانيين هو هجوم العرب وضياع قدرة وعظمة الأباطرة الساسانيين، واعتقد بعضهم ضمن مناداتهم بالعودة إلى الماضي بوجوب التقرب إلى الغرب وتقليده». (ذهني 2013)

تتطرق الكاتبة في حديثها عن إحياء الماضي الإيراني إلى الشاه رضا بهلوي، فتذكر أن الشاه حاول هو الآخر إحياء ماضي إيران الذهبي، ولكن يكمن الخلاف بينه وبين المفكرين والكتاب في أن رضا شاه حاول إحياء فترة من التاريخ الإيراني كان يعتبر الشاه فيها إلهاً، بينما كان المفكرون يعتقدون أن طريق التقدم يكون من خلال إحياء ثقافة ولغة وعادات وتقاليد فترة ما قبل الإسلام من ناحية، والقضاء على مظاهر تسلط العرب على الإيرانيين من ناحية أخرى، ولم يكونوا يحتملون ديكتاتورية واستبداد الحكومة، ولم يكونوا على استعداد لقبول هذا الجزء من الماضي. (ذهني، مصدر سابق) [2].

كانت حياة علوي مثمرة، فقد كتب الكثير من البحوث والقصص، ومنذ فترة مبكرة من حياته الأدبية قام بترجمة الأعمال الأدبية وغيرها، وقد كان ملماً بالآداب والفنون ضليعاً بالعلوم السياسية، وبخاصة الماركسية والفلسفة وعلم النفس والتاريخ. وتعتبر روايته «عيناها» من أهم وأكثر الروايات الإيرانية انتشاراً، فقد نشرت في عهد حكومة مصدق، وهو العهد الذي

شهد الكثير من الحريات، وبخاصة في مجال النشر، وقد نشر منها أربع طبعات بين عامي 1952 - وهي سنة النشر - وعام 1961، وعلى الرغم من صعوبة نشرها بشكل رسمي فإنها نشرت مرات عديدة سواء في إيران أو أوروبا.

عمل كأكاديمي لفترة طويلة في ألمانيا، وحتى في السنوات الأخيرة من حياته وبعد تقاعده كان يقوم بإلقاء المحاضرات والإشراف على رسائل الدكتوراه واستكمال بحوثه وترجماته.

وهذا ما يقوله عن نفسه في مقابلة له:

«يجب أن تعترفوا بأن هذا الرجل الذي يجلس أمامكم، أي بزرگ علوي لم يكن أبداً بطلاً، كما أنه لم يكن أبداً جباناً، أما بخصوص نضالي فهذا موضوع آخر، كلما أراجع حياتي أرى أنني لم أكن مقصراً أبداً. إن الكتابة منحتني على الأقل ساعات ممتعة في حياتي، لو لم أكن كاتباً لما استطعت أن أقوم بعمل آخر في حياتي، ولكنت رجلاً عاطلاً غير ذي نفع. لم أكن أصلح للسياسة، وقد فشلت في السياسة، ولن أعود لها، ولكن ليس من الممكن ألا يحب الإنسان تاريخ ومقدرات شعبه وبلده. أنا إيراني خالص، ولم أكن أقبل أبداً أن أمتلك جنسية أخرى غير الجنسية الإيرانية». (أحمدي مصدر سابق)

ولكنه عانى من عدم تقدير المجتمع لأعماله، وقد يكون محقاً، ففي الوقت الذي تكاد تكون رواية «عيناها» عالمية، وقصص قصيرة كـ «الحقيبة» التي تطرح نظرة فرويدية للعلاقة بين الأب والابن و«الرجل الكيلاني» التي تشرح معاناة رجل مقهور من كيلان، تعتبر من أهم ما كتب من القصص القصيرة في الأدب

الإيرانـــي إن لـم تكن الأهم على الإطـلاق، فإنه لم ينل الاحتفاء الذي لاقاه بعض معاصريه.

عانـــى أيضاً مــن الغربة والنفي والســجن، وكان صادقاً فيما كتــب، فقد كتب بواقعية، وحاول تصوير واقعه وزمانه من خلال كتاباتــه التـــي تميــزت بالواقعية، وأبطاله الذيــن يمثلون نماذج مــن الشــخصيات التـــي كانت تعيش بــين الناس فـي فضاءاتها اليومية وظروفها وإمكاناتها الزمانية، ولذا من الصعب معالجة وتحليــل أعمالــه دون الرجوع إلى أحــداث وخصوصيات الزمان الــذي كتبــت به، ويعــد رائد أدب الســجون في إيــران من خلال أعمالــه الآتية: «الرســائل»، «قصاصات أوراق الســجن»، و«ثلاثة وخمسون شخصاً» [3].

فـي مقابلــة له مع مجلــة «عقرية» الإلكترونيــة يقول الكاتب بهارلو:

«لقد كان علوي طوال ســتين سنة مخلصاً لهذه القاعدة التي تقول بأن الكاتب شــاهد على أوضـــاع وأحوال زمانه، وهو مضطر لأن يدلي بشــهادته أثناء الكتابــة... كان علوي ينتمي إلى الأدب الاجتماعي، الأدب الذي يســتند جوهــره وموضوعه على أرضية تاريخية صلبة، وعلى هذا الأســاس وبقليل من المرونة والتسامح مــن الممكن اعتبار أعماله لوناً من الأدب الوثائقي الذي تســتمد عناصــره ومكوناته من زمــان ومكان معينين، وتمتلك شــخوصه مصيراً تاريخياً». (بهارلو 2011)

وقــد تكــون شــهرة وانتشــار هــذه الرواية يعــودان إلــى وضوح الفتــرة الزمنية التـــي تدور فيها أحداثها، وهي فترة أوج قوة رضا

شاه بهلوي، الفترة البغيضة من التاريخ الإيراني، انتشر فيها الاستبداد والديكتاتورية، وأصبحت هذه الفترة بكل وقائعها وأحداثها جزءاً من اللاشعور الجمعي والتاريخ السياسي والاجتماعي للإيرانيين، ولذا سنبدأ بملخص عن هذه الفترة قبل الكتابة عن أحداث وشخوص الرواية.

أصبح رضا خان (1878 - 1944) شاهاً لإيران عام 1925 بعد إنهائه حكم العائلة القاجارية التي عاثت فساداً في إيران، ورسخت التخلف والفقر، وأتاحت الفرص للتدخلات الأجنبية، بعد أحداث مهمة وتطورات خطيرة ساهم فيها بشكل رئيسي بدأت من عام 1921، وهذه الفترة تخللتها تغيرات في العداءات والصداقات ومراوغات بينه وبين القوى الفاعلة داخلياً وخارجياً.

كان رضا شاه متأثراً بتجربة أتاتورك، فحاول إدخال العديد من مظاهر الثقافة الغربية إلى بلاده، وقام بالعمل على توحيد أجزاء بلاده بواسطة بناء شبكة قطارات ربطت أنحاء البلاد ببعضها حتى يتمكن من السيطرة على الحركات المتمردة من العشائر. بنى جيشاً نظامياً عتيداً، وحاول توطين العشائر والحد من قوة وسيطرة زعماء العشائر، وبنى المدارس الحديثة وجامعة في طهران، وأرسل بعثات دراسية إلى الخارج، وفرض على النساء التخلي عن ملابسهن التقليدية ونزع غطاء الرأس، وسميت هذه الحركة بكشف الحجاب، وأبعد رجال الدين عن مراكز القوى، بينما أطلق أيدي قوى الأمن السياسي لقمع كل القوى التي لم تؤيده، وقد كان على الرغم من إدخاله العديد من التغيرات ذات الصبغة الغربية في بلاده بشكل تعسفي

واستبدادي ودون أدنى اعتبار لخصوصية إيران الثقافية وتأثير الدين والعادات والتقاليد على سلوكيات شعبه، قد غفل عن أهم منجزات الثقافة الغربية وأهم عنصر من عناصر تقدمها، وهي الديمقراطية، فحكم إيران بيد من حديد، وأصبح مثالاً للاستبداد وحكم الفرد.

وعلى الرغم من انتشار مظاهر الحداثة الغربية في زمن رضا شاه لكن مسيرة الحداثة كانت قد بدأت قبل عهده بفترة طويلة، وقد يكون أهم منجزاتها تأسيس مدرسة دار الفنون التي تخرج فيها عدد كبير من كتاب ومفكري إيران، والذين كان بعضهم ضمن أوائل المبتعثين إلى أوروبا، فقد تأسست مدرسة دار الفنون عام 1852 في عهد ناصر الدين شاه القاجاري لتعليم العلوم والفنون الحديثة، وترجع فكرة تأسيسها وإقامتها لميرزا تقي خان (أمير كبير) رئيس الوزراء المستنير والمجدد في عهد ناصر الدين شاه.

يعتبر أمير كبير مؤسس الحداثة ومهندس التعليم الحديث في إيران، وكان لهذه المدرسة التأثير الكبير في التحول الفكري لخريجيها والتطلع نحو الثقافات الغربية والسعي لإدخال الحداثة في إيران، وتشجيع المجلات والصحف.

ولكن ظلت الأمية والتخلف والخرافة والفقر والفساد والمحسوبية منتشرة في إيران، أضف إلى ذلك التأثير الخارجي والتدخلات الأجنبية التي لم تتغير كثيراً في أثناء حكم رضا شاه الذي كان يستخدم التدخلات الأجنبية في بلاده كأهم أسباب انقلابه على الأسرة القاجارية.

هذا هو الزمن الذي وقعت فيها أحداث رواية «عيناها».

جلست فرنكيس المرأة المجهولة، حيث إن اسمها هذا مستعار، في صالون منزلها لتحكيها بعد مرور خمس عشرة سنة على موت الفنان ماكان لوكيل المدرسة ومريد الفنان.

الشخصيتان الرئيستان في هذه الرواية هما: الأستاذ ماكان، وهو فنان تشكيلي مناضل مشغول بهموم الناس الكادحين وبمشكلات وطنه السياسية والاقتصادية، ويوظف فنه للدفاع عن قضايا وطنه، وفرنكيس الفتاة الجميلة التي تنتمي إلى أسرة غنية، تتعرف على الفنان المناضل الذي يكبرها سناً، وينتمي إلى طبقة مختلفة بعد أن طلب منها والدها أن تتعلم الرسم على يديه. تصدمها لا مبالاته وعدم وقوعه تحت تأثير جمالها، وتكتشف أنها لا تمتلك أي موهبة حقيقية، وتذهب إلى فرنسا للدراسة، ومن بين العديدين الذين تلتقي بهم كان اليساري خداداد الذي يكون سبباً في لقائها بماكان مرة أخرى إثر عودتها إلى طهران، حيث تبدأ قصة حبها لماكان.

أثناء ترددها على مرسمه يقوم برسم بورتريه لها ويطلق على اللوحة عنوان «عيناها».

وتبدأ بالعمل السياسي السري، وحين يتم القبض على ماكان تضحي بسعادتها وحبها ومستقبلها حين تطلب من رئيس دائرة الأمن أن يفرج عنه في مقابل قبولها بالزواج منه، ويتم لها ما أرادت، فيطلق سراحه لينفى إلى قرية نائية، وتتزوج هي وترحل للعيش مع زوجها في أوروبا.

وقد ارتبطت هذه الرواية بشخصيات حقيقية، فالكثيرون

يعتقـدون أن مـاكان هو الفنـان الإيراني كمال الملك، واسـمه محمـد غفـاري (1849 - 1940)، وهـو مـن كبـار الفنانـين الإيرانيين، وينحدر من أسرة من الفنانين التشكيليين، قضى فتـرة من حياتـه في أوروبا، حيـث تعرف على أعمـال العديد مـن فنانيها، ثم رجـع إلى طهران، وبعد فترة عاش في كربلاء في العراق، ولديـه بعض اللوحات التي تصور الحياة اليومية هناك. بعد نجاح الحركة الدستورية التي كان أحد المناصرين لها أسـس مدرسـته (مدرسـة الفنـون الجميلة) فـي طهران، وظـل يديرهـا إلى أن اضطر لتركها نتيجـة خلافاته مع إدارة المعارف في ذاك الوقت، وترك طهران إلى مزرعة له في نواحي نيشابور، واختار حياة العزلة فيها على العيش في طهران.

أمـا الشـخصيات الأخرى فهي شـخصية آرام الذي يعتقد أنه أيروم رئيس الشـرطة في عهد رضا شـاه، وشـخصية خيل تاش هي لتيمورتاش وزير البلاط الشاهنشاهي آنذاك.

تقـع أحـداث الروايـة فـي أوج ديكتاتوريـة واسـتبداد رضا شـاه ووسط تغيرات سياسـية ضخمة، وتقوم بتصوير سلبيات المجتمع الإيراني ومشكلاته، حيث الأمية والتخلف والخرافة والفقر والفسـاد والمحسـوبية والاسـتيلاء على أراضي الملّاك والمزارعـين، ولـم يكن تعلـق البعض بمظاهر التمـدن الغربي سـيقتلع جذور الجهل والتخلف من هـذا المجتمع، وكثيراً ما كان يتعايـش نموذجـا التمدن الغربي والتخلف تحت سـقف واحـد، كمـا كان الوضـع فـي أسـرة فرنكيس، حيـث كان الأب متشـبثاً بمظاهـر التمـدن الغربـي، بينمـا واظبـت الأم على

تمسكها بعقائدها الدينية وأفكارها التقليدية، ولقد قام علوي بتصوير حياة الأسرة كنموذج للمجتمع الإيراني الممزق بين عادات وتقاليد توارثتها الأجيال وتأثير الممارسات والأفكار الحديثة التي أدخلت وفرضت على هذا المجتمع. لا يكتفي علوي بتشريح المجتمع المدني الحضري بل يتطرق لأحوال القرى التي تكالبت عليها المشكلات الثقافية والاقتصادية من جراء سياسات الديكتاتور، ولكن أبرز ما يظهر لنا في هذه الرواية نشاطات اليسار الإيراني في داخل وخارج إيران وطرق محاربة الديكتاتورية بالعمل السري.

من العناصر المهمة التي أعطت هذه الرواية قيمتها أنها كانت رواية تخص امرأة كتبت بقلم رجل، حتى وإن كان في النهاية من استحق المديح والتبجيل هو الرجل البطل.

هذا ما يقوله بهارلو بهذا الخصوص:

«في رواية «عيناها» لأول مرة في الأدب الفارسي، يجبر رجل أسطورة، أسطورة الأستاذ ماكان، على الانزواء، ولكن في الحقيقة لو أن هناك أسطورة في الموضوع فهذه الأسطورة هي فرنكيس وليس ماكان؛ فرنكيس تضحي بنفسها وتتحطم حياتها حتى تبقي على حياة حبيبها ماكان. إن ماكان مدين بحياته لتضحية فرنكيس، وهذه الحقيقة لم يكن ماكان نفسه على علم بها». (بهارلو، مصدر سابق)

ولذا وعلى الرغم من أن البطلة الحقيقية لهذه الرواية هي فرنكيس فإن الرواية اشتهرت كقصة رجل مناضل يكافح الاستبداد والديكتاتورية والظلم.

هناك نقطة مهمة، من الغريب أنه - حسب علمي - لم يتم التطرق إليها من قبل، أي ممن درسوا هذه الرواية؛ فالرواية اشتهرت كرواية سياسية على الرغم من رومانسيتها، وبُحثت وانتُقدت على مدى ما يقارب الستين عاماً على هذا الأساس، في حين إنه من الممكن إخضاعها لدراسة نفسية تحليلية، فالبطلة فرنكيس وحيدة أبويها ومتعلقة بأبيها المتحرر والمعجب بها، معتدة بجمالها وفتنتها، ويكاد يكون حبها لماكان هو ردة فعل نرجسية لرفضه التعامل معها كامرأة جميلة، هي في كل الأحوال تحاول أن تظهر بالشكل الذي تعتقد أنه سيكون مقبولاً لدى ماكان الذي يكبرها سنّاً، وقد يمثل لها صورة الأب، وبينما تشعر بحب واحترام شديدين ناحية أبيها فإن علاقتها بأمها لا تتمتع بنفس الدرجة من الإعجاب.

هذه الرواية تقوم بتصوير شخصية امرأة على الرغم من كل تضحياتها وتنازلاتها لكنه من الممكن اعتبارها نموذجاً للشخصية النرجسية، ولا أعتقد أن هذه النقطة كانت غائبة عن علوي الضليع بالعلوم الاجتماعية والمطلع على علم النفس الفرويدي الذي - كما سبق أن ذكرنا - وظف معلوماته في هذا المجال في إحدى أهم قصصه القصيرة «الحقيبة».

تزخر هذه الرواية بعناصر شتى تفتح المجال لدراستها، وقد لا تكون مناقشة هذه العناصر متاحة في هذه المقدمة، لكن من المجدي لفت النظر إلى هذه النقطة عسى أن تكون منطلقاً لدراسة ستجد مادة غنية في هذه الرواية.

يبقى أن شهرة هذه الرواية وتفردها يرجعان إلى مخاطبتها وتصويرها الضمير الجمعي الذي كان يعاني من قهر وظلم، وكان علوي من القلائل الذين استطاعوا التعبير عنهما بوضوح وصراحة من خلال «عيناها».

## الملاحظات:

1 - من الأحداث المهمة في تاريخ إيران الحديث، الحركة الدستورية التي كانت تدعو إلى وضع أسس ديمقراطية لحكم البلاد، والتي أدت إلى تشكيل أول مجلس نيابي في 1906، وكان ذلك في عهد مظفر الدين شاه القاجاري، وفي عام 1908 قام محمد علي شاه بالهجوم على المجلس، وتبع ذلك قيامه بقتل وسجن أعداد كبيرة من أنصار الديمقراطية، وبدأت مرحلة من الديكتاتورية والاستبداد. (للمزيد في هذا الموضوع انظر آمال السبكي).

2 - في انتقاده للأدباء المعاصرين في إيران أمثال علوي وهدايت يقوم الكاتب الإيراني جلال آل أحمد باتهامهم بالنزوع إلى الغرب وانبهارهم بثقافته، ويرى أن اتهامهم الإسلام كمسبب للتخلف الذي تعيشه إيران غير منطقي، فكأنما ليس هناك أي أحداث وتغيرات ومسببات أخرى أدت إلى هذا التخلف في كل القرون التي أعقبت دخول الإسلام لإيران في القرن السابع الميلادي. وفي تحليله لظاهرة المثقفين في إيران يتهم جلال آل أحمد هؤلاء بالبعد عن عامة الشعب لكونهم ينتمون أساساً إلى الطبقة الأرستقراطية في

إيـران، وإن كانت هذه التهمة الأخيرة تنطبق على العديد من كتّـاب هــذا الجيل فإنها لا تصدق على علوي الذي جســد في الكثيـر من أعمالــه معاناة عامة الشــعب، وبخاصة في قصته القصيرة «الرجل الكيلاني» و«قصاصات أوراق السجن» وحتى فــي روايــة «عيناهــا». (انظــر: جــلال آل أحمــد. فــي خدمات وخيانــات المســتنيرين، وجويا بلندل ســعد. صــورة العرب في الأدب الفارسي الحديث).

3 - انظر: «بهارلو وفكري إبراهيم سليم».

## المراجع:


- آمال السبكي. تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (1906-1979). عالم المعرفة. الكويت. 1999.
- بـزرگ علــوي. قصاصــات أوراق الســجن. شــركت كتــاب. طهران. 1942. باللغة الفارسية.
- جــلال آل أحمــد. فــي خدمــات وخيانــات المســتنيرين. انتشارات رواق. طهران. بلا تاريخ. باللغة الفارسية.
- حميد أحمدي. ذكريات بزرگ علوي. دنياي كتاب. طهران. 1998. باللغة الفارسية.
- جويــا بلنــدل ســعد. صــورة العــرب فــي الأدب الفارســي الحديث. ترجمة: صخر الحاج حسين قدمس للنشر والتوزيع. بيروت. بلا تاريخ. نشرت باللغة الإنجليزية سنة 1996.
- فكــري إبراهيــم ســليم. بحــث «الســجين السياســي كما صوّرتــه المجموعة القصصية: قصاصات ورق الســجن للكاتب

الإيراني بزرگ علوي» نسخة إلكترونية.

- محمد بهارلو. مقابلة معه باللغة الفارسية في المجلة الإلكترونية «عقرية». سنة 2011.

- نيلوفر ذهني. «تمايل المفكرين إلى الماضي في أوج مرحلة التحديث». مقالة إلكترونية نشرت باللغة الفارسية بتاريخ 2013/1/29 في www.persianrfi.fr.

د. زبيدة أشكناني

يقولون: أيا سعدي! لا تسرد الكثير من أحاديث العشق

سأحكي وسيحكون من بعدي للأجيال والعصور

صمت خانق كان يخيِّم على مدينة طهران، لم يكن أحد يجرؤ على أن ينبس ببنت شـفة، وكان الجميع يهاب بعضهم من بعض؛ الأسـر تخاف من أبنائها، والأطفـال من معلميهم، والمعلمون من عمّـال المدارس، والعمال من الحلّاق والمدلّك.. الجميع يخشـى نفسـه ويجـزع من ظلـه، في كل مـكان.. في البيـت والمكتب، والمسجد والدكان، وفي المدرسة والجامعة والحمّام، كان الجميع يعتقد أن عملاء المخابرات يتعقبونهم. في السـينما، أثناء عزف النشيد الملكي، كان الجميع ينظر إلى ما حوله، مخافة ألا ينهض مجنـون أو أرعن ويجلب المشـكلات والمتاعـب للجميع. صمتٌ رهيـب ذاك الذي كان يخيم على جميـع أنحاء البلاد، الكلّ كان يظهر نفسـه راضياً، لم يكن للصحف ما تنشره غير كيل المديح للديكتاتور، الناس متعطشـون للأخبار، وينشـرون سراً أكاذيب مبالغاً فيها! من كان يجرؤ على أن ينعت علناً شيئاً بالسوء؟ وهل من الممكن أن يكون هناك شيء سيئ في الدولة الشاهنشاهية؟

كان الحزن والقنوط وسـوء الظن واليأس أشـياءَ باديةً على الناس في السوق والشارع، وكانوا متوجسين من النظر لما حولهم مخافة أن يثيروا الشكوك.

شـوارع مدينة طهران باتت لا تُحتمل بسـبب أشعة الشمس اللافحـة، ولا ندري مـن أخبر البلدية أن شـوارع أوروبا خالية من الأشـجار، حتى انهال العمال على الأشجار المعمّرة بالمنشار

والفأس، يقطعونها عن بكرة أبيها، كانوا يدمرون الزقاق الضيق، وينقضون أساسات المحلات، ويتركون الناس في العراء، وكان بناء بيت في هذا المكان المجدب يستغرق سنوات، وما يُبنى كان حقيراً وعشوائياً، يبنون السجون في كل أرجاء البلاد، ومع ذلك لا تستوعب السجناء.

وكل من انكشف له سقوط النظام الديكتاتوري في عالم الرؤيا، وتمنّى سقوطه يُزجُّ به في السجن، شيخاً كان أو طفلاً في سن العاشرة، فقيهاً كان أو من العوام، بقالاً كان أو عامل حمّام، من شرق البلاد أو غربها، ومن شمالها أو جنوبها، كان الاعتقال يطول طالب المدرسة، كما يطول الوزير والنائب، يُعتقل أحدهم بتهمة التحدث عند الحلاق عن رسم كاريكاتوري للشاه نشر بصحيفة في فرنسا، ويعتقل الآخر بتهمة تبادل الأحاديث مع نواب دولة أجنبية، ويلقى القبض على الآخر بتهمة بيع أسهم نفط الجنوب سراً للمستثمرين الإنجليز.

في ظل هذه الأوضاع، توفي الأستاذ «ماكان» في العام 1938. كان أكبر فنان تشكيلي إيراني في السنوات المئة المنصرمة، فبعد عدة قرون، وجدت أعمال فنان تشكيلي إيراني من يقتنيها في أوروبا، كما نشرت لوحاته مجلاتٌ فنيةٌ في أوروبا وأميركا.

كان لعدد قليل من الأشخاص ممن يستقبلونه في المدرسة والمجالس بالهتاف، الجرأة على إبراز المحبة والتودد إليه، فهناك في الخفاء من يعلم أن الأستاذ «ماكان» من الأشخاص القلائل الذين تجرؤوا وأبدوا شجاعة في التعامل مع النظام الديكتاتوري، حيث تُحكى عنه حكايات مثل: «لم يجزع من أي حرمان، ولم يغرم بأي شيء، لم يكن ملتزماً بشيء غير الرسم، ولم تحنِ

كاهلَه ضغوطُ جهاز شرطة الديكتاتور، إذ لم يكن تهديده مُجدياً، فلقد أوقفوا صرف راتبه فلم يبالِ، ونفوه من مدينة طهران فبقي ثابتــاً على موقفه، إلى أن مات في ديار الغربة بعيداً عن أقربائه وأصدقائه».

كانــت العامــة تقول إن حــب امرأة وضع حــداً لحياته، لكنّ العارفين به يعتقدون أن عشقه للحياة أوصله إلى الموت.

فــي اليوم الذي انتشــر فيــه نبأ وفاته في طهــران، تهامس أصحابه وأقرباؤه: «ها هو شخص آخر يموت بالسكتة القلبية»، لأن الصحف درجت على وصف ضحايا الحكومة، الذين يموتون في السجن أو المنفى، بأنهم كانوا مصابين بمثل هذا المرض.

ربما يكون السبب وراء تكريم النظام له، من أجل تغطية الجريمة التــي ارتكبت في حقه، هو إصرار أحــد أصدقائه النافذين في جهاز الدولة، وربما يكون ابتكاراً من الحكومة نفسها، لأنها كانت على علم بالتأثير المعنوي للأســتاذ في أوساط المثقفين، فقالوا: الآن وقد تخلصنا من خصم لدود للاســتبداد، لماذا لا نســتثمر موته على أوســع نطاق، لئلا يوقن الناس أنــه اغتيل في إيران، وبخاصــة بعد الضجــة التي أثارها رئيسٌ لدائــرة الأمن فرّ من البلاد؟ أعدت له الحكومة مجلس عزاء في مسجد «سپهسالار»، أحضروا جنازته إلى طهران في مراســم لائقة، ووورِي الثرى في مقبــرة «حضرة عبدالعظيم»(*). أقاموا له حفل تأبين في ثانوية «أمير كبير»، وأقاموا معرضاً لأعماله في قاعة معهد الدراسات التمهيدية، هكذا أرادت الدولة أن تظهر احتفاءها بالفن.

(*) مــزار فــي إحدى ضواحي طهــران يعتقد الناس أنــه مدفن أحد أبناء الإمــام الرضا، في حين يعتقد بعض المؤرخين انه لأبي القاســم عبدالعظيم المنحدر من ســلالة أحد أئمة طبرستان الزيديين، وهو يسمى أيضا بشاه عبدالعظيم (المراجعة).

لكن الناس مـا عادوا ينخدعون، وهم الذيـن اعتبروا إقامة صرح عظيم مثل الجامعة إنقاصاً من اسـتقلال البلاد، ويصب في مصلحة الإنجليز فقـط، لأنه أقيم بأمر من الديكتاتور، فما بالك بموت أسـتاذ فنان، وفي بلاد الغربـة؟ فهؤلاء لا يمكن أن يعتبروا مراسـم العزاء الرسمية والتكريم المصطنع الذي أقيم له أمراً طبيعياً وعادياً.

أولئـك الزعمـاء وأصحاب الجاه والجـلال، الذين كانوا في طهـران المضطربة يومها مـن نواب ووزراء وعقـداء وجنرالات وغوغاء، حضروا جميعـاً افتتاح المعرض، وتحدثوا وكالوا المديح وانصرفـوا. وتقررت إقامة المعرض لمدة شـهر، وزاره في أيامه الأولى تلاميذه وأصدقاؤه ومريدوه فقط. كانوا يتسـمرون قرب لوحاته، وبخاصة قبالة آخر لوحة أحضرت من بلدة «كلات» إلى طهـران، منحنين له احتراماً لعظمة فنه وقوة تجسـيده ومهارته في بيان العواطف الإنسانية بالخط واللون.

في الأمسيات، ومحافظةً على ماء وجهها، كانت وزارة الثقافة تبعـث إلى هنـاك المجموعة تلـو الأخرى من مسـؤولي طلاب المدارس. لكن بدءاً من الأسـبوع الثاني، اتخذت مشاهدة أعمال الأستاذ الفنان طابعاً شعبياً ووطنياً، فكان الناس يذهبون زرافات ليشـاهدوا أنفسهم، وكانوا يجدون انعكاساً لصورهم في لوحاته التـي رسـمها برصانة، بألـوان جميلة، ويتسـمرون أمام لوحة بذاتها، كتب أسـفلها بخط الأسـتاذ نفسـه «عيناها»، يحدقون فيها باندهاش، يتناقشون فيما بينهم، ويجتهدون في إدراك سر العينين اللتين تقولان كل شـيء، وتنظران إلى الجميع بهدوء في الآن نفسه. الناس يسألون أنفسهم: ما السر الذي تخفيه هاتان

العينان؟ ما الشـــيء الذي تبديانه؟ وكان كل من يقوده فهمه إلى شيء يقوله، لكن النظرات مختلفة، وهذا ما كان يقود الى الجدل.

فـــي نهاية الأســـبوع الثاني، وصل الازدحام مـــداه، مما حدا بالدولة وســـلطات المدينة إلى اعتبار مشـــاهدة اللوحات إبرازاً جماعيـــاً لغضب الناس، وتدنياً في شـــعبية الحكومـــة، فقاموا بإغلاق المعرض في أول أيام الأسبوع الثالث.

كانت لوحة «عيناها» صورة بســـيطة لامرأة، ليس أكثر؛ وجه طويل لامرأة انساب شعرها على كتفيها كالقار المذاب، كل شيء في الصورة يبدو باهتاً، وقد بدا الأنف والفم والوجنتان والجبهة بلون قاتم، كما لو أن الرســـام يريد أن يقول إن صاحبة الصورة لم يعـــد لها وجود في العالم الخارجـــي، وإن عينيها فقط تركتا في ذاكرته أثراً خالداً. كانـــت العينان تنظران إلى المرء بجاذبية عجيبة، لم تكونا تحدقان، بيد أنهما تمزقان الحجب التي تفصل بين صاحبتهما والمتفرّج، وتخترقان قلب الإنسان كالسهم. أكانت ستذرف هاتان العينان بعد لحظات دموعاً أم سترسمان ابتسامة صفراء؟ غير أن الشـــفاه لـــم تكن توحي بأية ابتســـامة! أكانت العينان ضيقتين ومســـحوبتين لتبتســـما وتبعثا في المتفرج أملاً فـــي الحياة، أم لتعذبـــا مهموماً؟ أهما عينا امـــرأة ورعة زاهدة أم عينـــا امرأة لعوب تبحث عن فريســـة أم أن كل شـــيء انطوى فيهمـــا؟ أكانتا تريدان إلقاء فريســـة في فخهمـــا أم تلهثان وراء تحقيق أمنية؟ أكانتا صادقتين وحميمتين أم مؤذيتين وجريئتين؟ عفيفتين كانتا أم وقحتين؟ أبَدَتَا غير مباليتين أم مستجديتين؟ لو أن العينين تلتمسان شيئاً فما الشيء الذي تريدانه؟ يا للحكايات التي ترويها هاتان العينانُ في نشوتهما ونعاسهما!

كل ما في الصورة كان عادياً؛ الجبين الطويل والأنف الممدود والمقدود، الذقن الدقيق والوجنتان النحيلتان، الشعر الحريري والشفاه الرقيقة، كل هذا لم يكن يترك تأثيراً خاصاً في المشاهد.

كان وجه تلك المرأة غاية في الجمال، لكن ما كان يحيّر المتفرج ليس جمالها، بل اللغز والغموض الكامنان في عينيها، كانت عيناها دقيقتين ومائلتين. أحياناً عندما تنظر إليهما تنهمر الدموع من عينيك، وتعكسان، خلاف ما يتصوره المشاهد، صورة امرأة تعذِّب رسامها بنظراتها. حينها، كان يشمئز المرء، لأن أصحاب الأستاذ وأقرباءه كانوا يعتقدون أن المرأة لم يكن لها أبداً أي دور في حياته، عدا امرأة واحدة فقط ومن المحتمل أنها كانت موديلاً للرسم، ولكن لم تبق عنها صورة، ولا يوجد في أعمال الفنان من يشبهها.

حينما نَفَوه خارج طهران كان أعزبَ، ولم يكن أحد يعلم بوجود امرأة تركت أثراً في حياته، فلقد قضى في بلدة «كلات» ثلاث سنوات وبضعة أشهر، ومات فيها. لم تُعر الصحف في الأيام الأولى اهتماماً لهذه الحادثة المهمة؛ جريدة الدولة الرسمية فحسب أشارت إلى وفاة الأستاذ في سطرين. فجأة، ذرف الجميع دموع التماسيح، وتحدثوا عن أفول نجم ساطع في سماء الفن الإيراني.

أولئك الذين يعرفونه كانوا يقولون: لو افترضنا أن حادثة مهمة وقعت في حياته وانتهت بنفيه في بلدة «كلات» وموته فيها، فالأستاذ، ذلك الرجل الصامت الذي لا تتعدى جمله كلمتين أو ثلاثاً، ولا يجيب حتى يُسأل، ويكون جوابه فقط بـ «نعم» أو «لا»، لم يكن ليفشي أسراره الدفينة لأحد، وبخاصة إذا كان هذا

الشخص امرأة شابة تملك مثل هاتين العينين.

المسألة المؤكدة هي أن الأستاذ كان متحفظاً وكتوماً، لم يكن راضياً عن النظام الديكتاتوري، لأنه في الوقت الذي كان شعراء الزمان ينظمون قصائد في مديح الشاه وتملقه، لا أحد يتذكر أن الأستاذ كان قد رسم لوحة للشاه.

كان مريدو الأستاذ يسألون أنفسهم: «لماذا اختار عنوان «عيناها» لهذه اللوحة؟ كان من الممكن أن يسميها «العينان»، لكن «عيناها» تعني عيني امرأة اهتم بها الأستاذ». إن صاحبة العينين هي محل الاهتمام، وليس العينان في حد ذاتهما. تحت اللوحة وعلى إطار الصورة، كتب الأستاذ بخط يده «عيناها»، أي عينا المرأة التي أسعدته، أو التي أتعسته؛ عينا امرأة تركت على أي حال أثراً بالغاً في حياة الأستاذ، وحرّكت دواخله، بحيث إنه وهو يعاني في بلاد الغربة من جور الظالمين الحقيرين، كان يفكر في تلك المرأة صاحبة العينين ويرسم لها صورة، ولو من وحي خياله، لا ريب أن الصورة متخيَّلة، فلا أحد يعلم أن الأستاذ في حياته العادية كان على علاقة بمثل صاحبة الصورة، ربما من الممكن الاعتقاد لو أن هذه المرأة لم يكن لها دخل في الحياة الخاصة للأستاذ، فهي على الأقل ذات تأثير في حياته الاجتماعية التي انتهت بنفيه وموته في «كلات».

بحث الفضوليون كثيراً للعثور على صاحبة الصورة، وتفحصوا المقرّبات من الأستاذ، لم يجدوا شبهاً بين الصورة وصديقات الأستاذ وتلميذاته، كانت عدة فتيات من بنات أعيان طهران يتعلمن الرسم لدى «ماكان»، يزورهن في بيوتهن، ولكنهن كن فتيات يافعات، ولا تشبه واحدة منهن صاحبة هذه الصورة، فضلاً

عن ذلك، ما من واحدة منهن لها القدرة على زحزحة رجل برصانة الأستاذ عن مسار حياته العادي، لدرجة التفكير في رسم صورة لها، وهو تحت رقابة ضباط الشـــرطة في «كلات»، ومع كل الصعوبات التي وضعوها في طريق حصوله على لوازم الرسم فيها.

أما تلك المرأة، التي جلســـت ليرسمها الأســـتاذ، فهي مجهولة تماماً، لم يرها أحد، لم يصطحبها الأستاذ في أي مناسبة أو لقاء عام، فالشخص الوحيد الذي يملك معلومات مؤكدة عن هذه المرأة المجهولة هو «آقا رجب»(*)، خادم الفنان، وهو لا يحتفظ في ذاكرته بشيء حول هذا الخصوص، وحتى لو علم شيئاً فلن يخبر أحداً، أو أنه لا يريد أن يخبر أحداً، إضافة إلى ذلك، فإن «آقا رجب» يقول إنه لا يرى شبهاً بين عيني الصورة ووجه تلك المرأة المجهولة.

لماذا رســـم هذه الصورة؟ ألتكون هدية تقدم من غربته لمحبوبته بعـــد موته، حتى يثبت لها حبه ووفاءه لهـــا؟ أم أراد أن يقول لتلك المرأة التي أســـرته بعينيها: إني أعرفك كما لم تعرفي أنت نفسك، وأعلم أنك قد تســـببتِ في العذاب الـــذي أكابده اليوم؟ ربما يريد أن يقـــول أيضاً: أيتها العينان، لـــو أن صاحبتكما كانت معي لكنت سأتحمل، وأنال السعادة.

لكن ما الذي توصل إليه الأســـتاذ؟ وكيف تعرّف إلى هذه المرأة؟ ماذا استنبط من هذه النظرة، ومن هذا الوجه الواهن؟

كل هذه مجرد تخيلات، ما لم يعرف المرء ما يمكن استنتاجه مـــن هذه النظرة ومن حالة العينين هذه، فكيف له أن يجيب عن هذه الأسئلة؟

---

(*) «آقا» تعني حرفيا الســـيد، ولكنها هنا تستخدم كصيغة احترام مختلفة عما تستدعيه ألقاب السيادة، لذا فضلنا استخدامها كما أتت في النص الفارسي (المراجعة).

مـــرت أكثر من عشـــر ســـنوات على وفاة الأســـتاذ، تغير النظـــام الديكتاتوري، والناس اليوم يرحبون بمظاهر مقاومة الاستبداد ويحترمونها، وقصة عيني هذه اللوحة لم تُنس بعد، واليـــوم لا توجد أية امرأة من طبقـــة الأعيان، وبخاصة اللواتي كنّ بشـــكل أو بآخر على صلة بأحد أصدقاء الأستاذ أو مقربيه أو تلامذتـــه، إلا وتدّعـــي أنها صاحبة هاتـــين العينين، جميعهن يعددن أنفســـهن محبوبات الأستاذ، وجميعهن يدعين، كلّ واحدة حسب مميزاتها الأخلاقية والاجتماعية، أنها كانت على صلة به.

السيدة «شكوه الســـلطنة» هي اليوم زوجة عقيد في الدرك، وطلاقهـــا منـــه مؤخـــراً، وهي أم لخمســـة أبناء، خلّـــف جدلاً، لم يكن عمرها قبل ســـنوات نفي الأستاذ يتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشـــرة. في إحدى اللوحات التشكيلية تُشاهَد صورة امرأة تشـــبه إلى حد ما صورة السيدة «شـــكوه السلطنة»، وهي في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، وقد رسم الأستاذ هذه الرباعية للخيام:

لهلاكنا يجري الدهر وما له

من قصد إلا اغتيال نفوسنا الطاهرة

اجلس في الروض وارتشف الطلا

فعمّا قريب ينبت الروض من ثرانا

رســـم الأســـتاذ العشـــب وأعلى أغصان الأشـــجار والحجر والحشـــائش في هيئة رؤوس ووجوه إنســـانية، وفـــي أحد هذه الوجوه تُرى آثار قريبة الشـــبه من إحدى صور الســـيدة «شكوه الســـلطنة» في سن الســـابعة عشـــرة أو الثامنة عشـــرة، وهذا ما تتخذه الســـيدة دليلاً على أن الأســـتاذ كان عاشقاً لها، وتبرر

ذلك أنه حينما رأى خاتم الخطوبة في إصبعها، اشـتد به الغيظ إلى حد أنه أمسك بيدها وضغط عليها بقوة حتى آلمها.

كانت حياة السـيدة «شكوه السـلطنة» مليئة بالأحداث المثيرة، وقـد نقلت الصحف اللّاذعة التي تؤيد زوجها أحياناً وتعارضه في أحيان أخرى، هذه القصة بكل وقاحة، ومع ذلك، كانت حياة الأستاذ وسـلوكه بين طبقات الناس المختلفة بشـكل لا يمكّن أحداً - حتى السيدة «شكوه السلطنة» - من إضافة شيء عما قالته عن الأستاذ.

بات نقـل حكايات الحب والغـرام في حياة الأسـتاذ رائجاً في الصحف بعد شـهر شـهريور من عام 1320 (أغسطس من العـام 1941 الميلادي)(*) ولسـنوات متوالية. وكان الصحافيون يخرجـون من حقائب أكاذيبهم حـوادث عجيبة، وبخاصة قصة هـروب رئيس دائرة الأمن العام العقيـد آرام، فقد كانوا يلفّقون أخباراً مفجعة وينسـجونها مع أخبار حياة الأستاذ ونفيه وموته، ويؤلفون من ذلك قصصاً مروعة. لحسن الحظ أن هذه القصص وصلت إلى نهايتها، والآن شـيئاً فشـيئاً أصبح من الممكن - لمن يريد - أن ينبش عميقاً في حياة الأسـتاذ في زمن الديكتاتورية، ويحل لغز حياته.

تحدثت أنا إلى الكثير من النسـوة اللواتي كن يعرفن الأستاذ والتقين به، على الأقل، مرات قليلة.

لـو تجاوزنـا الأنانية الكامنة فـي أقوالهن جميعـاً، لا يبقى الشـيء الكثير. كل من سألتها عن الأستاذ، تحدثت عن نفسها، حتـى المرأة المجهولـة كان ما قالته عن نفسـها يتجاوز ما قالته

(*) تاريـخ الهجوم الذي قامت به بريطانيا والاتحاد السـوفييتي على إيران، مما أدى فيما بعد إلـى إجبار رضا شـاه بهلوي على التنازل عـن الحكم لابنه من قبل الحلفـاء ونفيه خارج إيران (المراجعة).

عــن حياة الأســتاذ، حاصل الأمــر أنّ علاقات الأســتاذ مع كل هؤلاء، كانت علاقة حميمة ونقية، ســواء الأشخاص الذين كانوا ضمــن تلامذته، أم أولئك الذيــن جمعتهم علاقة به، بطريقة أو بأخرى، كأصدقاء ومعارف له في المجالس الخاصة أو الدعوات الاجتماعية. وحدها تلك المرأة المجهولة تشــكل استثناء، لو كان أحد يعلم شيئاً، فستكون هي.

أما الأســتاذ فكان قليل الــكلام متحفظاً، ونــادراً ما يعرّف بنفسه، ربما حتى المرأة المجهولة تتحدث عنه من وحي خيالها.

إجمالاً، فهمت منهن أن الأســتاذ «مــاكان» كان رجلاً كتوماً، يبــدو في الغالب عبوســاً، نادراً ما يمزح، يتحــدث إلى معارفه، وبالخصوص من النســاء والطلاب، بصرامة وصراحة، ولم يكن يبالــي إن كان الآخرون ســيرتاحون لكلامــه أم لا، ولا هو أبداً يقوم بنقل كلام أحد لآخر، سواء كان جميلاً أم قبيحاً، ولا يحب أن يُغتــاب أحــدٌ في حضوره، فقد كان قليل الــكلام، وإذا أطال الحديث فيكون حديثه عن عمله أكثر من شــؤون الحياة العادية. ليس لأحد أن يدّعي أنه صديق حميم للأستاذ، إذ لم يكن يختلط بأحد، وقليلاً ما كان يُستضاف، وباب منزله مفتوح على الدوام. صحيح أنــه لا يدعو أبداً أحداً إلى الغداء ووجبة المســاء، لكنه دائماً يحتفي بضيوفه حسب الإمكانات المتاحة.

توفي أكبر رسامي إيران خلال القرن الأخير، في سن الرابعة والأربعين، وكان طيلة عشــرين ســنة معروفاً ومحترماً من قبل جميع الأشخاص المعتبرين في ذلك الزمان.

آنــذاك، كان العديد مــن رجالات طهــران وأعيانها يتباهون بامتلاكهــم إحدى لوحات الأســتاذ في بيوتهــم، أو على الأقل،

نسخة عن إحداها نسخها أحد طلابه، ومع ذلك، لم يكن أحد يعرفه حق المعرفة، إذ لم يطّلع أحد على حياته الشخصية. كان هادئاً، ولا يسمح لأحد بأن يصل إلى مكامن قلبه.

كانت روحه تختزن ألماً ومعاناة، ولم يكن يرغب أبداً بأن يعلم الناس بمعاناته، يبدو دائماً سعيداً ومبتهجاً، ولا أحد يستطيع تقبّل ما يعتصر دواخلَ هذا الرجل، المتزن والمتواضع، من هموم.

في يوم من الأيام، قال لأحد تلامذته، الذي لطالما كان يتملّقه: «ما أتعس هذه البلاد التي أنا أستاذها، إن الأعور في مدينة العميان ملك».

وعلى الرغم من ذلك، فقد كان أولئك الأشخاص المرموقون يجتهدون في التعرف إليه من أجل إرضاء أنانيتهم.

حتى الشاه السابق لم يستطع أن يتجاهله، ففي أوائل حكمه، حيث لم يكن حينها يعتبر الحصول على محبة الناس أمراً مفرطاً، ذهب يوماً لزيارة مدرسة الفنان الجديدة، وبينما كان يريد أن يستقل السيارة، وهو على عتبة الباب، ضرب بالسوط الذي في يده على حذائه الأيمن عدة ضربات، وسأل:

أين تلقى تعليمه؟

سيدي، كان في فرنسا، ثم قضى مدة في إيطاليا.

عاد صاحب الجلالة ليتحدث إلى الأستاذ نفسه، فرآه واقفاً في البهو يهمّ بإشعال سيجارة، قلق جلالته، فأشاح بوجهه وقفل راجعاً، وقال لـ... السلطنة (*):

(*) من الألقاب التي كانت تلحق بصفة أخرى هي السلطنة والملك والدولة والممالك وغيرها مثل كمال الملك ومخبر الدولة وصدر الممالك ونظام السلطنة، كانت تمنح من قبل ملوك القاجار لأعضاء العائلة الحاكمة والمقربين من البلاط وذوي المناصب العليا (المراجعة).

من الواضح أنه كان في فرنسا، وإلا لما كان قليل الأدب إلى هذه الدرجة.

عاتب المتملقون الأستاذ وحثوه على أن يركض ويرتمي عند وصوله للسيارة على أقدام جلالة الملك طالباً الغفران.

انتاب الأستاذ في بادئ الأمر رعب شديد، رمى سيجارته بعيداً، ونزل بضع درجات في السلم، بيد أنه لم يكن مسرعاً، كان جلالة الملك قد استقل السيارة وانصرف.

اعتبرت هذه الحادثة وراء إهمال وزارة الثقافة ووزارة الصناعة ووزارة التجارة والحرف والفنون ووزارة الاقتصاد الوطني والإدارة العامة للفنون الجميلة لهذا الفنان المهم للأبد، إلى أن انتهى الأمر بالأستاذ في بلدة «كلات»، حيث مات فيها.

كان كل الرجال يتمنون لو أن الأستاذ يقوم برسم بورتريه لهم، يذهبون إليه يرجونه ويلتمسون ذلك، بيد أنه لا يرضى بهذه المذلة حتى في الأوقات التي هو فيها بأشد الحاجة إلى المساعدة، في حين رسم صورة خادمه «آقا رجب» مرات عديدة؛ اللوحات التي رسمها الأستاذ لهذا الخادم البسيط والوفي الذي هو بحقٍّ أقرب الناس إليه تبرز مدى تعمقه في روح هذا الرجل العادي، وتبين مدى دقته في رصد حالاته المختلفة. لعل السبب الرئيس في صداقة الأستاذ لهذا القروي الهمذاني وتعلقه به، هو أنه كان يرى بعض صفاته منعكسة في صديقه الخادم، فقد كان «آقا رجب» كتوماً أيضاً، ومن الصعب أن تأخذ منه شيئاً غير ما يرغب هو في قوله. كان الأستاذ قد عثر على «آقا رجب» في إحدى القرى بأطراف مدينة همذان، وتسمى «ورزك»، كان الرسام في ليلة قمراء مستلقياً فوق السطح، وصوت بكاء طفل

قـادم مـن بيت الجيران حرمـه من النوم، وعند السـحر ذهب الأستاذ، وبلا مقدمات، ليتفقد الطفل، فوجد طفلاً عمره سنتان يعاني من الإسـهال، ويتقيـأ، ويصارع الموت، بينمـا جلس «آقا رجب» وأم الطفل أمام مهد متسـخ ينتظران موته، أخذ الأستاذ الطفل وغسله في ماء ساخن، ثم لفه في أحد قمصانه، وأعطاه بعض الأقراص، في اليوم التالي حينما اسـتفاق الطفل، رسم له الأستاذ صورة بالألوان المائية، ومنحها لوالده.

بعد سـنتين، ظهر «آقا رجب» مـع طفله الثاني، الذي أصيب بنفس المرض، ومعه زوجته وطفله ذو السـنوات الأربع في منزل الأسـتاذ، كان قـد أخذ العنوان مـن خادم الرئيس العشـائري «كربلائي حسـين»، وجاء إلى الأستاذ ملتمساً الشفاء لولده، لأن في قرى همذان لا أحـد يعرف هذه المعجزات، منذ ذلك الحين استقر «آقا رجب» وزوجته وأطفاله في منزل الأستاذ «ماكان».

ترك الأسـتاذ - فيما أعلـم - على الأقل، بضعاً وعشـرين لوحةً لهذا الخادم الصديق، رسمه في حال الغضب والاضطراب والخـوف والارتباك والقلق. في إحدى هـذه الصور، يظهر «آقا رجب» نائماً، وقد رسم وضعية بدنه وذراعيه وإزاره الطويل بعدة خطـوط، يبدو وجهه هادئاً لا يمكن اختراقه، حاول الأسـتاذ أن يظهر باطنه، لكن المشـاهد لا يفهم شيئاً من ذلك، ما يبدو جلياً فقط هي آثار مؤلمة لماض مليء بالمشقة.

في متحف مدرسة الرسم تبقى باسم الأستاذ لوحتان أو ثلاث لـ «آقا رجب» بألوان مائية أو زيتيـة، وهو مازال يعمل بواباً في الظاهر بهذه المدرسـة التي تغير اسمها حتى اليوم أكثر من مرة، ويتقاضى أجره كبوّاب، لكنه فـي الحقيقة أكبر من ذلك، ويقوم

بكل شـــيء، لدرجة أني لا أتجرأ أن أنقل اللوحات من مكان إلى آخر دون إذنه.

لا يتحدث «آقا رجب» عن أي شيء، لا يتذكر شيئاً عن ماضي الأســتاذ، حتى تلك الأحداث التي يعرفها الجميع يتوجب تذكيره بها.

يقول «آقا رجب»: «إن الأستاذ لم يرض أن يرسم صورة لأحد من الرجــال المعروفين إلا مرة واحدة، كان ذاك الرجل هو «خيل تــاش» الذي كان قد عاد ببحبوحة وفخامة وجاه من ســفر إلى الخارج. وكان الناس حينها يهابونه أكثر من الشاه نفسه، وكانوا، في الواقع، يعتبرونه ديكتاتور إيران».

في يوم من الأيام، عندما كان «خيل تاش» في باريس، شوهدت لـــه صورة في جريدة «لايلوستراســيون» (*)، كان يبدو فيها وهو يهبط من سلالم قصر الإليزيه. يقال، حينما شاهد الأستاذ هذه الصـــورة أعجب بها، وقال: «هو أكبر من ولي نعمته بمقدار رأس ورقبة، ليته يستطيع المحافظة على ماء وجه إيران».

أنا شاهدت هذه الصورة في جريدة «لايلوستراسيون»، بصدر واســع ورأس مرفوع، ولا يبدو أي شـــيء مصطنعاً في حركاته، ينزل «خيل تاش» بكل وقار وأبهة من السلالم، وكأنه حقق نجاحاً باهراً.

حينما رجع «خيل تاش» إلى إيران، أبدى الأســتاذ في حضور أصدقائـــه رغبة في أن يرســـم صورة للوزيـــر، وبعد بضعة أيام،

---

(*) جريدة L›illustration هي جريدة أســبوعية فرنســية كانت تصدر بين 1843 – 1944، وقد كانت اول جريدة فرنســية تنشــر صورة عام 1891، واول جريدة تنشــر صورا ملونة عام 1907 (المراجعة).

جاء صاحب الفخامة بنفسه إلى بيت الأستاذ من دون علم أحد، وأمضى نصف ساعة في مشاهدة أعمال الأستاذ، ثم قال:

- سمعت أنك كنت تلميذاً لإستيفانو الإيطالي. اطلعتُ على عدة Oeuvers (*) له في رحلتي الأخيرة إلى باريس، تعرفت إليه شخصياً، قال لي إنك كنت تلميذه، لكنني لا أرى أي وجه للشبه، أو على الأقل، أي تأثير لـ الـ Ecole (**) خاصته في أعمالك.

رد الأستاذ:

- كيف تريد أن تقارن أعمالي المتواضعة بآثار إستيفانو؟ أنا كنت أحد تلامذته، من الطبيعي ألا توجد تأثيراته في أعمالي، ومع ذلك، فأنا أسعى لأن أكون من أتباع مدرسته.

رسم «خيل تاش» ابتسامة على ثغره وقال:

- لا تكن Modeste (***) إلى هذا الحد.

بعد مرور بضعة أيام، أصبح «خيل تاش» يأتي كل أسبوع، لبضع ساعات، كلما سنحت الفرصة، وبخاصة في منتصف النهار حاملاً كتاباً في يده يطالعه، في الوقت الذي كان الأستاذ يرسم صورته. بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع، ربما في اليوم الخامس أو السادس، حينما كان «خيل تاش» جالساً باسترخاء على كرسي يقرأ الكتاب، والأستاذ منهمك في الرسم بألوان مائية، أزاح وجهه عن الكتاب، وقال:

- صاحب الجلالة يحب عملك كثيراً.

---

(*) أعمال فنية.

(**) مدرسة.

(***) متواضع.

رفع الأســتاذ عينه عن الباليته التي يمسكها بيده، وقال غير مبال:

- متشكر.

بقــي «خيل تاش» لمدة، ربما لدقيقــة كاملة، محملقاً في وجه الأســتاذ، كان يعلم أن قوله ترك أثراً طيباً في الرسام، لكن حين لــم ير أي رد فعل في ملامح الأســتاذ، حتى إنــه قد يكون قال «متشكر» دون سابق تفكير، احمرَّ وجهه، وجرى الدم في عينيه. مــن المؤكد أن «خيل تاش» لم يكــن يتوقع التملق والرياء من قبل الأستاذ، لكنه لم يكن يتوقع منه اللامبالاة أيضاً.

انتظر «خيل تاش» حتى ينظر إليه الرسام، وبمجرد ما أغطس الأستاذ ريشته في الألوان، وهمّ بالرسم على اللوحة، وقعت عينه على وجه الوزيــر، وتعجب من غيظه وغضبــه. في هذه الأثناء سأل «خيل تاش» الأستاذ:

- ألم ترغب في رسم صورة لصاحب الجلالة؟

بهت وجه الأستاذ، ابيضَّت شفتاه حتى صارتا كالجبس، ورسم عليهما ابتســامة كاذبة، ووضع الريشة على الطاولة، وفكّ لوحة الألوان من إبهامه، اتجــه من خلف اللوحة إلى الناحية الأخرى، وقال:

- لا يا ســيدي! أنا أرسم صور الأشخاص الذين يروقون لي، انظرْ إلى هذه الصور من حولك، إنني أحب هؤلاء.

احمرّت عينا فخامتــه، ألقى نظرة على اللوحات حوله فرأى لوحة فيها مــروض أفاع فاتحاً فمه يريد أن يعض رأس الأفعى، أثارت اشــمئزازه. كاد الأســتاذ يفقد أعصابه، لكن «خيل تاش» الــذي كان أكثر رباطة جْأش، انتصب واقفاً من الكرســي، ربّت

بيده على كتف الأستاذ، وقال:

- أنا أحترمك، وأدرك وضعك.

- أي احترام..

قاطع «خيل تاش» الأستاذ:

- لا تُعِرّ الأمر أهمية.. إلى اللقاء.

مكث الأستاذ للحظات في الغرفة وحيداً، بعد نصف ساعة، دخل خادمه، رآه جالساً على كرسي قرب النافذة، وقد أمسك رأسه بكلتا يديه، ووضع مرفقيه على إطار النافذة، وهو شاخص ببصره نحو السماء، حينما رأى «آقا رجب» أفاق من شروده، نهض من الكرسي، أخذ السكين الذي كان يشحذ به الألوان الزيتية، ومزق لوحة «خيل تاش»، وأخرج الإطار من الكنفا، وارتدى معطفه وخرج من البيت.

يتذكر «آقا رجب» ذاك اليوم الذي سلّمه فيه الأستاذ رسالة، توجه بها إلى الوزارة وسلمها لسكرتير مكتب فخامة الوزير، ولم يُشاهد «خيل تاش» بعدها في منزل الأستاذ، وبعد بضعة أيام، أحضر سكرتير مكتب فخامة الوزير نفسه رسالة وسلمها للأستاذ.

أنا عثرت على رسالة «خيل تاش» هذه بين أوراق الأستاذ، وهذا نصها: «الأستاذ العزيز، أتأسف لعدم إتمامك صورتي، آمل أن تعقد العزم على إكمالها كلما سنحت لك الفرصة. المخلص: خيل تاش».

مع ذلك، فقد كان «خيل تاش» في حضور الناس دائماً ما يظهر الاحترام للأستاذ. في تلك الأيام، جاء إلى إيران أحد علماء الهند المشهورين، أُعدت جلسة على شرفهِ في قاعة وزارة

الثقافة التي تستوعب ما بين مئتين ومئتين وخمسين شخصاً، كان قد جلس في الصفين الأول والثاني كبار الشخصيات، وحضر جميع الوزراء وعدد من الوكلاء والمتملقين، وكان الأستاذ جالساً في الصف الخامس. قبل دخول العالم الهندي إلى القاعة بثلاث دقائق، دخل «خيل تاش»، فوقف على الفور كل من كان جالساً في الصفوف الثلاثة الأولى، غير مبال بأحد وجد «خيل تاش» مكانه وجلس، ثم جلس الجميع، انتبه فيما بعد إلى وجود رئيس الوزراء الذي كان جالساً في ناحية أخرى على بعد مقعدين أو ثلاثة منه، حينما استقام واقفاً يريد أن يذهب عند رئيس الوزراء، وقع نظره على الأستاذ، فقال:

- السلام عليكم.

لم ينتبه الرسام إلى تحيته، قال بعض الأشخاص بصوت عال:

- سعادة الأستاذ! فخامة الوزير وجّه لكم التحية.

نهض الأستاذ من مكانه قليلاً، وأخفض رأسه، دون أن تظهر على ملامحه أية آثار لسعادة أو حزن.

قال «خيل تاش»:

- عفواً.. عفواً!

حينما نجمع حوادث حياة الأستاذ حلقة حلقة كالسلسلة، ندرك أن هناك سراً خفياً في حياته، لأن هذه الأحداث ليست متصلة ولا متشابهة، ومع ذلك، يبدو أن هناك خيطاً رفيعاً من الأسرار يربط بينها، وما لم يُكتشف هذا الخيط، لا يمكن ربط هذه الحلقات ببعضها.

من لم يكن يصاب بأي ذعر من الشاه السابق، وكان يتعامل مع «خيل تاش» بهذا السلوك دونما خوف، ولا يتملكه الرعب، وانتهى

بـــه الأمر إلى الموت في المنفى، وربما يكون قد اغتيل.. كيف لمثل هذا الرجل أن يقع أسيرَ عيني امرأة؟!

أنا منذ اليوم الأول الـــذي تبادرت فيه إلى ذهني كتابة تاريخ حياة فنان إيران الكبير، أيقنت أنه ما لم تظهر تلك المرأة المجهولة صاحبة العينين اللتين في اللوحة، فلن يكون بمقدوري كتابة أكثر ممـــا كتب في الصحف. اطلعت على وثائق الأمن أيضاً، ولم يكن هناك أثر لشيء، حتى نفيه تم بأمر شفهي من العقيد آرام، وهو غير موجود في إيران، وبحســـب بعـــض الروايات، فإنه قد أعد لنفسه حياة هادئة في أميركا الجنوبية.

لقـــد تحدثت بالتفصيل عن علاقة الأســـتاذ بــ «خيل تاش»، كنـــت أريـــد أن أثبت أن «خيل تاش»، وهو أقـــوى رجل في إيران حينئذ، أو على الأقل، أكثر رجال الدولة اقتداراً بعد رضا شـــاه، هو أيضاً كان مضطراً لإبراز الاحترام للأستاذ. ينبغي ألا نتصور أن رجال العهد الديكتاتوري كانوا محبين للفن وأهله، وأن قصد «خيل تـــاش» كان تقدير أصحاب العقول النيرة، أقصد الاحترام والتأثيـــر اللذين كان يفرضهما الأســـتاذ الفنـــان على المثقفين. تحية «خيل تاش» للأســـتاذ في اللقاءات الرســـمية كانت تكسبه وجاهة، في ذلك العهد لم تكن أركان الديكتاتورية قد ثبتت بعد، ما يـــزال في النظام الملكي في إيران أشـــخاص من أمثال «خيل تاش» نفسه، لا يتحملون أي نوع من الذل.

ما يزال في أطراف البلاد أشـــخاص متمردون وســـاخطون يحملون فـــي قلوبهم بعض الأمنيـــات، ما يزال أفـــراد، وأحياناً جماعات صغيرة، لم تتخلَّ عن صمودها، ما يزال أشخاص أمثال الأستاذ مســـتعدين للتضحية بالنفس لوقف الظلم وسلب حقوق

الشعب، كان «خيل تاش» يريد بهذه الطريقة أن يبرئ نفسه.

علاوة على ذلك، كان وجود الأستاذ وسيلة للدعاية لمحدثي النعمة في ذلك الزمان، كانوا يأخذون كل من أتى من خارج إيران لمشاهدة آثار الأستاذ، وقد راكم تاجر تحف أميركي، ادّعى أنه خبير في الفن وبروفيسور في الفنون الجميلة، ثروة هائلة عن طريق شرائه رسومات كان الأستاذ قد رسمها لمجموعة من رباعيات الخيام. وفي الوقت نفسه نقل إلى أوروبا وأميركا حكايات عن احتفاء النظام الإيراني بالفن، وقد نشرت إحدى صور الأستاذ في المجلات الأميركية، وهو جالس على كرسي مريح يلاعب أطفال «آقا رجب».

إضافة إلى الفن التشكيلي، فإنّ أمضى سلاح في يد الأستاذ هو عدم تعلقه بالعادات والتقاليد الاجتماعية المعتادة، فقد ترك عائلته التي تنحدر من محافظة «مازندران» بصفة نهائية، وأقام في بيت كبير نسبياً، يقع خلف مسجد «سبهسالار»، لم يكن منزلاً سيئاً. خلال فصل الصيف، كانت أشجار الدلب والرمان والصفصاف الباسقة ترخي بظلالها الوارفة على بحرة البيت، وفي أول فصل الربيع، كان عطر الورد الأحمر، الذي يضعه الأستاذ في أوعية كبيرة، يعكس طراوة الجو ولطافته، حتى داخل مرسمه الضيق ذي الجو الخانق. كان يجني من وراء بيع لوحات الرسم للأعيان عائدات جيدة، لكن كل ما يجنيه كان يصرفه «آقا رجب».

رغم أن الأستاذ لم يكن متشبثاً كثيراً بمظاهر الحياة، لكنه كان يجتهد في تأمين حياة مرفهة لـ «آقا رجب» وأبنائه، كان عمر أحدهم، وقتها، قبل نفي الأستاذ إلى «كلات»، يبلغ اثنتي عشرة

سنة، ويعتبر الأستاذ ولدَي «آقا رجب» بمنزلة أبنائه، ويخصهما بكامل الحب الذي في قلبه، ولأجلهما لم يكن يقصّر في شيء، حتى إن لعب «فيروز» بن «آقا رجب» ليست أقل قيمة من تلك التي يلعب بها أطفال من أسر متوسطة الحال. أرسل «فيروز» إلى الثانوية، ولم يكن سلوك هذا الصبي مع زملائه سلوكَ ابنٍ لـ «آقا رجب». ومع ذلك، كان يقضي حياته في ثلاث غرف، إحداها مرسمه، مملوءة بلوحات متنوعة وكتب باللغات الفرنسية والإيطالية، وإطارات وألوان وورق مقوى، وكرسي، ولوازم أخرى خاصة بالمرسم، وغالباً ما يتناول طعامه في هذه الغرفة، وأحياناً ينام هناك على أريكة خشبية، وفي الغرفة الأخرى يستقبل أصدقاءه، أما الغرفة الثالثة التي كانت تسمى غرفة النوم، فهي مليئة بالكتب واللوحات. كان في العادة يخفي في هذه الحجرة الأعمال التي لا يرغب في إظهارها لأحد.

يقول «آقا رجب» إن الأستاذ في بعض ليالي الصيف، حينما تكون السماء صافية ونجومها ساطعة، كان يصعد إلى السطح، وفي آخر الليل، بعد أن يكون «آقا رجب» وزوجته قد غطّا في نوم عميق، ينزل بهدوء ويأخذ سريراً نقالاً من المرسم، ويعود إلى السطح، ويستلقي هناك.

في مثل هذه الأوقات يبقى مستيقظاً إلى الفجر، وحينما تشرق الشمس، ينزل السرير، وينام في مرسمه الذي كان حاراً وخانقاً في فصل الصيف.

ذكريات «آقا رجب»، هذه الذكريات المشتتة التي يجب استخلاصها من لسان رجل متحفظ، هي الذكريات الوحيدة التي يمكن تكوينها عن حياة هذا الرجل العجيب. لسوء الحظ،

فـ «آقا رجب» رجل عامّي وأمّي، لا يعلم مثلاً في أي سنوات رسم الأستاذ لوحاته المختلفة، لذلك، يصبح المفتاح الوحيد لحل سر حياته بلا تأثير يذكر، وحتى إن علم شيئاً، فإن ذكرياته متقطعة ولا يربط بينها رابط، فعلى سبيل المثال، يقول: أعتقد أنه رسم لوحة «الباعة المتجولون» في تلك السنة التي كان يأتي عنده فيها ذلك الرجل طويل القامة - يقصد «خيل تاش» - أو في ذلك الوقت الذي كان فيه المستر الأميركي يشتري اللوحة من الأستاذ، لا، بل سنة بعد ذلك، حين كانت تجلس المرأة المجهولة ليرسمها، أو في الوقت الذي أرسلوا فيه ابنهم الثاني إلى المدرسة، قام برسمه وهو ممدد تحت شجرة يخلد إلى النوم.

ومع ذلك، فإن «آقا رجب» يعرف أكثر مما كان يبديه، لا يمكنني أن أتصور أن الأستاذ استطاع أن يعيش لمدة عشر سنوات، بل أكثر مع مثل هذا الرجل البليد، لذا، لو أن هناك سراً في حياة الأستاذ، فسيكون هذا القروي الهمداني على علم به، لكنني أسأل نفسي: لماذا لا يقول شيئاً لأحد؟

لطالما حاولت أن أحصل من «آقا رجب» هذا على معلومة، ولو بسيطة، عن المرأة المجهولة، التي أعتقد أنها يجب أن تكون صاحبة العينين الغامضتين؛ لا يعلم، نسي، لا يتذكر، هل أكمل الأستاذ تلك اللوحة أم لا؟ لا يعلم كم كان عمر تلك المرأة، لا يتذكر إن كانت جميلة أم لا، نسي كم من المرات كانت تأتي وتذهب، لكنه كان يعلم أن الأستاذ حينما يفرغ من عمله يقوم بإيصالها إلى البيت.

- هل ذهبت أنت يوماً إلى منزل هذه المرأة؟
- لا، لا أتذكر.

- فكّر، لعلك تتذكر منزلها.
- لا أتذكر.
- أتتذكر اللوحة التي رسمها الأستاذ لهذه المرأة؟
- لا، يا سيدي.
- ألم تكن المرأة عارية؟
- لا سيدي، كان سيدي متديناً.
- أعلم، لكن الأستاذ رسم نساء عاريات أيضاً.
- نعم، رسمهن في بلاد الغرب، هنا لا وجود لمثل هذه اللوحات، أنا لم أر ذلك.
- مـــاذا تقول «آقـــا رجب»؟ بعض تلك النســـوة العاريات لهن وجوه الفتيات الإيرانيات.

كيـــف كان ممكناً إقناع «آقا رجـــب»؟ لا يصدق، كان يرى في ســـيده مثالاً للتقوى والـــورع، ويعتقد أن ارتـــكاب كل ما يخالف الدين والاســـتقامة - في رأيه - لا يمكن أن يصدر عن ســـيده، لقد صنع «آقا رجب» لنفسه سيداً، وليس من الممكن أبداً معرفة حقيقة حياة الأستاذ من هذا الرجل.

حاولـــت مراراً أن أوضّح أهمية لوحة «عيناها» لـ «آقا رجب»، ســـعيت لأن أشـــرح له اللغز الـــذي يجب أن تنطـــوي عليه هذه اللوحة، ليســـت القضية فقط براعة الأســـتاذ فـــي إبراز هاتين العينين الغامضتين في حالات مختلفة وبمعانٍ متعددة، أردت أن أفهمه أن اكتشاف لغز «عيناها» يمكن أن يميطَ اللثام عن مسألة أساســـية خفية في حياة الأســـتاذ، وســـتكون معرفتها بالنسبة للمعاصرين ضرورية ومفيدة.

فـــي النهاية، لا يمكن معرفة ماذا كان وراء نفي الأســـتاذ من

طهران، لأي سبب تم إرساله إلى «كلات»؟ ماذا فعل؟ رئيس دائرة الأمن الهارب قال إن لديه أوامر بقتل الرسام! لماذا؟ أردت أن أُفهم «آقا رجب» أننا إذا توصلنا إلى معرفة تلك المرأة المجهولة، التي كانت على صلة به في آخر أيامه في طهران، وكانت تأتي لفترة ليرسمها، فلربما نتمكن من معرفة سبب نفي الأستاذ، ومعرفة أنه اغتيل في «كلات»، وفي نهاية المطاف معرفة هذه الأمور ضرورية للناس، ومفيدة لجيل اليوم المناضل.

كم هو عنيد «آقا رجب» هذا، لا يمكنني أن أصدق أن شخصاً عاش في منزل الأستاذ اثنتي عشرة سنة أو يزيد، وكان يقوم بكل أشغاله، لا يعرف لماذا اعتقلوه.

تحدثت مع «آقا رجب» ساعات طوالاً في مكتب مدرسة الرسم، التي تعرف اليوم باسم الأستاذ، وقد أدرك جيداً مدى رغبتي في التعرف إلى هذه المرأة المجهولة.

ينصت «آقا رجب» إلى الكلام بملامح هادئة، دون أن يطرف له جفن، لا ترى في قسمات وجهه علامات التعجب أو السرور أو الحزن أو الجهل، كان المرء محقاً أحياناً في أن يسأل نفسه: أهذا الرجل هادئ وصلب أم أنه بليد ومصاب بالخرف؟ لم يكن من الممكن معرفة ما إذا كانت ذاكرته ضعيفة أم أنه أقفل فمه بختم الصمت؟ يجيب بهدوء وصلابة بـ «نعم»، «لا» عن أي سؤال توجهه له، لكن عينيه كانتا تبرقان أحياناً، كما لو أنه مجبور على التحمّل، ويرى في السائل إنساناً دخيلاً، وكأنه بإفشائه أسرار الأستاذ أهان المقدسات، وفي أوج الهدوء، كانت تنتاب «آقا رجب» حالة من الاضطراب، كما لو أنه يغالب القلق حتى لا يهزمه، ولا يسقط القناع الذي وضعه على وجهه، وأحياناً أضيق ذرعاً

وأقول لنفسي إنه يتظاهر بعدم الفهم، وهو أكثر ذكاء من الصورة التي يحاول أن يظهر بها، كل هذه الأشياء صحيحة، ينبغي أن آخذ بالاعتبار أنني في مدرسة الرسم هذه، ومنذ سبتمبر فما بعد أصبحت ناظراً، وأن «آقا رجب»، بسلامته، بوّاب هذه المدرسة، وهو تحت إمرتي. سألته قبل بضعة أيام:

– سيد رجب، ألا تتذكر أية صورة للمرأة التي كانت موديلاً للأستاذ؟

– بلى سيدي؟

– حسن، يمكنك أن تقول كيف كان شكلها؟

– نعم!

تعجبتُ، وسألته:

– كيف تذكرت وجهها فجأة؟

قال في جوابه:

– لأنها جاءت إلى هنا قبل بضعة أيام.

– ماذا تقول، «آقا رجب»؟ ماذا جاءت تفعل هنا؟

– كانت من بين الزائرين للمتحف.

– في أي يوم جاءت؟

– يوم الخميس عصراً.

– لماذا لم تخبرني إذن؟

– آه سيدي، ماذا كنت تريد أن تفعل، ليس من اللائق حينما تأتي امرأة لمشاهدة لوحات الأستاذ، أن آتي لأخبرك هكذا دونما داعٍ.

طوال أسابيعٍ متوالية، وخلال الأيام التي كان فيها متحف المدرسة مفتوحاً في وجه العموم، كنت أجلس اليوم بأكمله في

قاعة المتحف، وقد أمرت «آقا رجب» أن يطلعني بمجرد مجيء المرأة المجهولة.

لكن المرأة لم تأت. يوم الخميس ذاك قمت بمراجعة جميع التصاريح الصادرة للزائرين، حضرت خمس عشرة امرأة، من بينهن خمس نساء بمفردهن، ولا يتطابق اسم أي منهن مع أسماء النساء والفتيات اللائي يعرفن الأستاذ.

منذ ذلك اليوم فما بعد، أقمت بنفسي مكتباً، وسجلت أسماء الزائرين للمتحف، وحفظت أسماء تلك النسوة اللائي زرن المتحف بمفردهن، واحدة منهن فقط، كتبت اسمها الأول وأخفت اسمها العائلي، كان اسم هذه المرأة فرنكيس.

فجأة اخترق برق مشاعري، المرأة المجهولة كانت قد جاءت يوم الخميس 28 كانون الأول (ديسمبر)، ويوم 28 كانون الأول (ديسمبر) من العام 1938 هو يوم وفاة الأستاذ.

* * *

أخيراً وجـــدت المرأة المجهولة، وتعرّفت إليها. مرت ســـنوات طويلة على وفاة الأســـتاذ، عاد فنانون شباب من الغرب، وتخرج آخرون من المدارس.

أصبح الرسم - تقريباً - وسيلة لكسب لقمة العيش، فالبعض يرســـم لوحات لإعلانات تجارية، والبعض يزين خشـــبة المسرح، ويصور الكتب، والبعض يرســـم وجوه الناس، ويرسم كاريكاتيراً للصحف، بعض تلامذة الأســـتاذ السابقين والكثير من العائدين من الخارج يعزفون على وتر الأستاذية، وينظمون معارض للرسم. افتتحت كلية الفنون في الجامعة، ويمكن القول إن الأســـتاذ بدأ تدريجياً يدخل عالم النسيان، وهذا هو الوقت الذي أستطيع فيه أن أنشـــر مذكراتي عن الرســـام الفنان والإنسان العظيم، الذي بذل حياته فداء للفن ولكرامته وكرامة أبناء وطنه.

خلال الســـنوات الأولى، بعد شهر أغسطس، بات تأليف كتب عن ســـيرة الأستاذ مجالاً لكسب الرزق يطرقه الكثيرون، كل من هبّ ودبّ بات يكتب ما يصل إليه قلمه. ونقلوا عن حياته حوادث غريبة، وصلت الجرأة بأحد كتاب المقالات إلى أن يدّعي، بمنتهى الوقاحة، أنه كان يكاتب الأســـتاذ طوال ثلاث سنوات من النفي، وأن الأستاذ أفشى له بجميع أسرار حياته.

لكن ما نشـــر لم يتعدَّ كونه كتابـــات تافهة، أما تلك الحكايات الفارغة والسخيفة فقد نسيت تماماً، والآن حان الوقت لأن تصل إلى أســـماع المعاصرين تلك الأحداث المهمة في حياة الأســـتاذ، أو علـــى الأقل، تلك الوقائع التي حدثـــت له والجهود التي بذلها لتوعية الناس، ومراحل التضحيات ونكران الذات التي قطعها.

لا أدّعـــي أنني أعرف أشـــياء دقيقة وصريحـــة عن محاربته

لقوى الاستبداد الشيطانية، لكني أسعى، على أقل وجه، لأن أبرز نفسيته ومكنونات قلبه، التي تظهر عظمته وشجاعته وطهره، وتكشف في الآن نفسه عيوبه، على الأقل أستطيع أن أقول إن الأستاذ «ماكان» كان رساماً كبيراً، لأنه، ببساطة، كان مؤمناً بعمله، وكان متيقناً من أنه يقاوم الظلم وسلب الحرية عن طريق فنه التشكيلي، هو لم يكن فناناً فحسب، لقد كان فناناً كبيراً، لأنه كان إنساناً يغتم لمحن الآخرين، كان الرسم، بالنسبة له، وسيلة لمقاومة الظلم، وكان لاحتفائه بالفن بعدٌ اجتماعي وإنساني، إذ إنه يريد خدمة الناس، ولهذا الغرض يرسم، ولهذا السبب فقط استولى فنه على القلوب.

كنت لا أزال جالساً في ركن من مدرسة الأستاذ، وكلما كانت الألسن تتلفظ باسمه وتلهج بذكره يزداد احترامي له، هذه المدرسة، بالنسبة لي، بمثابة معبد، ومنذ أن توفي «آقا رجب»، أعتبر نفسي خادماً لهذا الحرم.

والآن، وأنا أنظِّم هذه المذكرات، تقابلني صورة للأستاذ، رسمها أحد تلامذته له بعد وفاته؛ له وجه طويل، وجبين شامخ، ووجنتان بارزتان، وأنف حاد، وعينان كبيرتان خارقتان، وحواجب مقوسة، وذقن واسع، وأسفله ضيق.

كانت نظّاراته تميل إلى السواد، وحينما يحدق إلى شيء، كان كمن يريد أن يقتلع العرق والعصب بالمنقاش من وسط اللحم والجلد والعظم.

نظرته كانت ترتعش لها أدق أوتار روح الإنسان، ينظر ويرى، ويستخرج ما يمر على الجميع مرور الكرام، وهذا واضح في آثاره، يعرّي ما كان خفياً في طبيعة شعب إيران.

أقارن الصورة التي رسمها له الرسام بالصورة التي بين يديّ، والتي تعود لسنوات حياته، كانت حالته كلها تعكسها ابتسامته، هي ليست ابتسامة عارضة، بل هي متأصلة، هي علامة لمرارة السم الذي أحاط حياته وحياة الناس من حوله، عَشَّشَت هذه الابتسامة دائماً حول شفتيه وأسفل عينيه، وقد حاول الرسام أن يثبت هذه الابتسامة، دون أن تظهر علامات الضحك في خطوط وجهه، لكنّ هناك فرقاً شاسعاً بينها وبين الابتسامة الطبيعية التي انعكست في الصورة الكبيرة، هذه الابتسامة ليست ابتسامة سرور، لا تدل هذه على الحياة؛ إنها ابتسامة تأثر شديد، كما لو أن الأستاذ أراد أن يقول: «ما أحلاها، ما أحلى ما يمكن أن تكون، إنه من المؤسف أننا نتذوق مرارتها».

مع ذلك، فإن الرسام الشاب أبرز الأستاذ بحسب ذوقه هو، فلقد لاحظ شيئاً آخر، أراد أن يبرز الإنسان الكتوم والهادئ، هو روى فقط ما يعرفه الجميع عن الأستاذ، لكن الفرق شاسع جداً بين هذا الأستاذ والأستاذ الذي عرّفته لي المرأة المجهولة، لم يضف تلميذ الأستاذ في رسمه الذي ينتصب قبالتي الآن شيئاً إلى ما قلته أنا عنه.

كان رجلاً عالي الهمة، يحمل هموم الآخرين، هادئاً ومنطوياً على نفسه، لا يصادق أحداً، بل يعتزل الجميع، ويشمئز من الغوغاء، ومن المحتالين، ومن الانتهازيين، وممن ليس لديهم هدف في الحياة سوى إرضاء بطونهم وأجسادهم، لم يكن يتحمل رؤية وجوههم.

كان ينسحب فجأة من مجلسهم، ويرحل دون أن يسوق لهم الأعذار، وفي الوقت نفسه، كان صديقاً للجميع ومعروفاً لهم.

حينما يحس بالنقاوة والصدق، يفرح من صميم القلب، يشاركهم محنهم، ويستطيع أن ينزل إلى مستواهم، وأن يكون صديقهم الحنون، يساعدهم ويحزن لحزنهم.

يستقبل كل من يأتي إلى بيته، ويقضي أوقاتاً ثمينة مع الناس العاديين، لدرجة أن الجميع يعتبر نفسه صديقاً حميماً له. كان متكبراً ومغروراً حسب ما يقتضيه الموقف، لم يكن ليقوم بزيارة أحد، ما لم يعجبه وما لم يحترم الآخرين، وإن زاره آلاف المرات.

يفرض على الجميع رغبته دون تفاخر أو مباهاة، لا يخضع للابتزاز، ولم يكن قلبه يتعلق بشيء إلا إذا استحق ذلك. كان متأنقاً في اللباس ومنظماً، وكان مرسمه جامعاً لكل الناس، هكذا يعرفه الجميع، وهكذا صوّره الرسام.

لكن المرأة المجهولة لديها الكثير لتقوله عن مقاومته وترفعه، هذا الجانب من حياته يجب أن تحكيه.

أنا سأنعت هذه المرأة بالمجهولة، لأنها نفسها تدّعي أن لا أحد يعرفها إلى اليوم، لنسمح لها بممارسة أنانيتها هذه.

معرفتي بها تمت بشكل غريب، بدت غريبة بالنسبة لها، أما أنا فقد حسبت الأمور بدقة. قبل عدة سنوات، كنت أمرت بتعطيل المتحف يوم 28 كانون الأول (ديسمبر)، وكنت أجلس في مكتب المدرسة وأترقب من سيزور المتحف في هذا اليوم التاريخي، أنا في هذه المدرسة مجرد وكيل، فمدرسة الأستاذ من نوع إدارات الدولة التي تقتضي خلو الرجل، وهي تصرف كل شهر مبالغ ضخمة - على ما يبدو - في تعليم طلاب هذه المدرسة، صُرفت عدة ملايين من التومان خلال الثلاث عشرة سنة الأخيرة، أي منذ نُفي الأستاذ إلى «كلات» حتى اليوم،

لم يتخرج منها حتى ثلاثة عشر فناناً، لكن على الأقل هناك 1300 خريج مجاز من هذه المدرسة في الفنون الجميلة، يديرون الأمور في إدارات الدولة المختلفة، من إدارة المعادن والحرف والفن إلى بنك الزراعة. إدارة هذه المدرســة لهــا مداخل متعددة، كل وزير جديد، يأتي، يعيّن مديراً خاصاً على رأس هذه المدرســة، لذلك فالمدرســة يديرها، على الأقل، مديران في السنة الواحدة، لكني أنا وكيل فيها منذ عشــر سنوات، ومن الطبيعي أن اختصاصاتي تسمح لي بأن أجعل من يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) يوم عطلة في الســنة، مســتخدماً عذراً من الأعذار، مــرة بذريعة تنظيف قاعة المتحف، ومرة بذريعة إصلاح سقف القاعة الذي يقطر منه المــاء، ومرة أخرى أتذرع بأني لســت على ما يرام. مرت أربع أو خمس ســنوات ولم يحضر أحد، لم تأت المرأة المجهولة حتى يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) من هذه السنة.

الآن تمر خمس عشــرة سنة على وفاة الأستاذ، يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) طلبت إغلاق قاعة المتحف، وجلست في المكتب، كان باستطاعتي مشاهدة زوّار المتحف من نافذة حجرتي.

الســاعة الرابعة والنصف بعد الظهر، الطلاب يخرجون من الســاحة، في حين كان أغلبهم قد انصرف، توقفت سيارة فخمة قرب بوابة المدرسة الحديدية، ترجلت منها المرأة التي كانت تقود السيارة بنفسها.

دخلت إلى الســاحة امرأة متوسطة القامة، متشحة بالسواد، محترمــة ورشــيقة، واتجهت نحــو البهو، حينمــا اقتربت بضع خطــوات، ألقت بنظرات تعجب إلــى الصالة، وواصلت طريقها، وجهتّ ســؤالاً لتلميذ يهبط من الســلالم، فتحتُ نافذة حجرتي

على الفور وسألتُ:

- سيدتي، بماذا تأمرين؟

كانت دقات قلبي تتسارع، حافظت على رباطة جأشي بصعوبة، كنت أحس بأن حادثة لطالما كنت أنتظر وقوعها تحدث الآن، كما لو أني أزف لنفسي بشرى: وجدتُها، عثرتُ على صاحبة العينين، هـذه هي، العينان اللتان عذبتا أستاذي، لكنـي ما زلت لا أرى العينين ذاتهما بعد.

فوجئت السيدة الرشيقة بسماع صوتي، رفعتْ رأسها، وألقتْ إليّ نظرة بالعينين اللتين ما كانتا أبداً غامضتين وأخّاذتين، كانت ابتسامتها مثل شمس الربيع التي تذيب ثلوج قمة الجبال، تدخل السعادة على قلب المرء، لكن الابتسامة نفسها عندما كانت تتكرر، كان المرء يحس بأنها مصطنعة، قالت بنبرة عذبة ومهذبة وحنونة:

- عفواً سيدي، جئت لأزور متحف هذه المدرسة.

كنت أريد أن أجيبها من تلك النافذة إجابة مترفعة، وأتركها تذهب، لأن الصوت كان عادياً جداً، كنت أتصور تلك المرأة المجهولة على هيئة أخرى، لكن نبرتها المؤدبة واللطيفة صرفتني عن قراري، أضف إلى ذلك أن التردد يجبر الإنسان على القيام بأعمال عجيبة في الحياة.

- تفضلي إلى المكتب، لأشرح لك.

عبرت بهو المدرسة ودخلت إلى البناية، آه، ليت «آقا رجب» على قيد الحياة، ما كان يستطيع أن يخفي عني هذه، دونما أن أخجل من حضور السيدة كنت سأسأله: أليست هذه هي تلك المرأة التي كانت تجلس ليرسمها الأستاذ؟ لكن هذه المرأة

بهــذا الوجه الجميل وهذا الوقار والتــؤدة، لو أنها كانت موديلاً للأستاذ، فلا بد أن سبباً دفعها إلى ذلك.. أحضر الخادم السيدة إلى حجرتي.

بمجرد دخولها، مثل شــخص يعرفني لســنوات أو مثل أناس يعتبرون جميع الخلق أصدقاء وأقرباء لهم، قالت بكل دفء وبلا كلفة:

- سيدي، بوّابكم تغيّر أيضاً.

هنا انتابت نفســي حيرة، واصفرّ وجهــي، أيقنت على الفور أن هــذه المرأة تتصنع الضحك، كل جملة تنطقها تســمع وراءها ضحكــة طويلة. في الوقت نفســه، كانت هــذه الضحكة مليحة وظريفة.

سألتها:

- متى تغيّر بوّابنا؟ «غلام» يعمل في هذه المدرســة منذ ثلاث سنوات وبضعة شهور.

قالت بنفس النبرة العذبة والمؤدبة، وبنفس الضحكة المصطنعة:

- عجباً، ربما أخطأت.

لهذه المرأة مهارة في التصنع والتقليد، أحسست منذ الدقيقة الأولــى أنني أتعامل مع امــرأة غير عادية. فجــأة، أيقنت، ولو للحظــات، أنها هي، حدقت إلى عينيهــا بعض الوقت، لم أر أي وجه للشــبه بين هاتين العينين والعينين المرسومتين على اللوحة، لكن الشــبه موجود في جبهتها والشــفاه والفم والشعر الأسود الناعم والأنف الطويل الدقيــق، ومن الواضح أن الزمان أضاف إلى شيخوخة هذه الشفاه وهذا الفم شيئاً.

كانت أسنانها بيضاء متناسقة، وهذه الأسنان والشفاه الرقيقة

هـي التي كانت تجعل ضحكاتها تأسـر القلب، هذه المرأة تدرك مدى تأثير ضحكتها على الآخرين، كانت ترتدي معطفاً واسـعاً هـو في ذلك الوقت موضة العصر، أسـود اللـون، وطية الياقة الحمراء الحريرية تضفي على وجه المرأة ضياء وطراوة زائدين، بطانة المعطف الحمراء تلمع، ونعومتها وصفاؤها يُشـاهَدَان عن بعد، أزرار المعطف مفتوحة، وقد علقت على ذراعها حقيبة يدوية سـوداء اللون، وشبكت يديها في حزام أحمر براق أحكمت غلقه على قميصها الأسـود، رجلاها تبدوان مشـدودتين متناسبتين، رشيقتين وجميلتين.

أيقنـتُ أنـه ينبغي أن ألعب مـع هذه المـرأة باحترافية، وإلا فستذهب، وأبقى أنا المسكين أجتر همومي، دعك مما عانى منه الأستاذ، أنا أيضاً يجب أن أحترق وأنتظر، قلت:

- جئتِ لتزوري متحف المدرسة؟

- نعم، كم وددتُ أن أزوره.

- لسـوء الحـظ، اليوم المتحـف مغلق، فلقد تسـببت الثلوج والأمطار الأخيرة برشح الماء إلى سقف المتحف، وحتى لا تتضرر اللوحـات عطّلت المتحف مدة أسـبوع، ليفتح مجـدداً في وجه العموم بعد إصلاح القرميد.

- إذن المتحف تحت إشـرافك، وإذا أردتَ تستطيع أن تسمح لي بزيارته.

- بالتأكيد هذا ممكن، لكن، حسناً، سيدتي، تعلمين أنه عمل إداري، وهناك بعض الصعوبات.

أجابتنـي بعذوبة وهدوء بحيث إنني اضطررت للاستسـلام، وكلما زاد إصراري زاد لطفها، لو كنت متيقناً من أن هذه السيدة

الجميلة والموقرة هي نفسها تلك المرأة المجهولة صاحبة العينين، ما كنت لأستسلم بكل تأكيد، ولكنت سأجعلها تستجديني أكثر فأكثر، حتى أطوّعها وأخضعها. كان لدي يقين بأن المرأة تعرف الأستاذ، لكنني متردد في الآن نفسه، وينبغي أن أظهر لها شخصيتي وقوتي، ولكن المشكلة تكمن في ترددي الذي يجعل مهمتي صعبة، تمنيت عدة مرات لو أن «آقا رجب» على قيد الحياة، فيجيبني بصراحة عن سؤالي، ولو لمرة واحدة فقط.

قالت لي:

– المشكلة الإدارية يمكن حلها دوماً، علاوة على ذلك، فأنا مسافرة، وإذا لم أشاهد اللوحات اليوم، فلن تكون لدي فرصة أخرى.

لم يكن هذا تهديداً، هذه المرأة جاءت إلى طهران في الذكرى الخامسة عشرة لوفاة الأستاذ «ماكان» بغرض مشاهدة أعماله الفنية، لكني اعتبرت ذلك تهديداً، وأجبتها بإصرار:

– يمكنني أن أطلب من السيدة أن تحضر في وقت آخر؟

– لا، سيدي، لا تطلب هذا الطلب، غير ممكن.

فوجئت المرأة، أصبح الوجه الضاحك حزيناً وصارماً، لكن هذه الحالة لم تدم أكثر من بضع ثوان، هزت رأسها، وأشرق وجهها مجدداً بابتسامتها التي كشفت أسنانها البيضاء المتناسقة، فقلت:

– لماذا؟ هل هذا يوم خاص؟

– لا، هذا ليس يوماً خاصاً، إنما كنت أود لو أستطيع أن أشاهد أعمال الأستاذ.

كان اليأس بدأ يتسرب إليها، وبدأت تخلي المكان، اغتنمت

الفرصة، وسألتها:

- هل يمكنني أن أرجو من السيدة التعريف بنفسها؟ أنا وكيل هذه المدرسة.

- يا سيدي، ماذا تريد مني؟ أياً كنت، فأنا أطلب منك الإذن بزيارة هذا المكان اليوم، لأنه لا وقت لدي لاحقاً، سأكون ممتنّة لك.

- لعل السيدة تكون فنانة، لعلك ترسمين، في هذه الحالة، فالاستثناء جائز، من الممكن أنك ترغبين بكتابة مقال لصحيفة أو مجلة، لكن الحق يقال، إعطاؤك الإذن، كنتِ من كنتِ، أمرٌ لا يخلو من مشكلات، لكن يمكن دائماً إيجاد مبرر لذلك، فمثلاً بذريعة رؤية قاعة المتحف المثيرة للشفقة، يمكن أن أطلب منهم أن يفتحوا الباب، هذا كان قصدي من وراء التعريف بنفسك، وإلّا فتفضّلي، قولي لي ماذا أفعل؟ أنا أحب هذا المتحف، لو أعلم أن توصياتك للمسؤولين ستفضي إلى تسريع وتيرة بناء المبنى الجديد لهذه المدرسة، لكنت مستعداً من الآن حتى صباح غد، أن أبقي باب القاعة مفتوحاً لك وحدك، فضلاً عن ذلك، فإن أي شخص يأتي لزيارة المتحف يجب، في نهاية المطاف، أن يأخذ تصريحاً مسبقاً من مكتب المدرسة.

أعتقد أنها أشفقت عليّ، كانت تنظر إليّ بعطف، كأنها وقعت تحت تأثير عذوبة كلامي، ربما تكون قد تعاطفت مع نبرتي الوظيفية.

فجأة وقعت حادثة عجيبة، على الرغم من كل الانتظار والترقب الذي كان لدي، وعلى الرغم من أنني كنت أنتظر مثل هذا الحادث منذ سنوات، لكن، مع ذلك، كان عجيباً، قالت لي:

- اسمي فرنكيس، لو رجوتك أن تأذن لي اليوم فقط، برؤية المتحف لنصف ساعة وأذهب، أكنت سترفض رجائي مجدداً؟ أنا لست فنانة، ولا رسامة، ولا صحافية، لكنني أود كثيراً مشاهدة هذه اللوحات اليوم.

لكن الحادث العجيب لم يكن قولها هذه العبارة، أو النبرة التي أدت بها كلامها، ولم يكن أيضاً أن فرنكيس من دون أي اسم عائلي هو اسم نفس تلك المرأة التي جاءت قبل خمس سنوات لزيارة المعرض يوم 28 كانون الأول (ديسمبر)، وبعدها ببضعة أيام قال لي «آقا رجب» إنه رآها في القاعة. لا، أنا أصبحت على يقين بأن هذه المرأة هي نفسها، من بين النساء الخمس اللائي جئن لزيارة المتحف يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) قبل خمس سنوات وذهبن، كانت واحدة منهن تدعى فرنكيس، ولم تدلِ هذه المرأة باسمها العائلي. كنت على علم بإحصائيات جميع الزائرين. خلال هذه السنوات الخمس، جاء، مراراً وتكراراً، العديد من الفتيات والنساء يحملن اسم فرنكيس، لكن جميعهن كن يكتبن أسماءهن العائلية إلى جانب الاسم الأول، تحدثت معهن جميعهن، وباضطراب - أيِّ اضطراب - كنت أصغي إلى كلامهن! لكن ما يجب أن يميز تلك المرأة المجهولة هو النظرة الخارقة، ليس لها وجود عند هؤلاء الفتيات والنساء، هناك فرنكيس واحدة فقط من دون اسم عائلي جاءت في مثل هذا اليوم قبل خمس سنوات، وجاءت مجدداً اليوم 28 كانون الأول (ديسمبر)، أي يوم الذكرى الخامسة عشرة لوفاة الأستاذ، وبنظرات كهذه! إذن لا يبقى أدنى شك في أن هذه المرأة هي نفسها.. هي نفسها تلك الفاتنة التي أوصلت الأستاذ إلى حافة القبر، أو التي أدخلت

على قلبه السعادة لفترة.

لهذا السبب، كانت تستحق أن أكون أكثر إصراراً، وألا أسمح لها ذلك اليوم بالدخول حتى تعود مرة ثانية وتستجديني وتستسلم لي، وأرغمها على إفشاء الأسرار التي كنت أتمنى كشفها.

لكــن فجأة وقعت حادثة عجيبة، عندما قالت: «لو رجوتك..»، بــدت عينا هذه المرأة بشــكل عجيب، لا أســتطيع أن أقول كيف بدتا، هل كانت تتوســل؟ هــل كانت تلتمس؟ هــل كانت تريد أن تقتلني شــوقاً؟ هل كانت تريد بهاتين العينين الفاتنتين أن تشتت ذهني؟ لا أســتطيع أن أبين حالة هاتين العينين، أحسســت بعبء ثقيل يقتلــع قلبي من مكانه، فزعتُ، اضطربــتُ، أصابتني حالة لا توصف، لكن ما أســتطيع أن أقوله هو أن حالة العينين تشــبه حالة عيني الصورة المرسومة على اللوحة. أردت أن أذهب بنفسي، مهما كلف الأمر، وأشاهد العينين اللتين في اللوحة، استسلمتُ.

أنا استســلمتُ، أنا الــذي كنت أتصور أنــي أصبحت صلباً وموميائيــاً، أنــا الذي لا يشــغل بالي غير الأســتاذ والعمل في المكتب، خضعت أمام هذه المرأة المجهولة، نظرة عينيها سحرتني أنا الآخر.

كنت أتلوى من الغضب لبعض ثوان، بعد ذلك ذاب شيء ما في قلبي، انحلت عقدة ما، جرح ما فُتح وســال الدم منه، أحسست بوهن جميل، لقد عرفتها أخيراً، قلت لنفسي: «ما أشد ما عانى من وراء هذه المرأة!».

الآن، وأنــا منهمك في ترتيــب مذكرات الأيام الســابقة، تزاحم ذاكرتي هذه الخيالات، لم يكن لدي خيار آخر في تلك اللحظة. وهي، هذه المرأة الفاتنة، أدركتْ قدرتها على الفور، ورجعتْ لكي تذهب.

قمت من المنضدة متوجهاً إلـــى ناحية الباب، فتحته، والتفت جهة المدخل منادياً:

- يا «غلام»، تعال افتح الباب!

جلســـت المرأة المجهولة على كرسي بجانب طاولتي، لم أنظر إليها، حين دخل غلام إلى الحجرة، اتجهتُ إلى المكتب، أخرجت المفتاح، وأعطيته إياه وقلت:

- القاعة باردة، أليس كذلك؟ ألم تشعل النار اليوم؟

- كلا، أنت أمرت بذلك.

- أوقد مدفأة الكيروسين، وضعها في القاعة حتى نأتي نحن.

وجدت فرنكيس الفرصة ســـانحة لتنشـــغل بزينتها، فتحت حقيبتهـــا اليدوية، وأخرجت منها مرآة، ألقت نظرة على وجهها، نظفت جانب شـــفتيها بالمنديـــل الحريري، أخفـــت المرآة داخل الحقيبـــة الحمراء ونظرت إلـــيّ، حينذاك حُلَّت عقدة لســـانها، تحدثت عـــن مبنى المتحف، وعن أصدقائهـــا الكثيرين؛ الفنانين ورعـــاة الفن الذين يعملـــون في القطاع الحكومـــي، وعن رئيس شركة الســـجاد الذي يكنّ شـــعوراً خاصاً لها، وعن المدير العام لـــوزارة الثقافة الذي هو من أصدقـــاء القمار الخاصين عندها، ونائب رئيس الوزراء نفسه يقرأ كل توصياتها، لكن هؤلاء جميعاً لا منفعة ترجـــى منهم، هؤلاء أناس يريدون أن يقضوا بعضاً من الوقت الممتع معها، هم شـــركاء اللصوص ورفقاء القافلة، لا أحد يحمل همّ الآخر، لكن هي كامرأة وحيدة بلا ســـند، تعرف قيمة هذا المتحـــف، ولها دراية بكيفية وجـــوب المحافظة على متحف للفن التشـــكيلي، زارت كل متاحف أوروبا، ليس مرة واحدة، إنما عدة مرات، هي مستعدة لشراء جميع هذه اللوحات، وبناء المبنى

بنفســها. بعد ذلك، تحدثت عن وزير الثقافة وأنه ليس إنســاناً سيئاً، لكن خبرته في الفن توازي خبرة العجل فيه.

كانت هذه المرأة تتحدث دون انقطاع، ولم يكن غرضها بيان ما يثير اهتمامها، كانت تتحدث عن كل شيء، وتغرق في التفاصيل، تحدثت عن زوجة وزير الثقافة، وكانت تعرف أشياء عن ابنته.

لم أكن أنصت إلى كلامها، منذ الوهلة الأولى، أسررت ضغينة في قلبي تجاهها، فرأيتها عدوة لي، اعتبرتها قاتلة الأستاذ، لكن لــم أكن أريد إظهار عداوتي لها بأي ثمن، أردت أن أثأر من هذه المرأة قاســية القلب. كانت تنظر إلــيّ، أتراها تريد أن تنفذ إلى قلبي وروحي؟

راقبتُ حركاتها، بمجرد ما رأيت أنها تنظر إليّ، شغلت نفسي بأمر، وحينما أدركَتْ لامبالاتي، ارتعشــتْ أجفان عينيها، وكانت صورة للأستاذ معلقة على الحائط خلفي، كانت فرنكيس تنظر إليها أحيانــاً، في نفس الوقت الذي تكمل فيه كلامها، وقد عُلِّق على الجدار في الجهة اليسرى، مقابل النافذة، بعض الفسيفساء التي صمّمها الأســتاذ، عادة ما كان الأشخاص الذين يقصدون مكتب المدرســة يحدقون بصورة الأســتاذ لوقت معين، لكن بعد ذلك، يســتحوذ على انتباههــم لبعض الوقت لون الفسيفســاء الأزرق البــراق. لم تنظر المرأة المجهولــة إليها كثيراً، كما لو أنها رأتها كثيراً، حينها عادت ونظرت إلى شــجرة الصنوبر الجميلة التي طلاها الثلج بلون الفضة، مع ذلك، لم تتوقف عن الحديث، نهضت من الكرسي وصوّبت عينيها نحو الشجرة، وجدتُ الفرصة سانحة لكي أتفحص قامتها، كان شكل وجهها الجانبي غاية في الجمال، سنُّها يجب أن يكون في حدود أربعين سنة، كانت جميلة

القوام. شبّكت يديها من تحت معطفها الواسع حول خصرها، لها أصابع طويلة ومشـــدودة وجلد أصابعها الأبيض كان يبدو طرياً وناعماً، ولا أثر على وجهها لأية علامة للشيخوخة، فقط حينما يقارن المرء الشــفاه والأنف بما هو مرســوم في لوحة «عيناها»، يلحظ وجود فارق. كان شعرها طويلاً، ويلتف من خلف الأذن إلى مقربة من خط الشــفاه، ومن هناك إلى ما فوق الكتف كان يبدو متموجاً، إنه شعر أسود برّاق مثل إطار أسود يجعل بياض الجلد أكثر نصاعة، وعلى جبهتهــا توجد ثنية، لم تبدُ أية حالة خاصة على الشــفاه والفــم والجبهة، لكن العينين فــي حالتهما العادية كانتا تُبْدِيان حزناً وتأثراً.

خيّم للحظات صمت رهيب على الحجرة، كنت أفكر بالطريقة التــي يمكنني بها أن أجعل هذه المرأة تتكلم كلاماً معقولاً، الكلام الذي كنت مشتاقاً لسماعه، وليس الكلام الذي تقوله لتروِّضني. فكــرت في نفســي كيف ينبغــي التعامل مع هــذه المرأة، أتجب مسايرتها، أم التقرب إليها بالرجاء والالتماس، أم يجب استخدام قوة الشخصية لتطويع هذه المرأة المدعية والأنانية؟ سكوتها هذا له معنى كبير، كانــت للتو منهمكة في التلاعب معي، على الأقل بعدما سحرتني بنظراتها، كان عليها حينما ناديت «غلام» وأمرته بفتح باب الحجرة أن تعبّر عن شــكرها بشكل من الأشكال، هذه المرأة تفتخر كثيراً بعينيها، وكانت قد ســحرت الأستاذ بمثل هذا الطلسم، وها هي الآن تنجح مرة أخرى في مواجهتي.

إنما كنت منذ مدة نذرت نفســي للأستاذ، أعددت نفسي لأي نوع من التحقير والتوهين، أنا رضيت أن أبقى مدة عشرين سنة أخرى وكيلاً بســيطاً، وأن أجلس خلف هــذه المنضدة الحقيرة،

لا لشـــيء إلا لملاقاة هذه المرأة، لذلــك، فاللامبالاة لا يمكن أن يكون لها تأثير وخيم.

ربما تكـون فرنكيس مضطربة الحـال لأنها اضطرت إلى استخدام آخر أسلحتها وأكثرها فتكاً من أجل مجرد رجاء صغير، لتهزمني بنظرتها، من المحتمل أن حالتها لم تسـتقر بعد، وكانت تتظاهر بالهدوء وتتجاهلني، لكي تكتسـب القوة، على أية حال، فقد نالــت مقصودها، والآن من واجبي ألا أضيع هذه الفرصة، وأجبر هــذه المرأة على الكلام. كان هناك أمر في غاية الوضوح بالنســبة لي، وهو أني لم أعد أحتمل، وإذا لم أستطع كشف سر هذه اللوحة التشكيلية، فالموت أولى بي، إما اليوم وإما أبداً!

فجأة راودتني فكرة، لم تكن لدي فرصة لأدرس نجاح خطتي أو فشلها، تركت المكتب، وتوجهت صوب الباب، وأمسكت بالمقبض وقلت:

- أتأذنــين لي أن ألقــي نظرة على الصفـوف؟ أحياناً يبقى الطلاب في الصف، وهذا يخالف القوانين، سـأخرجهم وأعود على الفور لنذهب معاً إلى قاعة المتحف.

- هل سـيطول الأمر كثيراً، سيدي؟ أيمكنك أن تأذن لي بأن أذهب رفقة بوّاب المدرسة؟

لم تكن تقوى على الصبر، ولم تكن تعيرني أي أهمية.

- لا، سيدتي، أولاً أنا الذي يجب أن يكون في خدمتك، فضلاً عن ذلك، إنني لن أتأخر أكثر من خمس دقائق.

قلت ذلك، وفتحت الباب ثم خرجت من الحجرة.

ذهبت مسـرعاً إلى قاعة المتحف، فتح «غلام» الباب، كان في انتظاري على عتبة القاعة، قلت له:

- يا «غلام»، لا تنتظر أكثر، اذهب إلى البيت! أنا سأقفل الباب بنفسي وأعطي مفتاح باب المبنى للحارس، اذهب يا عزيزي!

بمجرد أن نزل «غلام» من السلالم، دخلت إلى قاعة المتحف، كان المصباح مضاء، توجهت صوب لوحة «عيناها» بحرص لم أعرف له في نفسي مثيلاً أبداً، كأني أواجه هذه اللوحة لأول مرة، كأني سمعت عنها لسنوات، ورأيت نُسَخاً عنها، لكن اللوحة نفسها لم أرها بأم عيني أبداً، كما لو أني عدت شاباً من جديد، وأقابل لأول مرة امرأة تريد أن تلقي بنفسها في حضني، بات للعينين معنى عندي، سلبت العينان الإرادة مني أيضاً، حدقت إليهما لبضع دقائق، تجسدتْ من جديد أمام ناظري فاجعة حياة الأستاذ بأكملها، يجب إذلال هذه المرأة الثرثارة، كنت أنظر إلى اللوحة، وأنا أضع خطتي.

أطفأت نور المصباح لئلا ينتبه أحد من الخارج لما أفعل، فتحت باب المخزن، وأخذتُ اللوحة ووضعتُها على الطاولة، ومررت يدي فوق العينين، كأنما بلمسهما أزداد إدراكاً ويزداد شعوري باللذة، أحسست بغبار ناعم على اللوحة، نظّفته بالمنديل، رفعت اللوحة بكلتا يدي ووضعتها فوق رأسي، وأخذتها إلى المخزن، كانت اللوحة ثقيلة، وأنا خائر القوى، أحسست بأن ظهري يتقوس تحت الثقل، عدت إلى قاعة المتحف مجدداً وأنا أعدّ أنفاسي، جلست لثوان على الكرسي، جفّفت عرقي، رجعتُ إلى المكتب، وقلت:

- تفضلي سيدتي، أنا مستعد لمرافقتك.

كانت جالسة باسترخاء على كرسي تتفرج على صورة الأستاذ، ما إن سمعت صوتي، حتى انتصبت واقفة، وأخذت حقيبتها

اليدوية التي كانت ملقاة على ركبتها، وعلقتها على يدها، وقالت:
- أشكرك سيدي.

توقفتُ عند عتبة الباب، أمسكتُ به، ولما خرجتْ فرنكيس أغلقتُ الباب وأقفلتُه بالمفتاح، لم تنتظر فرنكيس حتى أدلّها على الطريق، كان واضحاً أنها تعرف الطريق بنفسها، صعدت الدرج وأنا من خلفها، ووقفَتْ أمام باب القاعة، فتحتُ الباب فدخلَتْ، وأغلقتُ باب القاعة، وأضأتُ المصابيح، بمجرد ما أضاءت القاعة حدقْتُ إلى وجهها.

كان مكان لوحة «عيناها» على الحائط المقابل للنافذة خالياً. فجأة، فطنتُ في ضوء المصباح إلى أن هناك شيئاً ناقصاً، لكن فرنكيس لم تنتبه، ويخيل لي أنها قد لا تكون فهمت، تيقنتُ من شيء واحد؛ هذه المرأة ذكية وذات موهبة، وتستطيع بكل أريحية أن تتقمص دور ذلك الكائن الذي تريد أن تلعبه، ولو لزم الأمر، تستطيع، بنظرة عين واحدة، وبحركة واحدة من الشفاه، وبتقطيبة واحدة من الجبين، أن تظهر نفسها عاطفية، ورقيقة القلب أو مشوشة البال وغارقة في التفكير، هي التي هزمت الكثيرين بابتسامة واحدة، ربما أرادت أن تتظاهر بأنها لم تنتبه إلى شيء، لكني سرعان ما شعرتُ بأن قاعة المتحف من دون لوحة «عيناها» هي ليست قاعة الأستاذ. ذهبت إلى وسط القاعة بالقرب من المدفأة، وقفتُ هناك أراقبها.

بدأت فرنكيس تتفرج على لوحات الأستاذ من الجهة اليمنى، بينما وقفت أنا في الوسط، وكنت أدور في الاتجاه الذي تذهب إليه وأتفحصها، كانت تمكث قليلاً أمام بعض هذه اللوحات، وتتغاضى عن بعضها الآخر وتتقدم، لم تكن هذه المرأة متفرجة

عادية، كما أنها لم ترغب أن تظهر نفسها كفنانة، كنت أسأل نفسي: لأي غرض جاءت إلى هنا، ما هذه النزوة؟

كنت أرمقها من الخلف على الدوام، أدور في الاتجاه الذي تدور فيه هي، لم أعد أرغب في النظر إلى عيني هذه المرأة، كنت أتجنب نظراتها، أريد أن أراقبها من الخلف، دون أن أقع فريسة لسحر عينيها وجمال وجهها.

لم تكن تبدو فنانة وخبيرة، لكنها لم تكن تبدو أيضاً مثل أولئك الفضوليين الذين يفتحون أفواههم انبهاراً عند مشاهدة لوحة، تمر بسرعة من أمام بعض اللوحات، وأحياناً تتباطأ فجأة، ترجع مسرعة بضع خطوات إلى الوراء وتتأمل في لوحة أخرى، كما لو أنها تعرف كل اللوحات، وفي كل واحدة منها تعثر على شيء رائع، كانت هذه أول مرة يكف لسانها عن الكلام منذ أن جاءت إلى المكتب، أهي بفعل سطوة فن الأستاذ أم سيطرة ذكريات الماضي، أم بكلتيهما معاً؟

وأنا كنت مثل قائد وضع خطته ونفذها وينتظر في أية لحظة سماع خبر انتصاره، كنت قلقاً، ضربات قلبي تتسارع، لكني متيقن من نجاحي. استولى عليّ الغضب، وبدأتُ أحدّث نفسي بلا فائدة، كنت أقول: ألا تهتمين بي؟ ألا تعبئين بي؟ تثرثرين مع الرجل الذي لا ينتظر أي شيء من أحد ولهذا فهو لا يمسك لسانه أمام أحد؟ مع الرجل المهووس بالأستاذ؟ مع الرجل الذي حلم بعينيك ليالِيَ عديدة؟ معي أنا؟ مع الرجل الذي منذ النظرة الأولى أدرك ألاعيبك، وفهم مع من يتعامل؟ لنر، الآن، من منا سيكون بليغاً وفصيحاً؟ لنر، الآن من سيجثو على ركبتيه متوسلاً؟ تأكدي أن سحر عينيك كان له مفعول في المرة

الأولى، وانتهى الآن، لقد أُخِذْتُ على حين غِرّة، قضيت على رجل من أمثال الأستاذ، والآن يجب أن تتحركي وفق هواي ورغبتي.

كان يقيني بالنجاح راسخاً، لكن مع ذلك فإن شيئاً من التردد كان جاثماً على صدري، يعذبني، أخشى أن هذه المرأة لم تنبس ببنت شفة عن لوحة «عيناها» مخافة أن تفشي سرها، حينها سأكون أنا الخاسر، هل تكون هذه المرأة الأنانية، لأجل أن تخفي أسرار حياتها الماضية، قد تظاهرت بعدم علمها بغياب تلك اللوحة الأصلية من القاعة؟ بدأت المرأة المجهولة تقترب من مكان اللوحة المفقودة، كان اضطرابي يزداد لحظة بلحظة، وتزداد معها محاولاتي لإخفاء هذا الاضطراب. إن موضوع هذه المرأة، بالنسبة لي، موضوع حياة أو موت؛ نجاح حياة بأكملها يتوقف على ما كان في طور التحقق لي، إذا لم أتمكن من كشف أسرار حياة الأستاذ لشعب إيران، فما فائدة حياتي إذن؟ لو أن الشعب الإيراني اليوم، يوم الجد والعمل، يدرك كيف أن الأستاذ كان جسوراً وكيف ناضل، لو يدرك الشعب اليوم أن رسام إيران الكبير كان يتدخل بشكل مباشر في شؤون الدولة، وكان، في الآن نفسه، يعتقد أن مصيره من مصير الشعب، حينها سيتشجعون أكثر وسيكافحون، وما كان اليأس واللامبالاة سينهشان وجودهم. يجب إخبار الفنانين وإفهامهم لماذا تم نفي الأستاذ، فلو استطاع شخص مثله أن يصمد في زمن الظلم، فلا بد أن يكون اليوم لكل إنسان حي دور يؤديه، حيث توفرت الحريات بصورة أكبر بفضل جهد وتضحيات الأستاذ ومحبيه.

ليس هذا وحده سبب قلقي، أنانيتي أيضاً كان لها أثر مهم. آه، ذلك الوقت، حين كنت واقفاً في قاعة المتحف أتعقب المرأة

المجهولة بعيني، ما أراه اليوم بهذا الوضوح والدقة، كان يبدو في نظري متقطعاً وغير مترابط، نعم كان لأنانيتي أثر مهم.

في نهاية المطاف، أنا الوحيد الذي أستطيع أن أكشف الغطاء عن حياة الأستاذ الشاقة، لقد درست بدقة وعمق شديدين جميع لوحاته، قرأت كل ما دوّنه على هوامش كتبه من مذكرات، من مثلي تَعِب من أجل الفنان؟ من مثلي تعذب؟ من مثلي أنا يعرف الأستاذ؟

كم اجتهدت في حياتي لكي أصبح فناناً! لسوء الطالع لم تكن لديّ إمكانات، رغم وجود الموهبة! لم يعد لي من هدف سوى تجسيد حياة الأستاذ، ومفتاح هذا النجاح هو في يد هذه المرأة، كنت على استعداد لأجثو على ركبتيّ أمامها، لآخذ بتلابيبها وأتوسل إليها أن تحقق لي طلبي.

اقتربت المرأة من مكان لوحة «عيناها»، ألقتْ نظرة وتابعت المسير، رجعتْ ثانية، رفعتْ يدها عن خصرها، رمتْ برأسها إلى الخلف، فجأة تسمّرت في مكانها، لمستْ برأس إصبعها الغبار الذي خلّفه إطار اللوحة على الجدار، توجهتْ بوجهها نحوي، كان وجهها قد علاه الاصفرار، وعيناها كانتا تبرقان، كأنّي بها أرادت أن تقول: هل أنت تخدعني؟ ما المكيدة التي تدبرها لي؟ أين اللوحة؟ لكني لم أمنحها أية فرصة، كانت تنتظر أن أقول شيئاً، كنت هادئاً، أقوم بتدفئة يدي، وناظري شاخص نحو زرقة شعلة المدفئة، هذه هي لحظة الهاوية، يجب أن تتكلم.

– سيدي الوكيل، كأنّ مكان لوحةٍ ما فارغ هنا!

– نعم سيدتي، يجوز ذلك.

– هل تُخرَج لوحات الأستاذ خارج هذه القاعة؟

- نعم يخرجونها، وأحياناً تتعرض للضياع، وتجد من يقتنيها.
- هل تبيعون هذه اللوحات؟
- كل شيء ممكن.
- كيف ذلك؟

لم تكن تتوقع مثل هذا، ارتباكها وصل حداً تراءى معه كل ما كان خفياً في وجهها، بدا وجهها مغتمّاً، لكني كنت هادئاً وغير مبال.

- يا سيدتي، كل شيء وارد، كان الأستاذ يمتلك أكثر من هذه اللوحات بكثير، أكثر مما تلاحظينه أنت الآن، يأخذونها، ويسرقونها، ولا أحد يكترث، في النهاية، ماذا يعني وجود لوحة زائدة أو ناقصة للدولة الموقرة!
- هل بيعت اللوحة التي كانت هنا؟
- ربما، وربما تكون موجودة في أحد الصفوف، يقوم بنسخها أحد الطلاب.
- هل تتذكر أية لوحة؟
- لا، لست أتذكر.

كان واضحاً أن هذه المرأة ستفتح قفل لسانها بسبب لوحة «عيناها»، بقيتْ لفترة تنظر إلى اللوحات.

أشاحت بوجهها عني، وركّزتُ من جديد على أعمال الرسام، وقفتُ قبالة اللوحة التي يبلغ طولها مترين ونصف المتر، ويبلغ عرضها متراً وبضعة سنتيمترات، كانت هذه اللوحة من أعمال الأستاذ البارعة، وسط اللوحة يُرى رجلٌ حسنُ الهيئة، قويُّ البنيان، وقد ارتدى ملابس مرتبة ويقف أمام مرآة، يجذب بيده اليمنى قبعته ذات الحافة إلى أسفل، وجهه الكبير والمتجعد يبدو

بوضوح في المرآة، واحتــل معطفه الطويل والمفصل بعناية قرابة ثلثي اللوحة، وأُســندت عصا غليظة على طاولة صغيرة بجانب المــرآة، يَصدر دخانٌ من لفافة ســيجارته التي في المنفضة، في الناحية اليمنى يتراءى هيكل امرأة نحيفة تبلغ من العمر خمســاً وأربعين ســنة، وهــي تخرجٍ من الغرفة بملابس غير متناســقة، وتُبدي ملامح المــرأة وقاراً ولطفاً، لكنها حزينة، تغطي رأســها بحجاب قروي أســود عقد تحت بلعومهــا، ووضعت فوق غطاء رأســها قبعة أوروبية نســائية مصنوعة من الحصير الأســود، منظر هذه المرأة بالحجاب القــروي والقبعة مضحك لدرجة أن مــن رأى هذا الجزء من اللوحة فقط، فســتصيبه نوبة ضحك، وكأنما امــرأة عاهرة تقــوم بتقليد امرأة أخرى، لكن قســمات وجهها لا أثر فيها للســخرية والازدراء، كمــا لو أنها صُنعت من الشمع وعلى وشك الذوبان والاضمحلال. كُتب تحت اللوحة على الإطار «حفل كشف الحجاب» (*). حينما يقرأ المرء هذا لا يأخذه الضحك هذه المرة، بل يفكر قليلاً؛ ما الأهمية التي يوليها الرجل للحفل؟ هو يهيئ نفسه بطمأنينة تامة لعمل مهم، لكن تبدو على ملامح المرأة علامات الاضطــراب والفزع، فهي تعلم أنها تجعل من نفســها أضحوكة أمام الناس، ما الحــل؟ يجب الذهاب، إنه أمر، الجميع يجب أن يشــارك في حفل كشف الحجاب، ويجب أن يصطحبوا نســاءهم معهم، ويعتبر الرجل أن هذا الأمر عادي جداً، وهل هناك من يتوقع شيئاً آخر؟ لكن مسكينة المرأة!

(*) الإشــارة هنا لعملية فرض السفور المعروفة في إيران بـ «كشف الحجاب» التي فرضها رضا شــاه في عام 1935 في محاولته لإدخال الثقافة الغربية بشــكل تعســفي في البلاد، وقد وقف الكثيرون ضد هذه الحركة، وبخاصة الزعماء التقليديين ورجال الدين (المراجعة).

وقفت فرنكيس لهنيهة قبالـــة هذه اللوحة، خمّنتُ أن المرأة المجهولـــة أدركت حقـــاً، عمق الفاجعة التي عبـــرت عنها اللوحة بلسان فصيح.

تروي هذه اللوحة قصة مؤلمة؛ ليس هكذا يكشفون الحجاب، ما زالت هذه المرأة ستضع الشادور على رأسها، لو يأخذونها ألف مرة إلى مجالس الســـفور فســـتبقى كما كانت. استُعمِلتْ مهارةٌ وبراعة عجيبة في تجســـيد ملامح الرجـــل الذي يُرى فقط في المرآة؛ وجه هادئ، لم ير بعد اللباس الجديد الذي ارتدته زوجته مع المنديل والقبعة الأوروبية، تخجل المرأة، وتســـتحيي أن تظهر نفســـها حتى لزوجها بهذه الهيئة، وكأنها تُجر من بين الأشواك، وهي الآن تتجرع طعم وخزاتها التي تقطّع جسدها العاري، لكنها مازالت تنتظر ألماً أشد. بادرتْ فرنكيس بالسؤال:

- لماذا وضعت هذه المرأة منديلاً قروياً تحت القبعة الأوروبية؟

أجبتها:

- ألا تذكرين؟ كان هناك أمر بأن تعتمر النســـاء قبعة أوروبية في الحفلات، لكن هذه المرأة لم تكن تســـتطيع أن تظهر شعرها الأبيض لغير المحـــارم، انظري جيداً! هي من نوع مناديل الرأس القديمة التي ربطت بها رأســـها، لتخفي بهـــا على الأقل رقبتها وشعرها الأبيض.

مـــرت فرنكيس من أمام اللوحة أيضاً، هناك على الجدران نصبت عدة رسوم لـ «آقا رجب»، وقد وضعت الإطار لها جميعها، رمقتني فرنكيس بنظرة، بادرتها بالكلام:

- سيدتي، هذا كان خادم الأستاذ.

- عجباً!

كانت كلمة «عجباً» على وشـك أن تسلب مني المبادرة، وكدت أقول: «سـأبصق في وجـه من يتظاهر ويقـوم بتمثيل الأدوار»، لكنني تماسـكت، وقلت لنفسي: اصبر، سيسقط هذا القناع عن وجهكِ أيضاً، وستطقين في نهاية المطاف!

قلت بصوت مرتفع:

– نعم سـيدتي، لكل لوحة من هذه اللوحات قصة، كل واحدة منها تروي شـيئاً من أفكار الأستاذ وإحساساته ومراحل حياته، من المؤسف أنه ليس لديك وقت غير اليوم، ولا تستطيعين المجيء مرة أخرى لزيارة هذا المعرض، وإلا كنت مستعداً لأقدم لك بعض الشروح بكل فرح وسرور.

– كنت سـأمتنّ كثيراً، نعـم، كما تفضلت، أنا في طهران هذا اليوم فقط، وغداً سـأغادر، أنا قرأت في الصحف مرات عديدة شروحات لأعمال الأستاذ، لكن لم تتح لي فرصة مشاهدتها.

هـا هي بدأت بالثرثرة من جديد، وإذا لم أوقفها فسـتصول وتجول في الساحة وحدها، وتذهب بعيداً، قاطعتها قائلاً:

– ألم تكوني قد رأيتِ أياً من أعمال الأستاذ قبل اليوم؟

كان سؤالي هذا مفاجئاً لها، وبخاصة أنها سقطت في مستنقع الثرثـرة، لم يكن أمامها وقت للتفكير، تأملتْ لبعض الوقت، لكن هذه المرأة تتمتع بقدرة عجيبة، وتسـتطيع أن تُظهر نفسـها في الوضـع الذي تريد، وتغيّر شـكلها، إنما مجرد لحظة السـكوت تلـك، والتقطيـب الذي رسـمتْه على جبينهـا، وتضييق عينيها وتصغيرهمـا، أفهمني أن باطنها ليـس بتلك الصورة من الهدوء الـذي تتظاهر به، لكن لا شـيء يمكن أن يُسـتنبَط من كلماتها المنسابة والابتسامة التي تعلو وجهها، أجابتني:

- بلى، لقد جئت يوماً إلى هنا قبل بضع سنين، لكني شاهدت اللوحات على عجالة ودون تأمل، أظن أنه كان هناك لوحات أخرى لا توجد الآن.

- كأنك تتذكرين وجه بوّاب المدرسة، لأنك حين أتيت انتبهت إلى أن بوّابنا قد تم تغييره، هذه اللوحة التي تشاهدينها هي صورة «آقا رجب» خادم الأستاذ، الذي أصبح فيما بعد بوّاب المدرسة، تلك المرة التي جئتِ فيها إلى هنا، كان «آقا رجب» على قيد الحياة، والشخص الوحيد الذي له معرفة تامة بالأستاذ كان هو، والذي لم يعد حياً الآن.

تأنّيت لبضع ثوان، ثم قلت في هدوء:

- وامرأة ظلت مجهولة..

كان الأوان قد حان لأطلق آخر سهم من جعبتي، وقفتُ صلباً صامداً مستعداً للهجوم، كنت أحملق فيها، وأجتهد في أن أحس بأدق ارتعاشات روحها، قطّبت المرأة حاجبيها، وفتحت شفتيها قليلاً، كانت تريد أن تصطنع الضحك، تجمدت الابتسامة على شفتيها، لم تستطع حينها أن تحتقرني، وتتلاعب بي، لكنها ما زالت تتحكم في لسانها، قالت:

- عجباً، يا لها من قصة جميلة! ولا أحد يعرف هذه المرأة؟

- لا أحد غيري أنا يعرف هذه المرأة.

رفعت يديّ عن المدفأة وفركتهما ببعضهما، ثم توجهتُ نحو فرنكيس ببطء، وسمّرتُ عينيّ في عينيها، كان قد تغيّر لون وجهي، هذه المرة كانت عيناي أنا اللتين سحرتاها.

استجمعت المرأة المجهولة قواها الخائرة من جديد، ضحكت بصوت عال، لكن صوت ضحكها هذه المرة لم يكن له صدى،

كانت تتحاشـى، فزعت منـي، أرادت أن تبتعد عني، لكن قدميّ كانتا أسـرع، حاولتُ بكل قوة أن تحافظ على القناع الذي غطت به وجهها، في الوقت الذي بات فيه تعجبها واضحاً.

- ماذا تقول؟ أنت وحدك من تعرف هذه المرأة؟ هل قابلتها؟

تقدمتُ نحوها خطوة أخرى، لم يعد يفصلنا عن بعض سـوى أقـل من متر، كانت بدأت تضعف، بهدوء تام ولباقة قلتُ لها وأنا أركز على كل كلمة:

- نعم، لقد قابلتُها.

كدت أن أقول: «أنا أقابلها الآن»، لكني رأيت أن المرأة مازالت مصرة، ومازالت تظهر إصرارها، أشاحت بوجهها عني، ووجهت نظرها ناحية اللوحات، وأمسكتْ بمسار الحديث، أرادتْ أن تغيّر الموضوع، السؤال الذي وجّهته لي يبين أنها فقدتْ توازنها، وكانت تريد أن تعرف من أفشى سرها، سألتْ:

- إذن.. خادمه من دلَّك على المرأة؟

- لم يدلني أحد عليها، أنا عرفتها بنفسي.

- منذ متى توفي خادمه؟

- مات قبل ثلاث سـنوات، كانت ممتلكات الأستاذ بيده، وما تبقى أوقفه على أطفال «آقا رجب»، أحياناً يأتون إلى هنا.

- هل هذه اللوحات تعود لهم؟

- لا، هـذه اشـترتها الدولة، لم يتبق أي شـيء، وربما تنتهي كل هـذه اللوحات في غضون بضع سـنوات مقبلة، بعضها الآن عبارة عن نسخ، يأتي تلامذة الأستاذ، وبذريعة أنهم يريدون رسم مثيلاتها، يأخذون اللوحات، يبيعون الأصل ويرجعون النسـخة، ولا أحد يستطيع تمييز الأصل من النسخة.

- يا للأسف.

حــان الآن دوري لأقول: «عجباً»، في النهاية هناك شــيء في هذه الدنيا يبعث على تأسف هذه المرأة المجهولة.

ألقيــت نظرة على الســاعة، أردتُ أن أوهــم المرأة أنني على عجلة من أمري، وأريد أن أتخلص منها بســرعة وأذهب لأباشر أعمالي.

سألتْ:

- سيدي الوكيل، هل أنت على عجلة من أمرك؟

أصاب ســهمي هدفه وتحقــق غرضي، لقد انتابهــا القلق، أفسحْتُ لها المجال قليلاً.

فهمــتُ أخيراً أن رأس الخيط بيدي أنــا، لا تتصور أنني في قيدها ويمكنها أن تتعامل معي كما تتعامل مع الآخرين. قلت لها:

- كلا، سيدتي، لست مستعجلاً، لكن، حسن، مهما نكن فلدينا معيشتنا، ويجب أن نباشر أعمالنا أيضاً.

- عذراً، لأنني أخّرتك كثيراً.

- لا، ليس مهماً، شاهدي.

مــرة أخرى، انتبهتْ إلى اللوحــات، كان نصف القاعة لم تره بعد، توقفت قبالة لوحة «البيوت الريفية»، وتمعنت فيها أكثر من دقيقتين.

عــادت فجأة وحدّقت مــن جديد بإحدى صــور «آقا رجب» المرسومة بقلم الرصاص، أنا لم أفهم هذه الطريقة في مشاهدة اللوحات التشــكيلية، ماذا كان قصدهــا وراء التريث أمام بعض اللوحات!!

أكانت، حقاً، تدركُ عمق ما كان يحكيه الأستاذ، أم أنها كانت

تريد إظهار نفسها ذات خبرة ودراية؟ ربما تعرف هذه اللوحات، وكانت تستعرض ذكرياتها الماضية في مخيلتها.

كانت لوحة «البيوت الريفية» حتى ما بعد أحداث شهر سبتمبر مخبأة في المخزن، وكان أكثر المقربين من الأستاذ وأصدقاؤه لم يطلعوا عليها، في شهر سبتمبر قبل ثلاث سنوات، أخرجتُها ووضعتُها في إطار وعلقتُها، يبدو في هذه اللوحة بكل وضوح سخط الأستاذ ومقته لكل ما حدث في العهد الديكتاتوري.

رسم الأستاذ أحد المنازل التي كان يبنيها بجانب طريق «مازندران» المالك الجديد لتلك المحافظة بأموال الشعب و«لمصلحة الرعايا»، في الجزء الخلفي من اللوحة يتراءى شبح منزل ريفي، تحت ضوء القمر الخافت، منزلٌ حديث البناء ومنظم، وفي الآن نفسه، يبدو مشؤوماً ومرعباً تحت نور الليل الحالك، وفوق قمة الجبل المكسوة بالغابة، يُرى ضياء خفيف، يسقط على الطبيعة الخلابة لـ «مازندران»، مزارع الأرز في عتمة الليل تبدو مشرقة ومنعشة، في الجزء الأمامي، ثمة شيخ قروي مع ابنه الشاب، وقد مدّا أرجلهما التي بدت سوداء داكنة كالفحم فوق شعلة نار، كانت قسمات وجه العجوز الكادحة تلمع بسبب البهجة التي صبغها به دفء النار، لكن نظرات ابن المزارع المرعبة متجهة صوب الناحية الأخرى من اللوحة، هناك حيث تسحب بالقوة امرأةٌ عجوز بحبل في يدها بقرة نحيلة ومنهكة، توشك من الهزال وبرد أول الربيع أن تهلك، وقرب النار المشتعلة كلب مستلقٍ على الأرض، وقد رفع رأسه قليلاً كأنه فطن إلى الحادث المفجع الذي على وشك الوقوع.

تأملت فرنكيس في اللوحة لبضع دقائق، ثم ابتعدت قليلاً

لتشاهدها بشكل أفضل من بعيد، رجعت القهقرى واقتربت من المدفأة في وسط القاعة، قلت لها:

- انتبهي سيدتي لئلا تصطدمي بالمدفأة. هل فهمت ماذا يحكي الأستاذ في اللوحة؟

- تفضل قل.

كانت اللباقة قد خانت لسانها، واضحٌ أنني أرعبتها.

- كنت أود أن تقولي أنت ماذا فهمت.

- لم أفهم الشيء الكثير.

- أتحبين أن أحكي لك؟

- أرجوك.

- هذه منازل ريفية، قيل للرعايا إن البيت يجب أن يكون على الدوام نظيفاً وأنيقاً، على الخصوص في أول فصل الربيع حين كان يذهب جلالة الملك إلى «مازندران»، كان موظفو الأملاك والعقار يزورون كل يوم المنازل مخافة أن تتسخ، في ركن اللوحة ذلك النتوء الذي تشاهدينه هو حطام كوخهم السابق، كانوا قد بنوا في ذلك المكان حظيرةً لأبقارهم وطيورهم، ولكنهم من فرط خوفهم من تلويث المنازل الجديدة كانوا يقيمون بأنفسهم فيها خلال فصل الشتاء، والآن هم في انتظار قدوم الشاه في أية لحظة، جاء الموظفون وحطموا الأكواخ حتى لا يقيموا فيها مرة أخرى، لا حل لهم سوى العيش في هذه البيوت حديثة البناء، ولكن لا توجد حظائر لحيواناتهم التي تنفُق من شدة البرد، كل ركن في هذه اللوحة يروي لك قصة. في الناحية اليسرى من الجزء الأمامي للوحة، يسترعي انتباهك وجود منزل آخر، تشاهدين في نافذة هذا المنزل «سماور» برونزياً واثنين أو ثلاثة

مصابيح زجاجية، لاحظي كيف رسمها الأستاذ بارزة ومنيرة، أي أن القرويين ينعمون بالعيش الرغيد، كان نُظّار الأراضي يقرضون المصابيح لهم في أول فصل الربيع حتى يراها الشاه عند عبوره، وحينمــا يحين وقت دفــع أجرة القرويــين كان ينقص منها أجر الأثاث العهدة، لهذا السبب لم يبق في البقرة أي رمق، ابن المزارع مــدرك للمصيبة التي تحل به، وينظر صــوب الناحية الأخرى. بدايــة الربيع هي وقت العمل والري، يتعين على الفلاحين العمل بأقدام حافية في مزارع الأرز، في البيت لا يملكون ما يستدفئون به. ألقي نظرة على هذا الكلب الوفي، هو الآخر ينظر إلى المرأة الريفية، التي قد تكون والدة هذا الشــاب، ربما يكون هذا الكلب أول من فطِن إلى المصيبة وأخبر صاحبه.

- سيدي الوكيل، أهذه اللوحة أصلية أم نسخة؟
- هذه اللوحة أصلية.
- هل بإمكانك تمييز الأصل عن النسخة؟
- إلى حد ما.
- إذن، كيف قلت إن أحداً لا يعرف؟
- أنا أعرف، ليس الأمر بيدي دائماً.
- إذن، هو بيد من؟
- بيد مدير المدرســة، بيــد الوزير الحالي، بيد حضرة المدير العام.
- لو أراد أحــد أن يحصل على إحدى هذه اللوحات الأصلية إلى من عليه أن يتوجه؟

دبت فــيَّ الحياة من جديــد، بدأنا نقترب مــن بعض، كانت حالة التصنع تلك قد بدأت بالتلاشــي، أحست فرنكيس بأنني

أستطيع مســاعدتها، كانت الخطة التي رسمتُها متسرعاً بدأت بالتحقق.

- الأمر يتعلق بمن يكون هذا الأحد، سيدتي.

- ولو كنتُ أنا؟

- أنت موجودة فعلاً، أليس كذلك؟

- أنا؟ أنا المرأة التي لن تبقى في طهران أكثر من بضعة أيام، ولا أحد لــي في هذه المدينة، أبي وأمي كلاهما يعيشــان خارج إيران، وإذا ذهبت فربما لن تراني أبداً.

- أية لوحة تريدين؟

- اللوحة التي أريدها لا توجد في هذه القاعة.

- أية لوحة؟

- قــل لي أولاً هل بإمكانك تحقيــق رغبتي، حتى أخبرك أية لوحة أريد.

- يتوقف الأمر على مدى قدرتك على رد جميلي.

- لو أعطيتني لوحة «عيناها» التي يجب أن تكون هناك، وهي غير موجودة الآن، أعطيك خمسة آلاف تومان.

مع أنني كنت أعددتُ نفســي بمهارة وذكاء، لكنني اســتُغفلت مرة أخرى، لم أكن أتصور أن تقترح عليّ هذه المرأة السرقةَ بكل هذه الجرأة. ترددتُ للحظات، كانت هذه اللحظات بالنســبة لي بمثابة زمن لا نهاية له، سكوتي أخاف المرأة.

- أنا أعلم أنك لا تريد هذا المال لنفســك، أعلم أنه يجب أن تعطيه للوزير والمدير العام.

لماذا كانتْ تجبرني على الســرقة؟ ألأنها فقط اعتقدت أن هذا المكان مرتع للسـرقة ولكل من هبّ ودبّ، وأنا شريك في

هذه الجريمة، أم خشيتْ لو أنها عادت مرة أخرى إلى هذا المتحف فلن تجد أثراً لهذه اللوحات، أم أن حبها للوحة «عيناها» أعطاها الجرأة لتقترح عليّ السرقة، وحين فهمت أنه يمكن أن تحتفظ بتلك اللوحة للأبد، قررت أن تسرق رائعة الأستاذ وتأخذها إلى البيت؟ يا لها من جرأة! كيف ومن أين اكتسبت هذه الوقاحة حتى تشتري شرفي بخمسة آلاف تومان فقط؟ خمسة آلاف تومان فقط؟ منذ عشر سنوات وأنا جالس على هذه المنضدة في هذه المدرسة الخربة، ورغم وجود لصوص خبثاء جاؤوا إلى هنا بصفة مفتش خاص للمالية أو بصفة مدير أو وزير، لكنني لم أسمح بخروج ولو صفحة واحدة بخط الأستاذ من المتحف، والآن هذه المرأة التي ليس معلوماً من أين جاءت، ولا من أين لها ذاك المعطف الأنيق الذي ترتديه وتلك السيارة الفخمة التي تستقلها، جاءت لتشتري شرفي بخمسة آلاف تومان، آه، كم تمنيت لو كنتُ طَردتُ هذه المرأة الفاجرة خارج المدرسة، كم تمنيت لو قلت لها: سيدتي أعطيني قُبلة واللوحة لك. لا، هذه المرأة العاهرة لا تفهم قصدي، تمنيت لو كنت قلت لها: سيدتي، اقضي ليلة حتى الصباح في أحضاني واللوحة لك.

مررتُ بالقرب من المدفأة، وذهبتُ إلى ركن القاعة، قبالتَها بالضبط، بجانب الجدار المقابل، وفي أبعد نقطة ممكنة بين الجدران الأربعة للقاعة، ذهبت وجلست هنالك على طاولة صغيرة كانت مخصصة لدفتر ملاحظات الزوار، ووضعت رجلاً على رجل، ووضعت يدي تحت ذقني، وطفقت أحملق فيها، وقد شحب وجهي.

استجمعتُ كامل قواي المعنوية واتخذتُ قراري:

- سيدتي، خمسة آلاف تومان فقط؟

- أنت وافق على طلبي، وأنا مستعدة لأعطيك ما تريد.

- ستعطينني كل ما أريد؟

لمعت عيناها، هل غضبَتْ؟ لست أدري، كنت أعرف كل خلجات روح هذه المرأة واحدةً واحدةً، ليس لها معي أكثر من ساعة واحدة، لكني كنت على معرفة بهذه الشفاه والأسنان والخد والجبين والذقن مثلما أعرف أجزاء وجهي، كنت قد تفحصتها لساعات متواليات، ورأيتها لسنوات، مرات عديدة في اليوم، وحدهما العينان اللتان كانتا بالنسبة لي غامضتين، لكني لم أكن أتصور هذه النظرة الغاضبة، هذه النظرة لا تشبه تلك التي أذابت قلبي قبل نصف ساعة، كانت هذه نظرة حيوان جائع، ربما كان هدفها إهانتي؟ لكن هذه الحالة في عينيها لم تدم أكثر من ثانية واحدة، لم تدرك في الوهلة الأولى معنى الجملة كما كنت أنا قد قصدتها، لكن فيما بعد وبلمح البصر قبلت المعنى الثاني، تقدمت ناحيتي وخاطبتني بأدب ولطف:

- أعطيك أي مبلغ تريده.

لكني أصررت وقلت مجدداً:

- ستعطينني كل ما أريد؟

قلتها هذه المرة بنبرة أخرى ليس فيها وقاحة، كنت أريد أن آخذ منها وعداً بأن تعطيني ما أريد أنا، أخفتُها، لكنني خفتُ أنا أيضاً، جاءتْ بخطاً مسرعة ووقفتْ قبالتي، نظرتْ إليَّ نظرةً تستشيط غضباً، كانت تريد أن تنفذ إلى أعماق روحي بعينيها، خلتُ أنها تريد ضربي.

انتصبتُ واقفاً وحملقتُ فيهـــا. هذه المرة، كانت حالة عينيها تشـــبه تلك الحالة الغامضة وذات المغزى الذي أثبته الأستاذ في اللوحة، الآن فهمت لماذا تتخذ العينان في لوحة الأســـتاذ معاني مختلفـــة، لماذا تُبكي المرء أحياناً، ولمـــاذا تجعله يضيق ذرعاً بكل شيء أحياناً أخرى، تقدّمتْ خطوة أخرى، وقالتْ:

- نعم، أعطيك كل ما تريد، شرط ألا تكون وقحاً.

- قبلـــتُ، أعطيني عنوان بيتك، ســـأحضرها هذه الليلة إلى منزلك.

- لماذا لا تريد أن تريَها لي الآن؟

- يجب أن يتم الاتفاق.

- لماذا لا تريد إنجاز الاتفاق الآن؟ أرني اللوحة هنا!

- ينبغي ألا يكون كل شيء موافقاً لهواك، اسمحي لمرة واحدة فـــي الحيـــاة أن تواجهي رجلاً يكون أكثر قـــوةً منك، لا تعتقدي أنك تســـتطيعين شراء شرفي وسمعتي بخمسة آلاف تومان، أنا أعدك أن أحضر اللوحة الليلة إلى بيتك، ولن آخذ منك شـــاهياً واحداً (*)، سوف أقول لك طلبي هناك.

- ائذن لي، أنا ذاهبة، أنا في انتظارك، تعال في الوقت الذي تشاء.

كانت هـــذه الجملة الوحيـــدة التي نطقت بهـــا بصدق ومن دون تصنـــع، لقد غُلبَتْ، غلبتُها، منذ أن قابلتني، كانت هذه المرة الوحيدة التي أطلعتني على نفسها، كنت منتشياً بالنصر.

انتهت اللباقة، وسقط القناع عن وجهها، وقامت بالكشف عن وجهها.. وجهها القبيح.. لا، لم يكن لها وجه قبيح.

---

(*) وحدة صغيرة جدا من العملة الإيرانية (المراجعة).

أخذتُ عنوان بيتها، كان منزلها يقع في أحد الشوارع المتفرعة عن الشارع الخلفي لسفارة إنجلترا.

رافقتُها حتى باب ساحة المدرسة، فتحتُ لها باب سيارتها، وحينما تطاير غبار الشارع في الهواء عدت إلى المدرسة.

* * *

لم يبق أي مجال للشك، لم يكن أمام المرأة من حيلة سوى أن تظهر لي نفسها وروحها عارية.

ذهبتُ إلى المخـــزن، وأخرجتُ اللوحة، أخذتُهـــا إلى القاعة، ووقفتُ لمدة قبالتها، بات للوحة معنى واضح عندي، كانت مفتاح ســـر حياة الأستاذ «ماكان»، لم يعد لديّ رهبة من هاتين العينين، وفكرت ألا أذهب إلى بيتها أبداً، لكني بتّ على يقين أنني إذا لم أذهب إليها فســـتأتي بنفســـها، فهمتُ أخيراً أنّ هناك أحداً في هذه الدنيا اكتشـــف أســـرارها، غيّرتُ رأيي مجدداً، أخشى أن تفلت من نفوذي، وأخشـــى بعد نوم ليلة هادئة أن تستعيد إرادتها من جديـــد. اتخذتُ القـــرار؛ قمتُ بخياطة بعـــض قطع الكتان ببعض، ولففتُ اللوحة فيها، وجمعتُ الورق من المخزن، ثم لففت اللوحة في الورق مرة ثانية، أحكمت إغلاق اللفافة بخيوط قطع الســـكر، ورفعت اللوحة بكلتا يدي ووضعتها فوق رأسي وتوجهت صوب المكتب.

عدت إلى قاعة المتحف، ألقيت نظرة على مكان اللوحة الفارغ، أطفأت المصباح، أغلقت الباب وجئت إلى المكتب.

أمـــرت الحـــارس أن يذهب ويحضر عربـــة، لا توجد طريقة أخرى لحمل اللوحة، لم أكن أستطيع وضعها في السيارة.

كان أخْذُ اللوحة من المدرســـة أمراً عادياً، الكثير من التلاميذ والمعلمين يأخذون أعمالهم إلى المنزل، ولا أحد يستطيع أن يظن بي ســـوءاً، ارتعدت فرائصي من شـــدة القلـــق، كان الجو بارداً، والثلوج والأمطار التي هطلت خلال الأيام الأخيرة بدأت تستحيل جليداً، كنت أرتعد، لكن ليس من شدة البرد، لا، كنت كما لو أنني أرتكب جريمة، أفقد أفضل أثر لأكبر أستاذ في إيران، هل الأمر

يستحق ذلك؟ لا أعرف ماذا أنا فاعل، إلى هنا جرت خطتي حسب ما أشتهي، لكني لم أخطط لما بعد ذلك، ماذا أفعل بهذه اللوحة؟ هل فعلاً قررتُ أن أضع هذه اللوحة في منزل هذه المرأة المجهولة التي لم تكن هويتها معروفة لديّ؟ ماذا يكون جوابي غداً؟ ماذا أقول لنفسي؟ ماذا يكون جوابي لأكلة الجيفة هؤلاء، الذين لا يقدرون فن الأستاذ ولو قيد أنملة؟ ماذا سيقولون لي؟

شيئاً فشيئاً أدركت أن هذه المرأة سحرتني أنا أيضاً، من خضع لسلطة الآخر حقاً، أنا أم هي؟ أحقيقةً أن عشق الأستاذ وإظهار فضله وشرفه وإبراز أهمية حياته الأليمة والمليئة بالصراع أجبرني، دون إدراك أو تعقل، على التفريط بشرفي؟ أم أن هذه الفاجرة اختطفتني، أنا الآخر، من قفص حياتي الضيق؟

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة، وأنا أقف أمام بوابة المدرسة، متخوفاً من النظر إلى وجه الحارس الذي أنتظره مع العربة؟ صوت سنابك الخيول التي تجر العربة على الجليد الهش يُسمع من بعيد، ولّيت مدبراً إلى الجهة التي يأتي منها صوت حوافر الخيول وهي تحتك بالثلوج والجليد لكي لا يرى الحارس وجهي، لم يُبقِ القمر بوجهه السافر سرّاً، كان الأفق المضيء والأرض والمنازل غارقة في بياض أغبش، والسيارات تطلق العنان لأبواقها دون حياء أو خجل، وتعيّرني بفورة الحياة وغليانها.

لم يتبق بالنسبة لي طريق للعودة، كان الشيطان قد جرى في عروقي. حينما جاء الحارس، ودّعته وقلت له:

- تأخر في السهر قليلاً هذه الليلة، ربما أعيد اللوحة.

في شارع «إسلامبول»، كانت السماء تبدو أكثر ظلمة تحت

ضــوء المصابيح الخافت، والســحب البيضــاء والداكنة متفرقة فيها، فيما لسعة البرد كانت تلفح أنفي وشحمة أذني.

ســحبت قبعتي إلى ما فوق عيني حتــى لا يتعرّف عليّ أحد، كانت الســاعة تشير إلى الثامنة مساء، وحركة الناس والمارة في أوجها، ما أشد لامبالاة الناس وهم يتحركون! ما أسعدهم!

كانت الســيارات تمر بانســيابية من اليمين واليســار، وبوق العربة شــاذّ في هذه البيئة، خلف ســفارة إنجلترا كانت النسوة يهمن علــى وجوههن بحثاً عن الزبائن، في حــين كان المتأنقون يبحثــون عن الطُعم، لما رمق أحدهم عربتي توقف عندها، وألقى إليّ نظرة، ثم سلّم علي وسخر مني.

كنت أود أن يســرع صاحب العربة، أريد أن أجد بسرعة في منــزل المرأة المجهولة ذلــك الهدوء الذي أنــا بحاجة إليه. قلت لصاحب العربة:

- سر بسرعة، إنهم سكارى، ويتسببون لنا بالأذى.

كان صاحب العربة العجوز أكثر جرأة مني:

- الــكلاب، من يكونون؟ هل يحســبون أن المدينة فوضى ولا نظــام فيها؟ الأرض أصبحت جليداً، إذا أســرعت فســتتزحلق الخيول.

لم أكن أصغي لــكلام صاحب العربة، التــردد ينخر داخلي، كيف لي أن أثق في انتصاري الساحق؟

ألا تكون هذه المرأة كتلك النسوة المغامرات اللائي ظهرن على الساحة بعد شهر سبتمبر؟ ربما تريد أن توقع بي، وتأخذ اللوحة مني لتشبع توقها للشهرة..

أخرجتُ قطعة الــورق التي كتبت فيها عنوان المرأة المجهولة،

كانـــت قد تكومت، قرأتها في ظل ضوء مصباح عند نهاية تقاطع الطرق، وقع نظري على السيارة ذات اللون الأحمر الداكن، التي كانت المرأة المجهولة قد استقلتها عند مجيئها إلى المدرسة.

طرقتُ الباب، فتحتْ امرأةٌ تربط حول خصرها مريلة بيضاء وحول رأسها منديل صغير، قلت لها:

- قولي للسيدة إني قد أحضرت اللوحة.

لم تتأخر المرأة، وقالت:

- تفضل إلى الداخل.

أعطيــت صاحب العربة أجره، أســندت أعلــى اللوحة على جبيني وكتفي، فيما أمســكت أســفلها بكلتا يــدي، ودخلت إلى البهو، أرادت الفتاة أن تأخذها عني، فقلت:

- لا، هذا ليس عملك، قولي لي أين آخذها؟

- تفضل إلى الداخل، الســيدة جالســة في غرفتها، ألا تريد نزع معطفك؟

أدركت على الفور أني في بيت من بيوت الأعيان، كانت الصالة غاية في الروعة، تتوسط الغرفة طاولة دائرية منخفضة، وفوقها وضع وعاء من الكريســتال المصقــول، تخايلتُ في داخلها بعض زهور القرنفل، وقد أضاءت الثريا المعلقة في الســقف المزركش بألوان جميلة الصالة بأكملها، ومزهرية كبيرة وضعت في ركن.

أســندتُ اللوحة إلى جانب الطاولة المنخفضة، أخذت الفتاة معطفــي وقبعتي، ألقيتُ نظرة إلى ما حولي، كل شــيء يبدو لي جميلاً ورقيقاً، أحســســت بأنني غريب في هذا الوسط، وجدت نفسي حقيراً ومسكيناً.. فزعتُ.

أتريد هذه المرأة أن تتغلب عليّ في بيتها وبيئتها، في المدرسة

كنت أنــا صاحب البيت والحاكم، أما هنا فكل شــيء ينظر إليّ نظرة احتقار، لم تســتطع عيني التعود على مزهرية الكريستال والثريا والجدران المطلية بألوان بهية والســجاد ذي الرســومات الرائعــة، أنا أعرف كل أثاث المدرســة، مطّلع على تاريخ وجوده، عشــت لســنوات هناك، لمســت بيدي كل اللوحات هناك، لكني عاجز هنا، في هذا البيت الفاخر والبهي. قالت الخادمة:

- تفضل سيدي!

فتحتْ باب غرفة، كانت فرنكيس جالســة باســترخاء على مقعــد، وقد ارتدت لباســاً أخضر اللون ملتصقــاً ببدنها، كانت تبدو أكثر شباباً، وجهها الحسن أعاد لي نشاطي، وأحيا كبريائي المُصادَر، ودون أن أعير المرأة المجهولة أي اهتمام قلتُ للخادمة:

- أنــت أحضري اللوحة إلى الغرفة، لكن احذري أن تصطدم بالباب أو الجدار.

حينما همّت الخادمة برفع اللوحة قلت لها:

- لا، لا، ليس هكذا، أمسكيها من الوسط.

كنت أتكلم بصوت مرتفــع لألفت نظر فرنكيس إلي، تابعَتْ قراءة جريدة كانت بيدها لبضع ثوان، عند سماع صوتي انتصبت واقفة، فاضطرت إلى المجيء حتى الباب لملاقاتي.

دخلــتُ إلى الغرفة خلف الخادمــة والمعطف ملقى على يدي كشــخص اعتاد التردد على مثــل هذه المنازل، أومأتُ برأســي للســيدة، وكنت أراقب بعيني أين ســتضع الخادمة اللوحة، لكن اللوحــة الكبيــرة التي كانــت معلقة على الجــدار المقابل أثارت انتباهــي، منظر منطقة «جمــاران» هذا الــذي كان معلقاً على الحائط، هو بالتأكيد عمل الأســتاذ، لأني كنت قد رأيت أكثر من

تصميم له، وأنا منذ مدة طويلة، أبحث عن اللوحة نفسها، حينما رأيتها في غرفة المرأة المجهولة، ازددت يقيناً، فلم يعد من الممكن مع كل هذه القرائن أن يوجد شك في أن هذه المرأة لا تعرف الأستاذ.

بمجرد أن وضعت الخادمة اللوحة على الأرض، توجهت نحوها، وأخذتها من يدها، وقلت:

- جميل جداً، أنا سأفتحها بنفسي.

كانت الخادمة تخرج من الغرفة حين أمرتها فرنكيس قائلة:

- سكينة! انتظري! ماذا تحب أن تشرب سيدي؟ أترغب في كأس من الكونياك؟

كانت هذه النبرة المؤدبة واللطيفة، ولكنها مصطنعة، تصاحبها ابتسامة سعادة وابتهاج.

سأفقد أعصابي إذا أرادت هذه المرأة أن تتعامل معي بهذه الطريقة مجدداً، فهي تعرف جيداً لأي غرض جئت إلى هنا، وتعلم أنها يجب أن تكون مطيعة لي، ولو لساعة واحدة، وتخبرني بما ليس من السهل الإفصاح عنه، ومع ذلك، فهي تريد أن تتحاور بنفس النبرة التي كانت تتحدث بها معي حينما جاءت إلى مكتبي.

التفتُّ ناحية الخادمة وقلت:

- شكراً، لا أريد شيئاً.

علا وجه فرنكيس الاحمرار من جراء ردّي الحاد والعنيف، لم أجرؤ على النظر إلى عينيها، كان واضحاً من لحن صوتها أنها اهتزت، فسألت:

- إذن ائذن لها أن تأتي وتفتح اللوحة.

- لا، سـيدتي، اتركي لي هذا الأمـر، أرجوك دعي خادمتك تذهب.

أشارت برأسها إلى سكينة، فذهبت.

دون أن أنتظـر أي مجامـلات، ذهبت وجلسـت على المقعد الوثير المقابل لفرنكيس بالضبط.

تريثت فرنكيس قليلاً، ثم جاءت وجلست.

خيم الصمت لدقيقة أو دقيقتين، كان صوت مرور السـيارات والعربات وحتى الراجلين مسموعاً، بعد ذلك نفد صبرها.

- ألا تريد أن تريني اللوحة؟

- أنـا أحضرت اللوحة لهذا الغرض، لأريـك إياها، لكن في الأول يجب أن ننهي الاتفاق.

- قلت أنا مستعدة لأدفع لك أي مبلغ تطلبه.

- وأنا قلت لك إنني لسـت مسـتعداً لأبيع شـرفي رخيصاً هكذا. مسـألة أخـرى؛ لو أردت أن تتحدثي معـي بنفس النبرة التي يبدو في نظري أنها مصطنعة وكاذبة، فسآخذ اللوحة على الفـور وأذهب، أنا جئت إلى هنا لأتحدث معك بصدق وإخلاص سـيدتي، اعذريني، ما زلت لا أعرف اسـمك، أناديك السـيدة فرنكيس، أنت وعدتني أن تعطيني أي شيء أريده.

- ماذا تريد؟

- أنتِ يجب أن تعطيني ما لم تعطيه لأي شخص.

- بمعنى؟

- إذا أردت التوضيح فسـأضطر لقـول مقدمة حتى تفهمي قصدي جيداً: إذا كنت أطلـب منك الصدق والإخلاص، فيجب أن أكون صادقاً ومخلصاً معك، لا تعتقدي أنني تعرّفت إليك هذه

الليلة، منذ عشـــر ســـنوات وأنا أشاهد كل يوم هذه اللوحة، التي هي الآن في غرفتك، ولذلك، فأنا أعرفك منذ عشر سنوات.

توقفتُ للحظات، وانتظرت أن تقاطع كلامي، حتى أتحكم أنا فيها وأقول: اتفقنا أن نتحدث بصدق. لم تنبس فرنكيس ببنت شـــفة، واضح أنها باتت طيعة في يدي، لم تنكر، طأطأت رأسها إلى أســـفل، شـــبّكت أصابع يديها، وجلســـت مثل تمثال من دون حركة. كان الفســـتان الأخضر مواتياً لها، وضفائر شعرها الملقاة علـــى كتفيها متموجة، وحـــده وجهها المدوّر كان بادياً، أســـندت جســـدها بهدوء متكئة علـــى خلفية المقعد الوثيـــر، وقد حدقت بعينيهـــا إلى غطاء طاولة من الجوخ أســـود اللون مزين بالورود، جهدتُ في أن ألقي نظرة خارقة إلى عينيها، لكنها لم تنظر إليّ، باتت مثل فرخ أسير بين يدي. قلت:

– ما اسمك سيدتي؟

– لا تســـأل، ليس لاســـمي أي تأثير على غرضـــك، أنا ذلك الشخص الذي تبحث عنه.

– أعلم هذا، جميل جداً، فليكن اسمك الحقيقي بالنسبة إليّ المرأة المجهولة، هل ترغبين في أن نتحاور معاً بصدق وإخلاص؟

– ماذا تريد مني؟

بدت نبرة صوتها مؤثرة، أضرمت النار في قلبي، خجلتُ لأني عاملتها بمثل هذه الشدة. فرنكيس هي كسائر الناس الأنانيين، تثير شـــفقة الإنســـان عنما تتعرض للذل، فهؤلاء يستطيعون أن يبدوا كباراً فقط عندما يكونون في أوج سيطرتهم، وحين تصيبهم صدمة واحدة يخرون أذلاء مساكين.

لم أدلِ بجواب، لكنها طرحت هذا السؤال:

- سيدي الوكيل، هل جئت هنا لتعذبني؟

- لا، بل على العكس، جئت لأخلص نفسي وأخلصك من الكابوس الذي كان يؤرقنا، لكن غرضي الرئيس ليس هذا، أنت و«آقا رجب» كنتما الوحيدين اللذين تعرفان الأستاذ، توفي «آقا رجب» ولم يفصح عن شيء، ربما بسبب إرهابهم له، ربما لم يكن يفهم، أو كان يتظاهر بعدم الفهم، لكنك تعرفينه، أنت تعرفين أسراراً عن حياته، ونشرها للأجيال الحالية والقادمة ضروري، يمكنك أن تعتبريني مرائياً أو نصّاباً، ولك الحق في ذلك، لأن اكتشاف لغز حياة الأستاذ، بالنسبة لي، فيه طابع من الأنانية أيضاً، أنا أوقفت حياتي، عن قصد أو غير قصد، على الأستاذ، ويجب أن أفكّ لغز حياته.

- أتريد أن تكتب عن حياة الأستاذ؟

- ربما، إذا كان يصب في المنفعة العامة، وإذا كان من الممكن أن تكون حياته مصدر إلهام للناس، ربما أكتب.

- إذن، لو قلت ما أعلمه فهل ستعلن عن ذلك في كتابك؟

- أنا لن أكتب عن حياتك، إنّ تعرُّفَ الناس إلى حياة الأستاذ فيه منفعة.

- أنت أردت أن تكون صادقاً ومخلصاً معي، فهل كذبت عليّ حتى الآن؟

- نعم، كل ما قلته لك في قاعة المتحف عن بيع آثار الأستاذ «ماكان» كان محض أكاذيب، منذ وجودي في هذه المدرسة لم تخرج منها ولا قطعة ورق واحدة لامسها قلم الأستاذ، لكن الأمر لن يبقى هكذا على الدوام، لا يتوقف الأمر عند عدم سرقة أعمال الأستاذ، بل إنني قمت، قدر الإمكان، بجمع العديد من

اللوحات والرسـوم التي باعها أو وهبها بنفسـه لهذا وذاك في حياته، اشـتريت على الأقل مئة عمل من أعماله لمصلحة الدولة، وأعدتها إلى المتحف، ومع ذلك، فأنا أحضرت، الليلة، هذه اللوحة إلى بيتك، ومسـتعد أن أتركها هنـا وأنصرف. إذن لا يمكنك أن ترضيني بالمال، عشـر سنوات وأنا أنتظرك، أنت صاحبة هاتين العينين..

صعقت المرأة المجهولة ووضعت كلتا يديها على حافتي المقعد الوثير، عدلت جسدها الطيع والمرن، ثم قالت:

- لا، ليس كذلك، هاتان ليستا عينيّ.

- لكنّ هذه الشفاه وهذا الفم والجبين والشعر والوجنتين، من المؤكد أنها لك.

- ربما.

- ربما، إذن فكيف هاتان العينان ليستا لك؟

- سيدي الوكيل..

أصبحت نبرة صوتها أكثر ليونة ورجاء، أشفق قلبي مرة ثانية، كنت قاسياً جداً..

- سـيدي الوكيل، لا يمكن الجـواب بكلمة واحدة، لعل الحق معـك. ربما يكون من الأفضل لـي أن أحكي، ولو لمرة واحدة في الحياة، ما كابدتُـه، وأروي لك ما لم أفصح عنه لأحد، على حد تعبيـرك، وأتخلص من هـذا الظل الذي يتبعنـي في كل مكان، ألا ترغب في شرب كأس من الكونياك؟

أومأت برأسي.

- على أيـة حال، حوارنا الليلة سـيطول كثيراً، هل تسـمح أن آمر بإعداد عشـاء لك أيضاً، وسـأطلب لنفسـي كأسـاً من

الكونياك، أعصابي مشـــتتة، أنا مضطربة وخائفة منذ أن أتيت إليك في الساعة الرابعة والنصف إلى الآن. وليست هذه حالتي لليلـــة فقط، لقد مر شـــهر على قدومي إلى طهـــران، ومنذ أيام وأنا أشـــعر بقلق من جراء اعتزامي مشاهدة هذه اللوحات، كلما حانت الذكرى الســـنوية لوفاته تنتابني هذه الحالة، فأذهب إلى المناطق البعيدة على وجه الخصوص، حيث لا تكون اللوحات في متناولي، لكن هذه السنة لم أتحمل..

نهضتْ من مكانها، وكانت متجهة صوب الباب، فقلت لها:

- جميـــل جداً، إلـــى أن تأمري بإعداد العشـــاء، أكون أنا قد فتحت اللوحة.

- لا، تريث.

رجعتْ نحوي، ووضعت يدها على حافة الكرســـي الذي كنتُ جالساً عليه، وقالت:

- تريث، فأنا لست مستعدة الآن.

فتحتْ الباب وخرجتْ، طفقـــتُ أتفرج على أثاث الغرفة، في أقصـــى الغرفة، كانت توجد منضدة صغيـــرة للكتابة، وقد رتّبت فوقهـــا عدة كتب وبعض الورق، يضيئها مصباح مثبت على عمود طويـــل، ذو زجاج أخضر اللون، وعلى الجهة اليمنى، هناك مكتبة صغيرة مملوءة كتباً باللغة الفرنســـية، وتُرى على الطاولة صورة للأستاذ موضوعة في إطار خشبي منقوش.

ســـتائر الغرفة ذات لـــون أزرق داكن، وفوق خزانة ذات أبواب زجاجية غامقة صُفت بعض التماثيل القديمة، ومنظر «جماران» يزيد الغرفة بهاء، واكتملت تجهيزات الحجرة بكرســـيين وثيرين آخرين وأريكة كبيرة.

انتصبتُ واقفاً وذهبت باتجاه الجدار، لأتفرج على لوحة الأستاذ، في هذه الأثناء، فتحت المرأة المجهولة الباب ودخلت خلفها الخادمة وهي تحمل صينية وكأسين، وضعت ما في يدها على الطاولة وانصرفت، أخرجت المرأة المجهولة من الخزانة زجاجة كونياك ووضعتها على الطاولة وجلست، احتست قعر كأس من الكونياك، ثم فكرت قليلاً، وقالت:

- اسمح لي أولاً أن أحكي لك كيف تعرفت إليه، ثم بعد ذلك اسأل ما بدا لك.

- ليس لدي سؤال أوجهه لك، كنت أود أن تتحدثي عنه أكثر.

- لا أريد أن أحكي لك شيئاً عن حياتي، ليس في حياتي شيء جديد مختلف عن حياة سائر الناس. شيء آخر، ما علاقتك أنت بي وبمصير أمثالي؟ أما الأستاذ فقد كان أسمى بكثير من كل المحيطين به.

لا أتذكر بالتدقيق في أية سنة تعرفت إليه، لكن أذكر جيداً أن عمري لم يكن يتجاوز تسع عشرة أو عشرين سنة، كنت فتاة جريئة، أنا نفسي أقول جريئة، لكن الفتيات في سني وشاكلتي كُنّ يُعتبرن وقحات. كنت أستطيع أن أُعرِّف نفسي لشخص لم أره ولم أعرفه أبداً، وأتحدث معه لساعات في مواضيع لا تعجبه أساساً، وفي قضايا ليس لدي اطلاع عليها، ولأني كنت جميلة، لم تكن جسارتي هذه تثير الاشمئزاز، كان الشباب يعجبون دائماً بجرأتي هذه ويزيدونني حماسة، لم أكن في المدرسة بنتاً بلهاء، ولكن موهبتي تجلت بشكل يفوق ما هي عليه في الواقع، أنا الابنة الوحيدة لوالدي، وتربيت على الدلال، وأمي هي الزوجة الثانية لأبي، وليس لها أدنى دخل في تسيير البيت،

بل جميع الأعمال تتم وفق رغبة أبي، وأمي تكتفي فقط بالتذمر ثم تستسلم بعد ذلك.

منذ طفولتي كنت أحب الرسم، أحياناً أرسم مناظر طبيعية بالألوان المائية، كان أبي ميسور الحال، لذلك رفلت بحياة مرفهة ومريحة مادياً، لم أشعر أبداً في حياتي بالفقر والحاجة، والدي الذي ربّاني على الدلال كان يعتقد أنني موهوبة للغاية، فكان يقول لي: أنت فنانة، وإذا عملت بجد فسوف تصبحين يوماً أكبر فنانة تشكيلية في إيران، في أغلب الأوقات، حينما كان والدي يلتقي بأصدقائه، ولا ينشغل بلعب الورق أو بالحديث في السياسة والأوضاع الجارية في البلاد، كان - إرضاء لأنانيته - يريهم أعمالي ويفيض في مدحي وثنائي.

لو لم أكن جميلة، ولو أنني أخذت الأمور بجدية، لربما أصبحت إنسانة مهمة، لكن لأني كنت سطحية ومزاجية، وكان والدي برغبته وإرادته يزيح عن طريقي كل الموانع، أحسست، منذ سن السادسة عشرة، أنني أستطيع أن أظهر من خلال وجهي وجرأتي أكثر من ظهوري من خلال استخدامي للفنون الأخرى التي أتوفر عليها، أو التي أستطيع أن أكتسبها، ونتيجة لذلك، لم أكن آخذ أي أمر بجدية، كنت أختار دائماً الطريق الأسهل.

في تلك الأيام، تحدث لي والدي عنه؛ عن الأستاذ «ماكان»، حينها كان قد مضى على تخرجي في دار المعلمات سنتان، وقد ضقت ذرعاً بالفراغ، قال لي والدي إن «ماكان» تعلّم الرسم في الخارج، وقضى بعض الوقت في إيطاليا، وأهل الفن يكنون له الاحترام، يشترون لوحاته، ويلاقي شهرة وسمعة جيدة بين الرجال. ومن جملة ما قاله أنه يعطي دروساً خصوصية، وطلب

منـــي أن أذهب أنا أيضاً عنده وأتعلم الرســـم. أمي المرأة المؤمنة الملتزمة كانت تعتبر أن الرسم حرام، ولم تكن موافقة على اقتراح أبي، وظل والداي مدة شـــهرين أو ثلاثة يتجادلان حول مصيري، وما الذي يجب أن أفعله. كانت أمي تريد تزويجي، لكن أبي الذي ذاق طعـــم الـــزواج، رغب من أعماق قلبه بأن أختار أنا بنفســـي الزوج الذي يوافق طبعي، وفي بعض الأحيان، كانت الأمور تؤدي إلى خلافات بينهما.

فـــي يوم من الأيـــام أخذت أعمالي التشـــكيلية التي تبدو لي جميلة للغاية، ودون أن أخبر أحداً، ذهبت إلى مرسمه.

لســـت أدري، أنا لم أستطع أبداً أن أحلل نفسيتي، لم أستطع أبـــداً، وهذا لا يعني أننـــي لم أفكر، لا، بل لم أســـتطع أن أفهم الأســـباب التي دفعتني إلى أن أرتكب أفعالاً ذميمة، لا تليق بفتاة من طبقتي، لكني لم أنتبه أبداً إلى قبحها، لســـت أعلم ما الذي دفعني، ولأي ســـبب، بحيث إنني منذ المرة الأولى التي رأيته في مرســـمه، أدركـــت على أي حال أنني أقابل شـــخصاً يختلف عن أولئك الذيـــن تعاملت معهم، تصرّف معـــي بطريقة عجيبة، في الوقـــت الذي كان فيه الآخـــرون يتأثرون بضحكي وانشـــراحي وبشاشـــتي، كان هو غيـــر آبه لضحكاتي، تلـــك الضحكات التي كانت نابضة من صميم الفؤاد، ومن عيني وفمي وخدي وشفتيّ، وكانت تدل على شـــبابي وحيويتي، بل إنني أحسســـت بأنه حتى لا يعيرني أي اهتمام.

لم يكن في الأســـاس إنساناً مغروراً وأنانياً، لكن يلزمه الكثير من الوقت حتى يســـتأنس بأحد، كانـــت هالة باردة تغطي وجهه علـــى الـــدوام، ولا يُطلِعُ أحـــداً على ما في داخلـــه إلا بعد طول

مدة، وعلى عكس الآخرين، استقبلني ببرود كبير، لكن بروده وجموده ليس بالشيء الذي يقلقني، كأني لست فاتنة بالنسبة إليه، لم يسئ التعامل معي، ولم يهنِّي، ليته فعل، على الأقل، كنت سأزيل ذلك القناع الكاذب الذي أضعه على وجهي في مثل هذه الحالات، وكان هو سيضطر إلى أن يكشف عن باطنه الغامض، لكن تصرفه هذا، العاقل والمهذب وغير المبالي، آذاني وأوجعني، حينما أردت أن أريه ما كنت قد رسمت، ذهب وجلس على منضدة صغيرة، كما لو أراد أن يضفي جانباً رسمياً على مشاهدة أعمالي، حتى لا يكون لإبداء رأيه طابع شخصي أو حميمي، أخذ بيده اليسرى بعض أوراق الرسم، وكان يأخذ بيده اليمنى الورقة التي يشاهدها ويضعها تحت الأخرى، ويشاهد الورقة الثانية، كل هذه المشاهدة ربما استغرقت دقيقة واحدة، كنت أتوقع منه أن يشجعني، لم أتوقع أن يقول لي، مثل الآخرين، إنني أنجزت رائعة من الروائع، لكن أريد أن يقول على الأقل: «جيد، ليس سيئاً، أين تعلمت؟ أنت مبتدئة ويجب أن تتعلمي»، عوضاً عن ذلك، ناولني الأوراق ببرود، وقال:

– ستتحسنين إن شاء الله.

أحد أعمالي هاته كان عبارة عن صورة للخادمة التي تعمل في بيتنا، كبرت هذه البنت في بيتنا، وتزوجت في سن السادسة عشرة، وبعد عام واحد فقط، تركها زوجها مع طفل واختفى، وقد رسمت هذه المرأة مع طفلها بالألوان المائية.

لقد تصورت أنني عكست في الصورة تلك المعاناة التي تحمّلتها هذه المرأة، في طريقة حملها للطفل، وفي حالة عينيها وفمها المفتوح. كان الآخرون، حينما يرون هذه الرسومات، يغدقون عليّ

بالإطــراء والثناء، في الوقت الذي لم يكتف فقط بعدم قول كلمة تشــجيع واحدة، بل إنه لم يهتم ولم يدقــق النظر فيها أكثر من الرسومات الأخرى التي كانت في أغلبها مناظر طبيعية.

كم كان هذا الرجل مقتصداً في الكلام بشــكل عجيب، يعطي قيمة لكل كلمة يريد النطق بها، حين أعاد إلي أوراقي، جلســت لهنيهــة، ربما متأملة أن يعطيني بعض الإرشــادات، لكنه لم يقل شــيئاً، كأنه يريد إفهامي: حســنٌ، لا تضيعــي وقتي إذا لم يكن لديك طلب آخر.

لم أكن قد رأيت في عمري مثل هذا الرجل أبداً، على الأقل، بإمكانه أن يقول لو تريدين تعلم الرسم تعالي واشتغلي لمدة حتى أرى ما يحدث بعد ذلك، فلقد أخبرته حينما دخلت إلى مرســمه بأنني جئت لأتعلم الرســم، سمعت أنه يعطي دروساً خصوصية، لــم تكن لهــذا الرجل رغبة فــي التدريس، في الأســاس، هذه المدرسة، التي أنت اليوم تشرف عليها، تأسست فيما بعد بفضل تعليــم التلاميذ في الدروس الخصوصيــة، لا أدري لماذا كرهني هذا الرجل، وإلا فليس هناك سبب في التشدد معي.

كنــت أنتظر أن يريني أعماله، أن يســرف معي في الحديث، كمــا الآخــرون، أن يتجاوب مع ضحكاتي، وحتــى أن يصرّ على أن أستشــيره ثانية، أو على الأقل، يقــول كلمة واحدة، أن يقول: رسمك هذا مشكلته كذا، وليس العكس. كلما كنت أطيل الجلوس، كان يتعامــل معي ببرود أكثر، وفي النهاية تجمدت الضحكة على شفتيّ.

تعامله الأول كان في نظري مهيناً، كأني به يريد، غير قاصد، أن يهينني، ما الذي سبب له النفور مني؟

حينما عرّفته بنفسي، وذكرت له اسم والدي، سألني:

- عجباً، أنت بنت «أمير هزار كوهي المازندراني»، وترسمين أيضاً!!

نبرته الساخرة هاته أغضبتني.

لا أعلم كيف يفكر، فيما بعد استعدت هذه الحادثة في ذهني آلاف المرات، لقد فكر بالتأكيد أن هذه الفتاة اللعوب جاءت لتتدلل وتتبختر، وتذهب فيما بعد لتشيع في كل مكان أنها تعرّفت إلى فلان، الرسام الشهير والمحترم من قبل الرجال المثقفين. لا، لم يمنحني أية فرصة.

قمت فسلّمت، توقفت لثانية، لكنه لم يُظهر أنه يريد مصافحتي، نهض من الكرسي قليلاً ولم يقف، ثم ذهبت.

داهمني غضب شديد، لم يكن قد تعامل معي أي رجل حتى ذلك اليوم بمثل تلك الطريقة، لا أدري لماذا، على كل لم أفهم يومئذ، أضمرت في نفسي عداوة لهذا الرجل الجاف عديم التربية، لقد أثار غضبي.

أرجوك أن تنتبه، كان لسلوك هذا الرجل تأثير في حياتي، ولو أنه تعامل معي بحنان أكثر لربما كنت تمكنت من تنمية ميولي الفنية.

حين خرجت من بيته، كدت أطلق العنان لدموعي، وكانت أرنبة أنفي ترتجف، كنت مشمئزة من كل شيء، وأفكر طوال الوقت بسبب تعامله هكذا معي! لم أتوصل إلى أية نتيجة.

مهما أردت أن أشرح لك عواطفي خلال ذلك اليوم، وألا أقحم تجاربي التالية فيها، فلن أستطيع، ومع ذلك، ما أدركه اليوم يختلط تقريباً بتلك العواطف، إذ لا يمكن فصل مراحل

الحياة عن بعضها، لو أنني ما كنت رأيت الأستاذ ثانية ولم يبق لذكرياته التي نُقشت في صحيفة قلبي أي وجود، حينها لم تكن هذه الحادثة بما لها من أهمية، لتترك طابعها في قلبي وروحي، لكن يومها فكرت ولم أهتد إلى شيء، لم أتمكن من تحليل دواعي تصرفي وسلوكه، أما الآن، وأنا أسرد حوادث عشرين سنة ماضية تقريباً، فكأنني أستتبط أنه خطر بقلبي في ذلك اليوم أن هذا الرجل الجامد عديم العاطفة لا يمكن ألا يعني شيئاً. على كل حال، فإن الصورة، التي نُقشت في قلبي عنه، صورة رجل عنيف وفض وأناني، لا يملك أخلاقاً رفيعة، ولم يكن يعبد في هذه الدنيا إلا نفسه.

آه، ليت الأمر كان كذلك، لقد بقي تأثير هذا اللقاء في حياتي على الدوام، أعلم أنك تحكم عليّ من خلال العينين اللتين تنظران إليك في هذه اللوحة، لقد رسمْتَ لي في مخيلتك صورة غير لائقة، لك الحق في ذلك. أتعلم أين تكمن تعاستي؟ تعاستي هي أنني أحياناً أعتبر نفسي أيضاً امرأة خبيثة، أعتبر نفسي مذنبة، وأحمّل نفسي مسؤولية موت الأستاذ، في الوقت الذي فيه أنا اليوم تعيسة، وامرأة من دون صديق ولا معين، امرأة وحيدة وحائرة، امرأة بلا زوج ولا أخ وبلا أحد، والأسوأ من ذلك امرأة بلا صديق ولا رفيق، آه، أنا لا أريد أن أكدّر وألوث ذكرى أستاذك الشفافة التي تحتفظ بها، لا، لو كان هنالك رجل في الدنيا جدير بالثناء والاحترام، فإنه هو.

كان أستاذك كل شيء بالنسبة لي، وأنا لا أرضى أبداً أن تتلطخ ذكراه في مرآة خيالي، لكن لأجله هو فقط فقدت كل ما لدي، لم أستطع أن يكون لي زوج، أن أربي ولداً، لماذا تزوجت؟

لأجلــه فقط، لمــاذا طلقت؟ لأجله فقط، لمــاذا ليس لدي صديق ورفيق؟ لأجله فقط. سيدي الوكيل، أتعلم أن هذه أول مرة أحكي فيها عن ماضيّ المشــؤوم، أتعلم ماذا يعنــي أن تتكدس كل هذه التعاسة في قلب أحد، وألا تجد متنفساً؟

إذا كنت في هذه الليلة أقول شيئاً لأول وآخر مرة، فهذا فقط لأجل أن أعرّفك بنفسي وأعرّفك به، تحلَّ بالصبر! ما لم تعرفني فلــن تعرفه، ألم أقل لك؟ ربمــا كنت أنا وراء قتله، ربما خُدعت، ربما لم يكونوا يرغبون في قتله، ربما كانوا ســينفونه فقط، ولو كنــتُ ذهبتُ رفقته، ربمــا كان الآن حياً يــرزق، و.. ربما.. ألف ربما..

الحقيقة أني أريد أن أقول لك شيئاً، شيئاً أفهمه جيداً وأدركه، لكن ليس لديّ القدرة والاســتعداد لأن أعطي له شــكلاً وأقدمه بصــورة قابلــة للفهم، لم أفهم أبداً ماذا أريــد في الحياة، كانت القوى المتضادة تجرني دائماً من جهة إلى أخرى، وأنا لم أستطع أن أمنــح قلبي وروحي لطرف، وأبعد عني طرفاً آخر، تعاســتي تكمن هنــا، كنت دوماً مترددة، دائماً أخطــو برجل نحو الهاوية وبرجل أخرى نحو القمة، وفي النتيجة كان وجودي معلقاً.

الآن، وأنا أستحضر ذلك اليوم، وذكرى ذلك اليوم، حينما كنت خارجة من مرســمه في شارع (لاله زار)، مازلت مترددة فيما إذا كان ما أعتقده اليوم كنت على علم به في ذلك اليوم أيضاً! فيما بعــد كنت أفكر دوماً لو أنه في ذلك اليوم كان لطيفاً معي قليلاً، فقــط بمقدار ما يكون ممكناً لأي رجل عــادي، ربما - أتعرف؟ - كنت ســلكت طريقاً آخر في حياتي. انظرْ.. قلتُ إني لا أملك أي شــيء في الحياة، لكن في نظر الناس لا أحد في الدنيا أكثر

سـعادة مني، أنا امرأة ثرية، أملك كل شيء، أسافر على الدوام، قضيت أكثر عمري في السفر والسياحة، آتي إلى إيران أحياناً من أجل ترتيب أموري المالية فقط. غنية، المال، آآآه، يا لتعاستي بهذا المال! حائرة ومتشردة، لا قرار لي في أي مكان، لدي الأب والأم، لقد اختارا جوار كربلاء، ومضى وقت لم أعد أكاتبهما، تكتب أمي أنَّ عليَّ أن أذهب عندهما لإعلان توبتي، آه، ما أسعد هذه الحمامة العجوز! لا قرار لي في أي مكان، ليس لدي وكر أعلق قلبي به.

متع الدنيا كلها هي عذاب بالنسبة لي، ليتني مثل أمي، ولدتُ بلهاء، وجاورت كربلاء وأنا بلهاء، ليتني كنت متسوّلة، ويحبني كائن، حينها كنت سأفديه بروحي.

لماذا تنظر إليّ هكذا؟ نعم، أنا فديت الأستاذ بجسدي مرة واحدة.

الحق معك، الأمر مضحك! أنا نفسي يغلبني الضحك أحياناً، أحس بهذا، لكني لا أؤمن بإحساسي أيضاً، أخاف أن تكون أحاسيسي وعواطفي كاذبة حتى تجاه نفسي،

كل النساء في هذه المدينة يغبطنني، الرجال في يدي كالشمع، أستطيع أن أخدعهم بكلمتين معسولتين، وأستطيع أن أفعل ما شئت معهم، يدورون من حولي مثل قطيع الذباب، لكنك تتخيل أن هذه هي السعادة، ليس لدي أحد أبوح له ما يعتصر بقلبي.

لا تربطني علاقة عميقة بأحد، الكل مولع ومتيّم بجمالي، ما زالوا، إلى الآن، يسقطون في حبال غرامي، لكني لست صديقة لأحد، الحذر الحذر من النساء! إنهن يحتقرنني جميعهن، منزعجات مني من أعماق قلوبهن، ويتصورن كلهن أنني أستطيع

أن أخطف من أحضانهن بابتســامة واحدة رفقاءهن وخاطبيهن وأزواجهن ومن يشاركونهن معاصيهن، ولكن هذا ليس صحيحاً، هذا ليس صحيحاً ســيدي الوكيل، الآن أنت تدرك مدى معاناتي فــي الحياة، ولهذا الســبب، أنا منزعجة من هــذه اللوحة التي أحضرتها إلى هنا، لأنه هو الآخر عرفني على هذه الشاكلة..

أنا أدور في حلقة، ولا أســتطيع أن أبيّن الأمور في تسلســل أحداثها، يجب أن تتحلى معي ببعض الصبر، اسمح لي أن أفشي لك قليلاً ما في قلبي.

* * *

سكَبَت لنفسها كأســاً من الكونياك، كان هذا الكأس الثاني، وســكبت لي كأساً أيضاً، احتست قليلاً من كأسها ووضعته على الطاولة، بعد ذلك استغرقت في التفكير.

* * *

- ماذا كنت أقول؟

- لا أدري ماذا كنت تريدين قوله، لكني أود أن تكملي حديثك بنفس الطريقة التي تتحدثين بها، هكذا تظهرين لي أكثر وضوحاً، كنت تريدين أن تشــرحي أي إحساس انتابك حينما خرجت من مرسمه.

- نعــم، نعم، هــو ذاك، أتصدّق أنني فيمــا بعد، وبخاصة عندمــا غادرت طهــران، فكرت على الأقل ألــف مرة في تلك الدقائق المعدودة التي قضيتها عائدة من (لاله زار) إلى البيت؟ انظر، في النهاية أنا لم أكن أعرفه، لم يكن لي أي علم بأخلاقه وطباعه الخاصة، الشيء الوحيد الذي فهمته هو أنه لا تعجبه أعمالــي، هو لم يكن فــي أي وقت يمدح ويمجّــد كثيراً عمل

أي أحد، مهما كان، حتى روائعه يقيّمها ببرودة وفظاظة، لم يكن أبداً متعوداً على إبراز تعلقه بشـــيء، ولو أن ذاك الشـــيء ينال إعجابه كثيراً، أنا أعرف هذا، أنا فسّـــرت تعامله معي بشـــكل آخـــر، لا أتذكّر، أعتقد أنني قلت لنفســـي: مـــن الواضح أنني لا أســـتحق شـــيئاً، هذا ما أردت أن أقوله، كان لتصرفاته في حياتي تأثير حاســـم. في الطريق، استغرقت مدة في التفكير، أحياناً يبحث الإنســـان عن شـــيء دونما قصد، وحين لا يجده يشعر بالضياع.

حين عدت إلى البيت، وجدت شـــاباً، كان يومها يتســـبب في مضايقتي، جالســـاً في غرفة الجلوس، كان شـــاباً حسن البنية، متوسط القامة، حصل على الدكتوراه حديثاً، يرخي شاربه حتى يبدو أكبر ســـنّاً، يتعقبني بالسيارة، وكنت أُعجَب به أحياناً، لكنه كان يبالغ في إظهار نفسه عاشقاً، وهذا ما كان ينفرني منه. ربما لو أنه لم يعاملني ذلك اليوم بتلك الصورة، لكنت أعيش اليوم مع هذا الشـــاب، كنت سأصبح سعيدة أو غير سعيدة، لكن في نهاية المطاف كنت سأملك حياة كسائر الناس، هل تفهم ما أريد قوله؟ تعامله معي في مرسمه كان له تأثير حاسم في حياتي.

ماذا كنت أقول؟

كان الشـــاب قد جلس فـــي الغرفة، وحينمـــا دخلت وجّه لي ســـؤالاً بنبرة بدت لي ثقيلة جداً: لمـــاذا أخّرتني؟ ألم يكن مقرراً أن نذهب هـــذه الليلة إلى مكان ما؟ أجبته بغضب شـــديد حتى انصرف المسكين، ولم أره بعدها في حياتي قط، في الوقت الذي كنا حقاً تواعدنا أن نذهب إلى حفلة أقيمت بمناسبة عيد ميلاد أحد أصدقائنا المشتركين.

والدتي التي علمت عن طريق «فضة سلطان» كيف تصرفت معه، بقيت لأيام تتغّص عليّ: هل يتعامل الناس مع رجل غريب هكذا؟ هل يغضبون أحداً منهم دونما سبب؟ لقد رفست حظك.

سمعت أن الشاب المسكين قال لشخص ما: لا يعرف المرء كيف يجب أن يتعامل مع هذه الفتاة، أحياناً يود لو شقّ بطنها بسكين.

بقيت متخاصمة مع نفسي شهراً كاملاً، ونسيت اللقاء به، لكن كما قلت، كنت أفتقد شيئاً ما، كان عملي في السابق منحصراً في شراء الألوان والريشة وقماشة الرسم والورق وقلم الرصاص وحمالة قماشة الرسم، وكنت أستورد الأشياء الثمينة والجيدة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، لكن خلال هذا الشهر صرت على وشك نسيان الرسم.

في ليلة من الليالي، قبل تناوله العشاء سألني والدي: ألا تريدين أن تذهبي يوماً عند «ماكان» الرسام؟

كان والدي يحتسي قبل العشاء دائماً بضعة كؤوس من الخمر، وينشط بعد كأسه الأولى، وكانت هذه أفضل الأوقات التي يمكن الحديث فيها معه، حيث يسكر بدءاً من الكأس الرابعة.

قلت له:

- ذهبت يا أبي.

- حسن، ماذا حصل؟

- هو نفسه لا يعرف شيئاً يا أبي.

- ماذا تقولين يا فتاة؟ السيد «صارم الممالك» كان يثني على أعماله كثيراً، وهو خبير، ألم تري ما أجمل اللوحات التي يملكها في بيته!

- يا أبي اسألني أنا، إنه لا يعرف شيئاً، هو لم ينظر إلى

أعمالي أبداً، لم يفهم، ولم أر شيئاً له في ورشته، يا له من إنسان متكبر ومتعال!

لم يضف والدي كلمة واحدة، كان حين يتفرغ للشراب لا يحب التحدث مع أحد، ويتناول صفحة جريدة من يدي أو يد أمي وينظر إليها، لكنني لم أسمح بذلك.

- أبي..

رفعت أمي رأسها ونظرت إليّ، هي كانت تعلم جيداً أنني حينما أبدأ الكلام بهذه النبرة، فإن لي طلباً بالتأكيد، وتعلم أيضاً أن أبي ما كان يتوانى في تلبية أي طلب لي، وبخاصة حينما كنت أتغنج عنده.

سأل أبي:

- ماذا؟

- أرسلني إلى الخارج لأتعلّم، هنا لا وجود لأحد يمكن أن أعمل عنده.

قام والدي بتضييق عينيه الصغيرتين أصلاً، وألقى بنظرة لي من تحت النظارات، لكنه لم يقل شيئاً.

بينما قالت والدتي، وهي جالسة في الناحية الأخرى من الكرسي (*) تدخّن الشيشة:

- كفى، كفى، من أين تعلمت هذا؟ ما فائدة الخارج! ألم يكن هذا قولك، وأي تحفة ذاك الذي يعود من الخارج حتى تصيري أنت كذلك، ما للفتاة والذهاب إلى الخارج؟

(*) الكرسي يستخدم لتدفئة الغرفة، وهو عبارة عن مصطبة توضع فوق منقلة أو موقد يحفر وسط الحجرة لعمل نار للتدفئة، وينام حولها أفراد الأسرة بإدخال أجسامهم تحتها حتى الكتفين وتغطية أجسامهم بنفس الأغطية التي تغطي الكرسي (المراجعة).

رفع والدي رأسه عن الجريدة وقال:

- لو كانت ولداً، لما كان أي عيب في ذلك؟

- أيها السيد، لماذا تسمع كل ما تقوله هي؟ من الذي أرسل ابنته وحيدة إلى الخارج؟

- لماذا تكون وحيدة؟ أليس عقيدنا المسؤول عن الطلبة العسكريين موجوداً في باريس؟

سألته:

- أي عقيد؟

أجاب أبي:

- العقيد آرام.

قالت أمي:

- ابن السيدة «خاور»، حفيد عم والدك.

تساءلتُ:

- ألم أره؟

- بلى، هو هناك منذ أربع أو خمس سنوات، ربما لا تتذكّرين.

لم يضف والدي كلمة، أزال النظارات من عينيه، وغمزني، وقال:

- سأفكر في الأمر.

لم أترك الموضوع أبداً، وخلال غياب أمي ألححت على أبي حتّى خضع لي، وذهبت أخيراً إلى الغرب.

ما أكثر الأشياء التي لدي لأحكيها لك، لست أدري إن كان قولها ضرورياً أم لا، لكن، كما قلت، إنه من الأفضل لي لو أحكيها كلها.

- احكي، كل هذا مفيد لي، إن كنتُ تعلقت في البداية بهذه اللوحة، فلأنني كنت أريد أن أعرف ماذا عانى الأستاذ في

السنوات الأخيرة من عمره، لكن الآن، تعلقت أيضاً بحياتك أنت، وأرى أن حياتكما تداخلتا ونسجتا خيوطهما بعضهما في بعض، ما لم يعرفك أحدٌ فلن يعرف الأستاذ.

- المشكلة تكمن هنا، وهو الخطأ الذي أرتكبه أنا أيضاً، أنا لم يعرفني أحد، وأنا نفسي لم أعرف نفسي، وأستاذك أخطأ أيضاً.

- عفواً سيدتي، لكن كل الناس غير الملتزمين بالمبادئ في الحياة، يقفزون من غصن إلى غصن، وهكذا يفكرون.

- سيدي الوكيل، أرجوك، لا تحدثني بحديث طلاب المدارس، أناس قبلك أيضاً كانوا يتبجحون عليّ بمثل هذه المبادئ.

- ليس هناك أي سبب لتكوني غامضة بهذا القدر.

- لا تسخر مني، سوف ترى أن الأمر ليس كذلك، وهنا تكمن تعاستي.

قالت هذه الجملة بنبرة حزينة، جعلتني آسف وأندم على الأذى الذي ألحقته بها.

- أتدري لمَ أحكي لك كل شيء؟ لأنك أنت الشخص الثالث، بعده في ذلك اللقاء بمرسمه، الذي حينما تنظر إليّ أحس أنك لا تحدّق فيّ طمعاً ولا تريد جسدي.

- الشخص الأول هو الأستاذ، والثالث أنا، ومن يكون الثاني؟

- الشخص الثاني هو ذاك الشخص الذي عرّفني به الأستاذ، وهو الآخر لم يعد له وجود بالنسبة لي، لهذا السبب، فلست أخجل أبداً، وأريد أن أنقل لك كل شيء.

أطبقت عينيها، وأنا نظرت إلى جسدها نظرة متفحص؛ أنف طويل، شعر أسود متماوج، شفاه رقيقة ولطيفة وقليلة التزيين،

قوام مناسب وإن كان قصيراً شيئاً ما، سيقان موزونة، كل هذا كان جميلاً وفاتناً، لكنها كانت صادقة، هذه أول مرة أتفحص فيها امرأة جميلة، رأيت أمامي على الفور تلك الفتاة الشابة ذات التسع عشرة أو العشرين سنة، تتجول في شوارع باريس بمفردها، ولكي لا أسمح لأجوائها الحزينة بأن تسيطر عليّ، أجبرت نفسي على قول:

- تخيلي أنني لست هنا، تخيلي أنك تحكين لنفسك وحدك، وحتى لا تقولي أنا فعلت كذا وكذا، قولي: تلك الفتاة ذات العشرين ربيعاً، سمّيها فرنكيس، اسمك أنت ليس فرنكيس؟ قلت إن تلك الفتاة العشرينية ذهبت وحدها إلى ديار الغرب.

- لا، أنا لا أريد أن أروي قصة حياتي، ليس في حياتي شيء جديد، أنا لم أعش حياتي، حياتي هي مثل حياة كل الفتيات من طبقتي، جئن وذهبن، ومتن من دون أن يذقن طعم السعادة أو يدركن حقيقتها، ما الذي يمكن أن يكون مثيراً في حياتي بالنسبة لك؟ أضف إلى ذلك أن قصة حياتي لم تنته بعد، أنا فصلٌ في كتاب، حياتي ممتعة فقط بدرجة علاقتها بحياته، لو لم يكن هو لكنت لا شيء، آه، هو من أراني خيالاً من الحياة الواقعية للبشر، وأنا لشدة ضعفي أصبت بالعمى، ولم أستطع أن أتذوق لذة جمالها، أنا أريد أن أتكلم عن علاقتي به، اسمح لي بالتفكير قليلاً.

أعتقد في أواسط العام 1930، كنت في الخارج، ذهبت مباشرة، عن طريق روسيا وألمانيا، إلى باريس، جاء لاستقبالي في المحطة العقيد آرام، تسجّلت في باريس في Ecole des Beaux Arts (*)، وكنت أتصور أنني أدرس وأتعلم الرسم،

(*) مدرسة الفنون الجميلة، وستذكر من هنا فما بعد اختصارا بـ E. D. B. A (المراجعة).

ولأجـل الالتحاق بـ E. d. B. A كان يجب أن أجتـاز امتحانات القبول، لكن، في فرنسا، كل الأمور هينة على الأجانب، يستطيع الأجانب أن يتعلموا كل شـيء، حتى لو لم يخرجوا بشيء، فإنهم سـيحصلون على الدبلوم بأي شكل من الأشـكال، تعلمت اللغة الفرنسية خلال سنة أو سنتين، لكنه مر وقت أطول حتى أدركت في أي مستنقع علقت.

يبدو أن الحياة بالنسـبة لي كانت كلها نزوات ومتعة وتسلية، لكنني، في أعماقي، كنت دائماً أرى نفسـي تعيسـة، ولا أعرف كيف أتخلص من هذه المعمعة.

انظر، تصيب الإنسـان في الحياة مصائب عديدة، وهو نفسه المتسـبب فيها كلها، لكنه لا يدرك ذلك، أو حينما يدرك جذورها يكـون الأوان قد فات، حياتي أنا لم تكن هكـذا، إن تكرار أجمل المتع هو معاناة وعذاب، كانت تسـليتي وتسكعي إجباريين، لا أريد أن أبرئ نفسي، فإن الكل يريد أن يكون زوجاً لي، مؤقتاً أو دائماً، كل حسـب طريقته، بدءاً من ذلك العقيد آرام، الذي يكبرني سناً وكان مسؤولاً عني، وحتى ذلك الشاب الفرنسي المنفّر الذي أتقزز من شكله.

كل واحد يريد أن يكون زوجي المؤقت أو الدائم، أنا لم أرتكب أي ذنب حتى أجبر على تبرئة نفسـي أمام أي إنسان، أي إنسان ذي ضمير، لا، ليس غرضي تبرئة نفسـي، قصدي بهذه المقدمة أن تدرك أنت حينما عدت إلى إيران بأي أحاسيس وبأي طريقة للتفكيـر، واجهته، واجهت أسـتاذك «مـاكان» الصديق والرفيق ورَجُلي الذي أراده قلبي.

كل متعة تطول فهي معاناة ومصيبة، حينما أفكر جيداً أرى أن

جذور شقائي ترجع إلى حياة الرفاهية والراحة التي نعمت بها وترعرعت فيها منذ الطفولة.

جمالي كان بلائي، الجمال بالإضافة إلى الحياة الخالية من الأعباء، تعاونا على إيصالي إلى هذا المصير الأسود.

الشهرة والاعتزاز والاحترام، كل هذا جيد ونافع، لكن كل إنسان مشهور يود لو يتيه أحياناً بين عموم الناس، يختلط بهم، يذوق لذاتهم، ويشعر بمخاوفهم، حينها ستكون الرفاهية وراحة البال، بالنسبة له، أكثر لذة وإمتاعاً، لكن حينما يعرفه كل الناس ويشير إليه الجميع بالبنان، لا يبقى حراً، وقتها تصبح الشهرة مصدر متاعب للإنسان.

هكذا كان جمالي أيضاً، وفي E. d. B. A حينما كان يتحدث معي حتى بروفيسور عجوز، هو الآخر ينظر إلى عيني أكثر مما ينظر إلى عملي المتواضع، وكان ينسى في الأساس أنه يجب أن يدرسني، فقد كان يمدح عملي ويمجده عبثاً ودونما علم، وكان الطلبة يعادي بعضهم بعضاً بسببي.

كان كل واحد منهم يتبجح باطلاً على الآخر بتلطفي معه، كم تمنيّت أن أهنأ بالراحة في المدرسة، والعمل، وفي المكان الذي ينبض فيه قلبي شوقاً وطرباً، في ذلك الزمان، كان الفن التشكيلي، يشغل كل اهتمامي، فالحب والزواج والاعتزاز والاحترام بمثابة دخان داكن يصيب بالعمى مقابل شعلة حب الفن.

في أحد الأيام، لاحظت فجأة في مرسم المدرسة أن أكثر الطلبة منهمكون في رسم صورة لي، ومؤخراً، حينما كنت أذهب مع العقيد آرام إلى حفلات السمر في السفارات ووزارة الخارجية الفرنسية، كان الصحافيون يدرّون أموالاً من وراء صورتي، وقد

ألف كاتب فرنسـي مبتدِئ رواية عني، قصته طافحة بشرح حبه الذي كان ينميه في قلبه لفتاة هندية، كل العيون كانت ترقبني، في أي مكان أتوجه إليه، في المسرح والسينما وفي الحفلات الموسيقية والمنتزهات العمومية والمصايف، وفي المحاضرات. وأنا كنت أعاني الأمرّين من جراء هذا الأمر، الجميع يمتدحني، والأسوأ من ذلك، تصرفات أبناء وطني، أولئك الذين رفضتهم بشدة، كانوا في كل مكان يرمونني في الخفاء بأقدح الألفاظ، ووصل الأمر بأحدهم إلى أن يكتب رسالة لأبي ينقل فيها حكايات لا تصدق عني.

كان والدي يحبني كثيراً، ولذلك، كانت له ثقة كبيرة فيّ، وكان من الطبيعي ألا تترك هذه الرسائل أي تأثير في تعامله معي. حذار من ذلك الوقت الذي كنت أستأنس فيه لأحد بسبب سجية أحبها فيه، كان هو وأمثاله حينها يعبدونني، ومستعدين لقتل بعضهم بسببي، لكن صداقتهم كانت تعذبني.

كان بين هؤلاء شباب جيدون، أصادقهم، أحبهم كإخوة لي، مستعدة لأقوم بأي تضحية لأجلهم.

يعطونني الكتب، ويحاولون أن يجتذبوني إلى حياة مفيدة، وأحياناً يستغلونني سياسياً، ويعطونني طرودهم البريدية، أرسلها إلى إيران، وحينما يجتمعون بي، يدور كلامهم كله حول المؤتمر والملتقى والتظاهرات، يتحدثون عن السياسة والاستبداد والنظام البوليسي الإيراني وفقر الناس وبؤسهم، وأنا كنت أستمتع بانسجامي معهم، لكن كل هؤلاء، كان واحد بعد الآخر منهم يقع في حبي ويتضاءل احترامي له. أترى التعاسة التي كنت متخبطة فيها؟

واحد من هؤلاء فقط كان استثناء، ولحسن الحظ، لديه خطيبة يعيش معها، وأنا استطعت أن أحوز ثقة هذه الفتاة الظريفة وأن أُفهمها أني لا أكن لخطيبها أي شعور خاص، كانت هذه الفتاة الوحيدة التي أحبتني، والله أعلم ربما مازالت تحبني، ذلك الشاب الذي كان يتعلم الرسم، وكان دائماً معتلاً ومريضاً، هو السبب وراء تفكيري في الأستاذ على الدوام منذ السنة الرابعة لوجودي في الغرب وإلى ما بعد ذلك، وحينما عدت إلى إيران، لم تكن لدي حيلة غير رؤيته والاستعداد لخدمته بكل ما أملك من قوة.

إذا تجاوزنا هذا الشاب، فإن باقي الأشخاص كانوا من الذين هُزموا في حربهم معي أو كانوا يحلمون بالانتصار علي، ويشيدون القصور في أذهانهم.

هل تعلم نتيجة ذلك؟ أنا أقول لك، بمنتهى الصراحة، حتى أستطيع فيما بعد أن أدافع عن نفسي بأريحية، وحتى أستطيع فيما بعد أن أقنعك بالخطأ الذي ارتكبه الأستاذ، هاتان العينان اللتان رسمهما لي ليستا ملكي.

هل تعلم نتيجة ذلك؟ كانت نتيجة ذلك أني أوغرت صدري بعداء هؤلاء العشاق البلهاء، وكنت أتلذذ بتعذيبهم وإثارة غضبهم.

كلما كان يزداد جنونهم، كنت أزداد قسوة، أصبحَت هذه هي حياتي، أما الرسم والدراسة في الخارج وفي E. d. B. A فكانا مجرد وسيلة لتسليتي.

اسمح لي أن أروي لك حادثة وقعت في حياتي، رغم أنه لا علاقة لها بحياة الأستاذ، لكنني أود أن أحكي لك هذه الواقعة، كما كانت في الحقيقة، أظن أنك بعدها ستعرفني بشكل أفضل.

كان أحد الأشخاص الإيطاليين من بين زملائي الطلبة في

E. d. B. A يدعـى دوناتللو، هذا الرجل ممتلئ الجسـم وجميل الهيئة ووسيم للغاية، له شعر أسود وعيون سوداء، وكث الحاجبين، وفي المقابل له أنف دقيق وشفاه وفم مثير، كان بنظراته ينفذ إلى أعماق القلب، لكن، في نظري، كانت هذه العيون السوداء الكبيرة مع نظرته الحادة تلك تثير السخرية، فهو عديم الحياء وجريء، لكنه عزيز النفس، كلما التفت إليه في المدرسة، كنت ألاحظ أنه ينظر إلي، لكن بنظرات مسـترقة، وبمجـرد التفاتي إليه، يحول نظره إلى ناحية أخرى، كأنه لم يرني أصلاً.

بعـد ثلاث أو أربع سـنوات من الحياة فـي باريس، كنت قد تعرفـت إلى كل الإشـارات والإيماءات، كان يأتي شـخص وقح وصلـف، يمرح ويأكل ثـم يذهب، وآخر يتقطّر وجهه إحساسـاً وعاطفة، يتقرب مني باسـتخدامه للشـعر والموسيقى، يريد أن يصب أمواج عشقه الحارق قطرة قطرة.

كان البعـض فاشـلاً وغيـر ذي كفـاءة، بل سـمج بعشـقه الأفلاطونـي، وكان البعض مصراً وعنيـداً - والعياذ بالله - من هؤلاء الذين يفقدون الإنسان أعصابه، بيد أني أعرف جيداً كيف يجب التعامل مع كل واحد من هؤلاء.

الإيطالي، الذي كان يبلغ من العمر سـبعاً وعشرين أو ثمانياً وعشـرين سنة، كان أكثر هؤلاء سـخافة في رأيي، كان متحفظاً ومنطوياً، وحتى إني كنت أعطيه الأمل، لكنه لم يكن يقترب مني. اسـتهزأت به مرة أو مرتين، حدقـت في وجهه مرة، كنت أجلس بالقرب منه في الصف وأرمي الريشـة بالقرب منه على الأرض دون أن يشـعر، ولكنه لم يكن يكترث، وفي الوقت نفسه يبدو من حركاته أنه متيّم بعشقي.

ذهبت ليلة رفقة مجموعة إلـــى Bois de Boulogne [*]، في بداية الليلة، وكان الجو صحواً ومقمراً، كنّا نتمشى في الغابة، وكلٌ يغني بلغته.

أكثر الحاضرين طلبة في E. d. B. A، والغالبية فتيات، حينما كان الرجـــال يمـــرون من أمامهن كن ينفجـــرن ضحكاً، احتقرت ضحكاتهن الســـخيفة هاته، ابتعدت عنهن شيئاً فشيئاً، وذهبت وحيـــدة إلى Pavillon، كان مطعماً جميلاً، فجأة رأيت دوناتللو جالساً إلى طاولة، واضعاً أمامه كأساً لمشروب فاتح للشهية، وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة، فقصدت مباشرة طاولته.

رآني من بعيد، ورفع رأســـه وألقى إليّ نظرة بعينيه الكبيرتين السوداوين، فقلت:

- هل تسمح لي أن أجلس إلى طاولتك؟

لم يقم من مكانه، وأشار بيده، لم يكن هناك كرسي فارغ على الطاولة، اضطر للقيام، سحب كرسيه وقدّمه له، وقف للحظات حتى جاء النادل وناوله كرسياً.

كانت هناك منِفَضَة مملوءة بأعقاب سجائر، وقد أطفأ بعضها دون أن يدخنهـــا كاملة، مـــن الواضح أنه كان يكره التدخين، ومع ذلك كان يدخّن، بمجرد ما جلس أطفأ سيجارته، وسأل:

- ماذا تريدين؟

قلت:

- اطلب لي مشـــروباً فاتحاً للشهية أنا أيضاً، بعد ذلك نتناول العشاء.

---

(*) غابة بولونيا، وهي حديقة تقع غرب باريس، بالقرب من ضاحية «بولونيا - بيلانكور»، تبلغ مساحتها 8.5 كلم مربع، توجد فيها بحيرة (المراجعة).

لــم ننطلق في الحديث، كان جالســاً يدخــن، تحدثت له عن القمر وعن باريس وعن الطلبة الآخرين وعن رفاقي، بلا فائدة.

أثرت الحديث عن الفن، شــرحت له بالتفصيل أن محب الفن يســتمتع أكثر من الفنان نفســه، من الطبيعي ألا يكون كل فنان راضياً عن عمله، ولو كان من الروائع، يريد دائماً أن يبدع شــيئاً أفضل وأجمل مما أنتجه، ويستطيع دوماً كشف عيوبه وأخطائه، الفنان هو أفضل منتقد لأعماله، لكن المشــاهد يغرق في المتعة، أغلــب الناس لا يدركون العيوب بســهولة، وينظــرون فقط إلى الجوانب الجميلة.

كنت أنتظر أن يخالفني الرأي، أن يثير النقاش، أن أســتحثه على الكلام، لأســحره فيما بعد بجمال وجهي فأنهي أمره؛ حتى إذا أظهر حبه، استهزأت به، وتخلصت من شر هذا أيضاً، لكنه ما كان لينصــاع، كان يدخن وينفث دخانه في الهواء لئلا يضايقني، حين رفع رأســه، بدت زرقة عروق عنقه من خلف جلده الأبيض، وكنــت ألحظ ارتعــاش بدنه، ومع ذلك، فقد كان جالســاً ببرود ولا ينطق بأي شيء.

بعدها، بادرته بســؤال، كان يعطي أجوبــة متقطّعة وبطريقة حادة.

تناولنا العشاء، وأحضروا لنا قنينة Grave supérieur (*)، شربها هو بالكامل تقريباً، وأنا بالكاد بللت شفاهي.

الشــيء الوحيد، الذي توصلت إليه منــه، هو أن أباه كان من أصحاب المناصب العليا في وزارة الخارجية في إيطاليا الفاشية.

نفد صبــري، طلبت منه أن نتجول معاً قليــلاً، وأن يوصلني

(*) نوع من الخمور الفرنسية المنتجة من كروم العنب (المترجم).

إلـــى البيت، أطاعنـــي، حينما عبرنا من أمـــام بحيرة Bois de Boulogne لاحظت أن هناك قوارب للكراء، فقلت:

- هل نركب قارباً؟

فقبل. سألته:

- هل تجيد التجديف؟

لوّح برأسه.

كان هــو أول مــن وضع رجله علــى القارب، ثــم أخذ بيدي ليســاعدني، فأمسكت بيده بشـــدة، متظاهرة بأني أكاد أسقط، التصقت بذراعه، لكنه لم يبال، لم أكن أصدق، ما زال متشــكّكاً، هكذا كنت أعتقد في نفسي.

أجلســـني على أريكة القارب الخلفية، كان القمر ينشطر على صفحة الماء إلى أقســـام مع كل ضربة مجداف، ثم يســـارع على الفور لاســـتعادة شـــكله الأول، لكن ســـرعان ما يعود ليترنح من جديد.

كان دوناتللو يضع الســـيجارة بين شـــفتيه، بحيث إن إجاباته كانت تصدر متقطعة، بدأ شيئاً فشيئاً يدندن، كان صوته غليظاً، ثم رمى بعد ذلك الســـيجارة في المـــاء، كان يمخر الماء بذراعين قويتـــين، ويغني بصوت عال أغنية مدهشـــة وعجيبة. فكرت في نفســـي: لقد كان تعيســـاً، فأشـــفقت عليه. بغتة، جاشت نفسي بغضاً، فتســـاءلت: لمـــاذا إذن يضايقونني بهـــذا القدر؟ أردت أن أطلـــب منه أن يرجع، لكن صوته كان حقـــاً أخّاذاً لدرجة أني لم أجرؤ على الكلام.

ما إن أنهى غناءه حتى انتصبت واقفة، وتقدمت خطوة، وقبّلت رقبتـــه من الخلف، ارتجّ القارب، كان على وشـــك أن ينقلب، لكن

دوناتللو تدحرج فجأة إلى جهة واحدة، مثل فهد يخطف فريسته في قفزة واحدة، سحبني إليه وضمّني بين ذراعيه القويتين حتى كدت أُسحق، ثم غطّى وجهي ورأسي بالقُبل.

حينما كان يُلفي فرصة يتحدث بالإيطالية، وكان يقول أشياء لا أفهمها، هذه الجملة الوحيدة التي أتذكرها: Ti volio bene (*).

خلّصت نفسي من قبضته، أجلسني بجانبه، فجأة، فكّ الطلسم وبدأ يتكلم، كان يقول كلاماً، نصفه بالإيطالية والنصف الآخر بالفرنسية، يقول تلك الترهات التي يقولها كل العشاق البلهاء.. لفني الحزن، فأمرته أن نعود، ومن دون أن أنبس بكلمة ومن دون أن أكسر الصمت، استقللتُ سيارة أجرة عائدة إلى باريس، استغرقت رحلة القارب ساعة واحدة.

أمام باب المنزل، وبمجرد أن فتح الحارس الباب، ودّعته مازحة ضاحكة، فسألني:

- متى سنرى بعضنا؟

أجبته ضاحكة:

- نحن نرى بعضنا في المدرسة دائماً.

تركته خلفي، وتوجهت نحو شقتي.

جلست لبعض الوقت في فراشي، كان حزن شديد يعذبني ولا يخلي سبيلي، ولم أستطع أن أنام، كان يبدو لي أن قبلات هذا الرجل العنيف مصطنعة ومقرفة، انصرفت لمدة إلى قراءة كتاب، ونسيت القصة.

حين دخلت إلى المدرسة صباح اليوم التالي، كان واقفاً أمام الباب، أتى صوبي ضاحكاً، بادرته بانشراح، ومشينا معاً في

(*) تعني هذه العبارة بالإيطالية: أحبك كثيرا (المترجم).

الرواق، كان ذلك القناع المصطنع الذي يغطي وجهي أثناء حديثي مــع المتيّمين حاضراً أيضاً في ذلك اليــوم، مهما حاول أن يزيل هــذا القناع لــم ينجح، وفي وقت الظهيرة، قــال وقد بدت على ملامحه علامات الارتباك:

- سآتي اليوم عصراً إلى منزلك لنكون معاً.

قلت:

- لا وقت لدي في العصر.

حقــاً لم يكن لدي وقت، كنت قد واعــدت العقيد، حفيد عم والدي، على اللقاء به.

سألني:

- ماذا عن الليل؟

- ليس لدي وقت لأسبوع، إضافة إلى هذا فنحن نرى بعضنا في المدرسة كل يوم.

* * *

قطعت فرنكيــس كلامها، كانت عيناها تبرقان، وربما كانتا قد ابتلّتا..

قلت لها:

- السيدة فرنكيس، أكملي البقية.

- ليســت هنــاك بقية، إنك تفهــم بالتأكيــد أن تأثري ليس بســبب دوناتللو، أتعلم مقدار تأثير هذه الحادثة فيّ؟ إنه بمقدار إحساســك بالحموضة التي تتركها حبة عنــب واحدة في فمك حين تأكل عنقوداً من العنب الحلو.

في تلك الأيام اشتهر فيلم في كل أنحاء أوروبا، وكانوا يرددون أغنيته في جميع المقاهي، لم أعد أتذكر لحن الأغنية ولا نصها،

لكن مضمونها على النحو التالي:

«أنا خُلقت لأجل العشق، من مفرق الرأس إلى أخمص القدم. ولم يعد الأمر بيدي. يدور الرجال حولي كما يدور حول الشمع البعوض. إذا كانوا هم يحرقون أجنحتهم، فما ذنبي أنا؟..».

سكتت فرنكيس مرة أخرى، ألم ترغب في قول شيء آخر؟ لم أجرؤ على توجيه السؤال لها، لكنني اكتفيت بتكرار الجزء الأخير من شعرها هكذا: «إذا كانوا هم يحرقون أجنحتهم، فما ذنبي أنا؟..».

تناولَتْ كأس الكونياك، وطفقتْ تنظر للحظات إلى لونه الأصفر، وقالت:

- لا شيء، لم أر بعدها دوناتللو، بعد أسبوع من ذلك، عثروا على جثته فوق بحيرة Bois de Boulogne.

* * *

- ماذا تقولين؟
- لا أعلم.
- هل تسببتِ للأستاذ أيضاً بنفس المصيبة؟
- لا، لا، لا تتكلم هكذا، أنت ما زلت لا تعرفني، أنا أظهرت لك جانباً واحداً فقط من حياتي، كل هؤلاء كانوا مدلّلين، لم أكن أقيم لهم أدنى اعتبار في الحياة، أما «ماكان» فقد حطمني تحطيماً، لم يكن اللعب ممكناً معه، فضلاً عن ذلك، أتعتقد أنني كنت أسخر من أولئك عن علم وقصد، لا، ليس كذلك، كان وحش يسكنني، وكنت في شد وجذب معه طوال العمر، فهو من كان ينخر أعماقي، أما في الظاهر فكان يجبرني على التصرف الشرس.

لم تكمل كلامها، سكتت لبضع دقائق، كانت عيناها محدّقتين إلى غطاء الطاولة.

ارتسمت على شفتيها ضحكة حزينة، حملقتُ فيها للحظات، كنت أبحث في هذا الوجه البريء عن أثر للشر، لكن لم يبق هناك أي سر مخفيّ في العينين، إنها امرأة تعيسة تعترف بذنوبها أمامي.

كان نباح كلب منبعث من بستان الجيران وبوق سيارة من بعيد يكسران الصمت، فجأة دبت فيها حركة، تهلّل وجهها وبدأت من جديد:

- كنت قد نسيت بالكامل لقائي بالأستاذ في المرسم، هي مجرد ذكرى في طور النسيان، كدت أنساها تماماً، لكن حادثة ذكّرتني مرة أخرى بالأستاذ وربطت حياتي بحياته.

كانت أوروبا بكل تنوعاتها تكاد تصبح في نظري رتيبة ومملة، وكان عشقي وشوقي للفن خلال الأيام الأولى قد تخليا عني.

إن أغلب الأشــخاص، الذين يُقدمــون على صيد هذا الطائر الجميــل ويقطعون طريق الفنان المليئــة بالمصائب، يرجعون من وســط الطريق خالِي الوفاض. حوالي تســعين في المئة منهم لم يجتازوا الامتحان وما تبقى، أي عشــرة فــي المئة، كانوا أنانيين لا يســتطيع أحد الوصول إليهم، أمــا الفنان الحقيقي فهو ذلك الشــخص الذي تُعجن شــخصيته وتُخلط في فنــه، وعلى هذا الأساس فالفنان يجب أن يكون إنساناً في المقام الأول.

آه، ســيدي الوكيل، ما أسهل قول ذلك، أساساً إسداء النصح أمــرٌ فــي غاية البســاطة، أكثر الأشــخاص المحيطــين بي في E.d.B.A كانوا يتســلّون بالفن، ولم يكونوا يعملون بشغف حتى يتمكنوا من تحمل معاناة الفشل، والاستمتاع بنشوة النجاح، كانت حياة أكثرهم مُؤمَّنة، يرســمون لأن الرسم -في نظرهم - أسهل مــن أي عمل آخر، هؤلاء أُجبــروا من طرف آبائهم الأثرياء على اختيار هواية لأنفسهم.

تخــرج في هذه المدارس الآلاف من هؤلاء الرســامين في كل سنة، لكن في كل قرن تمنح الحياة رسامين أو ثلاثة للبشرية.

لقد أدركت الشــيء المبهم والمظلم الذي أحسسته، يوم لقائي به في طهران في الطريق من البيت الكائن في شارع (لاله زار)، أدركته بعد مرور ما يقارب أربع ســنوات في باريس، في الفضاء الموجود على رأس كل زقاق، وفي كل بستان، وحفل، وفي المسارح، وحتى في مســاكن العمال، والقرى البائسة.. أدركت أن الجمال الســاحر يجرح قلب الإنسان، بكل ما في الكلام من معنى، وبكل ما ينطوي عليه من فواجع، كم كنت أود لو أســتطيع أن أشــرح لك كيف شــق هذا العجز وهذا الخمول طريقهما إلى وجداني،

كم عانيت حينمــا أُجبرت على إخبار والدي بالواقع المرير الذي اطّلعت عليه.

أتحب الموسيقى؟ أنا أعتبر أمتع ساعات عمري هي تلك التي أحب فيها لحناً موسـيقياً، لكن العجيب أنني لسـت دائماً على هذا النحو، فأحياناً تكون الموسـيقى، بالنسـبة لي، أي موسيقى تتصورها، مملة ومؤذية.

لماذا أتحدث لك عن الموسيقى؟ أحياناً في هذه السيمفونيات، يتسـرب لحن هادئ وقليل من وسـط ضوضاء الأوركسترا، هذا اللحن الهادئ واللطيف يروق لقلبك وتتوقعه، ويتكرر هذا الصوت الرقيق، لكن هذه المرة يأخذك أكثر من المرة الأولى، وشيئاً فشيئاً تبدأ كل الأوركسترا بعزف ذلك اللحن المفضّل لديك بصوت واحد وبقوة، لا يبقى لك قدرة على السـيطرة على نفسك، وهكذا تبرز أيضـاً المصائب المرعبة، لا يدرك الإنسـان في البدء كل عمقها، تطفو على السطح أحياناً وتغوص في العدم.

فجأة تنطلق كل الأوركسترا بالعزف، حينها تنهمر الدموع من عينيك، وأنت نفسك لا تدري لماذا تبكي.

بعد أول لقاء معه، طفا على السـطح إدراكي لمأسـاة حياتي، وألمـي الذي لا يُحتمل من جراء كونـي أفتقد الموهبة، تماماً كما ظهر ذلك اللحن المرعب، ولكنه تلاشى من جديد، غير أنني حينما تذوقت ضغوط ذلك كله، كنت أذهب بجدية وأنصت للموسـيقى سـاعات طوالاً، وحينما كنت أجهش بالبكاء، أقول لنفسـي: أنا لا أعرف لماذا أبكي، أنا أبكي على وضعي.

حينها، لما كان هؤلاء العشاق البلهاء يرون حالتي هذه، يظنون أنني أبكي من شدة الشوق أو من شدة الرقة والحنان. آه..

أطبقت فرنكيس عينيها، وأحكمت قبضة يديها الصغيرتين، وانتاب كامل جسـدها حركة شـديدة، كنت أرى حركة صدرها السريعة.

- الرسم ونسخ الأشياء ووضع الخط الموزون والألوان المناسبة بجوار بعضها، تلك أمور يمكنك أن تتعلمها في المدرسة، هذه لها قواعدها ومبادئها، وكل من يتمرن لبضع سنوات يتعلّم. أنا أيضاً كنـت أعرف هذا العمـل، لكن ما كنت أعجز عـن القيام به هو خلـق العوالم والأحوال؛ أي خلق عمل فني يعكس السـعادة التي أحسسـتَ بها في الحياة، والألم الذي تكبدتَه، والقلق الذي خيّم عليك من جراء إدراكك لحدث ما، والمذلة التي تجرعتَ مرارتها، والانتظار والشـوق والفزع والخوف والرعب والحسـرة والفشل والوحدة، بحيث يحس المشاهد بنفس هذه العواطف. وتعلُّمُ هذا أمـرٌ صعب جداً، ولا يقدر عليه أسـتاذك في الرسـم، ولو كان مفتوناً بوجهك الجميل.

كنت أود أن يتضح في عمل لي ذلك الشوق الذي في أعماقي، وذلـك الوحش الذي يقودني إلى النذالـة والدناءة، هذا الوحش الـذي يلتهم أعماقـي. أنا ليس لدي أحد، هـؤلاء هم من كانوا حولي، وهـؤلاء لا يتعاملون مـع قلبي الإنسـاني. منذ الصغر، لـم تكن لدي أخت حتى أشـكو لها، صديقاتـي منذ أن تعرفت على نفسـي كن يحسـدنني، وأمي كانت تنتمـي إلى ذلك العالم الآخر، كان ما يرضيها في الحياة كتاب أدعية وسـجادة وتسبيح وشيشة وضريح «شاهزاده عبد العظيم» وقم، تستمتع بالجلوس مع «خاور سـلطان» و«أمين الحاجية» والسيدة «عرفان»، تدخن الشيشة وتغتاب الناس.

أما والدي فكان شـيخاً كبيـراً، ومع أن له قلباً حنوناً لكنه لم يستمتع بشبابه، كان يقيّم كل شيء كجيد أو سيئ من وجهة نظره الشخصية، ومع ذلك، يسعى إلى ألا يتصرف على خلاف رغبتي. الأمل الوحيد الذي كان قد تبقى لي هو فقط أن أشـغل نفسـي بالرسـم، وكلما كنت أكبر أكثر، أدرك أن هذه الهواية أمرٌ جدّي، كنت أتمنى أن ألقي بهمومي في فنّي وأبوح بما لا يمكن الإفصاح عنه، كنت أود لو أستطيع أن أقول لنفسي: لماذا لا يسعدني شيء في الحياة؟ كنت أود لو أحببت شـخصاً وافتديته بكل ما أملك، علـى الأقل، كنت أتمنى أن أسـتطيع بيان ما ليـس في مقدور شخصيتي العثور عليه، في لوحة للرسم، هذه هي المصيبة، قولها في بضع كلمات سـهل ويسـير، والتعبير عنهـا ينتهي في جملة واحدة، لكن الإنسـان يظل العمر بأكمله يتجرع مرارتها، ويتجدد هذا الألم كل يوم في صورة جديدة، كنت أود لو أستطيع أن أرسم إحدى الصور العابرة بألوان وخطوط جميلة.

أتفهـم في أي حال سـيئة كنت حين أدركت هـذه الحقيقة؟ يا للزمان الذي عشت فيه! يئست من كل شيء.

دعني أخبـرك بأنني فكرت حتى في الانتحـار، وحتى إنني ذهبت يومـاً بمفردي إلى بحيـرة Bois de Boulogne تلك، واستقللت القارب وحدي، وقمت بالتجديف، ومرت فكرة أن أضع حداً لحياتي مثل البرق لثانية في ذهني كما فعل دوناتللو، حينما وقعت عيني على ماء البحيرة العكر، رأيت عالماً أسود، فأصابني الرعب، وضحكت على بلاهتي.

حينمـا حكيـت جزءاً مـن حياتي لذلك الشـاب الشـاحب الـذي يبيع المنمنمـات ويعيش فـي Montparnass قال لي:

إنك كسولة، اذهبي واعملي، حتى تتذوقي لذة الحياة. كان محقاً، ليس لديّ هذه الميزة. عندما كنت طفلة، كنت أنادي على «فضة سلطان» لتناولني كأس الماء من فوق الكرسي وتضعه قرب فمي، هذه تربية مرحلة طفولتي، كيف كان ممكناً أن أعمل؟

صعود سلم الفن العالي كان يلزمه شجاعة وعمل دؤوب، الأمر الذي كنت أفتقده في نفسي، لم أكن أقدر على أن أجلس لساعات وشهور وسنوات كإنسانة واعية أرسم بالألوان والخطوط الشيء الذي أرغب في إظهاره، لم يُعطَ لي هذا الصبر، كنت دوماً أختار الطريق السهل، كان لدى الآخرين الإصرار، وأنا أفهم هذا. كنت ألحق الضرر بنفسي، وأعمل أيضاً ولكن يبقى العمل في النهاية غير مكتمل، فالتسلية واللهو يغلباني ويرمياني في عالم متقلب.

آه، الأستاذ، كان أستاذك من هذه الناحية رجلاً عجيباً. لو كنت قد عرفته كما عرفته بعد عودتي إلى إيران، لقامت حياتي على أساس آخر.

أنا لا أجرؤ على أن أتفوه بكلمة سيئة في حقه، حتى حينما أكون وحيدة وأستحضر وجهه، لكن أستاذك، حبيبي الوحيد، ظلمني كثيراً.

سأقول لك سر هذه اللوحة التي كنت تشرحها لي في قاعة المتحف: «البيوت الريفية»، لقد اشتغل عليها ثلاث سنوات، ووضع مئات التصاميم لها، هل دقّقت في وجه ذلك العجوز الريفي؟ أتعلم مقدار البساطة ومقدار الخوف والرعب الكامنين في وجهه؟ إنه عجوز خبير ومتنور، كم من ملك جلس على العرش وذهب أثناء حياته، لقد رأى جلالة الشاه بأم عينيه مرتين أو ثلاثاً، كان نفسه يعرّف العجوز بنفس الكلمات التي قلتها تقريباً،

ربما غيّر قسـمات وجهه عشـرين مرة، جلس يرسم في غابات «مازندران» لسـاعات طوال، في الصباح الباكر، في حر ظهيرة فصـل الصيف، تحت الأمطار، في أول الليـل، في ضوء القمر، وفي الليالي المظلمة التي غطت السحب فيها السماء. سافر مرة في فصل الشـتاء إلى «مازندران» ليشـاهد الغابة وهي مكسوة بحلة بيضاء، كان يرسـم أحياناً عدة شـجرات من زوايا عديدة مختلفة وتحت إضاءات متنوعة، حتى يحصل على أفضل وضع، لو كنت أعلم أن الرسـم يسـتلزم التعب والمعاناة بهذه الدرجة ما أمسكت أبداً الريشة في يدي.

أنا لم أنشـأ هكذا، لم يعلموني العمل، ولم أكن في حاجة إلى العمل حتـى أعيش حياتي، لقد كان هنـاك آخرون ينجزون كل أعمالي برغبة. شـعار أبي: لا تقم أبداً بعملٍ يسـتطيع الآخرون إنجـازه لـك، كان يقول إن هناك أعمالاً أكبـر يجب أن ننجزها نحن، أما أنا فليس هناك عمل أحسن القيام به.

أسـوأ ما في الأمر أنه كانت لي القدرة على التمييز بين الفن والعمل التافه، أنا نفسـي كنت أحـس قبل أي أحد آخر أن هذا ليس بذلك الشـيء الذي أبحث عنـه، كان رأيي جيداً جداً، لكن مـا أنتجه كان مبتـذلاً ولا روح ولا حركة له، وهذا ما منعني من الاستمرار في العمل.

وهكذا، اسـتمر الوضع حتى عيل صبـري، تعبت من الحياة، وكرهت العيش في باريس، فسـافرت إلى إيطاليا، وهناك قمت بزيارات سـريعة للمدارس، كما زرت مراسـم عدة رسامين كبار فـي إيطاليا بتوصية من أسـاتذتي في باريـس، وبرفقة العقيد آرام الذي كان وقتها موجوداً في روما للاطلاع على أوضاع طلبة

القوة الجوية. لقد أثّرتْ فيَّ عظمةُ فن هذه البلاد والروح الفنية التي مازال الناس يتمتعون بها تأثيراً معكوساً، لقد انحنيت أمام جلال هذه العظمة.

ذهبــت يوماً عند أحد الرســامين الإيطاليــين الكبار، يدعى إستفانو، وبمجرد ما رآني بادرني بالسؤال: هل أنت إيرانية؟

حينما ســمع جوابي المثبت، أسهب في تمجيد الأستاذ، وبعد ذلــك تحدث عن شــاب إيراني آخر يســمى «خــداداد»، والذي استطاع بمساعدةٍ من إستفانو أن يلتحق بـ E. d. B. A، كان هذا هو الولد الشاحبُ اللون، الذي أشرت إليه.

إستفانو واحد من كبار التشــكيليين في العالم، ولوحاته تباع بأسعار باهظة في جميع أنحاء الدنيا.

عظمة الفن الإيطالي وكلمات المدح التي قالها أكبر رسام في الدنيــا في حق «ماكان»، قضت على أضعف مقاومة موجودة في نفسي، وحوّلت أملي يأساً، وتذكّرت لقاءه.

واســتعدت ذلك المنظر، حينما كان يقلّب رســوماتي في يده، ويشــاهدها واحدة تلو الأخــرى، وحينما تذكرت مــا قلته عنه لوالدي، أحسست بالخجل.

هذه الضربة الأخيرة هي التــي دفعتني إلى أن أتخذ قراري، لم يكن لدي شــك، لقد ثبتت صحة ما قاله لي الأستاذ في طهران، أو بشكل أصح، ما لم يقله الأستاذ، ليس لدي جينات الرسام الفنان، والبيئة الاجتماعية التي أعيش فيها سلبت مني القوة والتصميم.

أدركــت هذا، لو أنه أخبرني في ذلــك اليوم لربما كانت لدي حياة مريحة، ولكنت أنا أيضاً مرتاحة، هو لم يقل شــيئاً، وأنا لم أستطع أن أغفر له ذنبه هذا.

بالرغم من أنني كتبت لأبي أنني قررت أن أبقى في إيطاليا ستة أشهر لأدرس فيها، لكنني عدت إلى باريس بعد أسبوعين، وكتبت رسالة لوالدي، واليوم حين أتذكر ذلك أحس بالألم.

كان أبي أقرب شخص إليّ في حياتي بعد الأستاذ، كلما أحس بالبؤس في حضرته، كان يروق لي أن أضع رأسي على كتفه وأستسلم للبكاء.

والدي رجل عاقل، وأظن أنه قبل أن يشعر بمحبته لي، لم يكن قد تذوق أبداً طعم الحب والحنان، كان يفكر في المستقبل فقط، ويريد أن يشعر بأنني سعيدة. في إحدى الرسائل التي كتبتها في السنة الثالثة من إقامتي في باريس، وبعد أن علم أبي بأوضاع حياتي عن طريق رسالة أحد البلهاء الحقودين، اعترفت أنني ارتكبت خطأً فادحاً في حياتي، فلم يكن من حقي الذهاب إلى فرنسا، وكان من الأفضل لو بقيت في طهران، وعشت حياة عادية.

كتبت له بصراحة ووضوح أن ما كان قد أبداه رسام طهران المعروف من رأي في رسمي كان قريباً من الواقع تقريباً، لكن أبي إما أنه لم يفهم وإما أنه لم يهتم بكلامي، حينما عدت من روما إلى باريس، جلست وحاولت قدر الإمكان أن أشرح له مأساة حياتي، كتبت له أنني لا أتقدم كثيراً في أعمالي، وأن الرسم فن جِدُّ صعب، وأنا إلى الآن لم أستطع إرضاء أساتذتي، وأريد أن أرجع إلى إيران، وطلبت منه رأيه في الموضوع. كان من المعلوم والمؤكد أنني لا أستطيع أن أكتب لأبي عن كل الصعوبات في حياتي المضطربة في أوروبا، لكن صدقني، مع ذلك، فقد سعيت قدر ما أستطيع لأن أكون صادقة.

الرســالة التــي تلقيتها جواباً على رســالتي كانت تبعث على اليــأس كثيراً، فقد كتب والدي في جوابه أنه لا يريد شــيئاً في الحياة غير ســعادتي ورفاهيتي، ولا يرغــب أبداً أن يطرح علي خطة لمستقبلي، فما بالك بأن يفرض أوامرَ، لكنه سمع أن العقيد آرام، وهــو من جميع النواحي رجل صالح وفاضل وله مســتقبل زاهــر بالتأكيد، قد تقدّم بطلب الزواج مني. لو يعلم هو أن ابنته الوحيدة سوف تكون لها حياة سعيدة، ليس مع العقيد، بل مع أي شخص تريده فلن تبقى له أمنية في الحياة لم تتحقق، ويستطيع أن يموت وهو مرتاح البال.

رســالة أبي هذه نفرتني من الحياة. فبــمَ أفكر أنا وبمَ يفكر هــو؟! كنت أحاول أن أُفهِمه أنــه ليس لدي موهبة، وأنني أعاني الأمرّين من هذا الجهل، وهذا الضعف، وهو كان يختار لي زوجاً.

كنت أبحث عن ملاذ في هــذه الحياة المليئة بالقلاقل، وأريد أن أجد شيئاً تتعلّق به نفسي عسى أن تنتهي هذه الأزمة النفسية والأخلاقية التي داهمتني. ذهبت وعثرت على الشاب الذي كان إســتفانو قد تحدث عنه في روما، بيد أن هذا كان أمراً عسيراً، كنت قد رأيته في الســنة الثانية حين توقفت في باريس بمدرسة الفنــون الجميلة، كنت أعرفه، ولقــد كانت خطيبته فتاة ظريفة، غيــر أنه لم يُر في هذه الأماكن منذ زمن طويل، كل من أســأله لا يجيــب جواباً محــدداً. أتذكّر حينما ســألت العقيد آرام عن أحواله، قال: «آه، هذا من المتطرفين، إنه أســوأ سمعة حتى من طلاب برلين، ما دخلك أنت بهؤلاء؟».

كان أكثر الطــلاب الإيرانيين المقيمين فــي باريس يعرفونه، غيــر أنهم لم يكونوا يعلمون أين يمكــن أن يعثروا عليه، أو كانوا

لا يرغبون فـــي إعطاء أية معلومات عنه، كان الكثيرون يتعجّبون من ســـؤالي، ولأنهم على علـــم بالقرابة التي تربطني بمســـؤول الطلاب العسكريين، كانوا يتصورون أنني أبحث عن أحواله بنية سيئة. بعد مرور أسبوع وجدته أخيراً.

كان قد استأجر منزلاً في Rue de la vavin Montparnasse(*)، وكان الطلبة الإيرانيون يعرفونه جيداً، بيد أنّه لا أحد يرغب بأن يعطي معلومات عنه بشكل علني.

هذا الشـــاب الطويل والنحيل المضطرب الحال، كان الوحيد الذي لا ينظر إليّ بعيون عاشـــقة، ربما لأن فتاة سليمة وظريفة كانت ترعاه كأخت حنون.

ربمـــا أيضاً لأنـــه كان دائم المرض، ويرى نفســـه بين أحضان الموت، آه، كم أتمنى أن أراه اليوم وقد أصبحت فاشـــلة ومنبوذة. أنا متيقنة من أنه سيُدخل البهجة إلى قلبي، وربما يرشدني إلى طريق النجاة.. آه، ما أحلاها من أوهام!

كان هـــذا الفتى منشـــغلاً بالنضال، إنه دائمـــاً ومنذ أن وعى بنفســـه يصارع، وأمواج الحيـــاة تتقاذفه من صخرة إلى صخرة، بيد أنه لم ينهَرْ، إنه من ألد خصوم الاســـتبداد، يســـتميت على عقيدتـــه هذه، لدرجة أنه كان يحلل أي موضوع من خلال عدائه هذا. أعلم أن «مهريانو» رفيقته وصديقته المخلصة قد عشـــقت فقط إرادتـــه الصلبة والعنيدة هـــذه، كانوا ينادونـــه «خداداد»، ولا أعلم بتأثير أي سحر من جانبه حكيت له آلامي، واستطاع أن يجعل مكاناً لنفسه في حياتي.

كان هذا الشـــاب يتحدث بصراحة ومن دون تحفظ، إلى حد

(*) شارع la vavin، منطقة مونبارناس (المترجم).

الوقاحة أحياناً، بيد أن أسـلوبه في التعبير لم يكن خادشاً، كلما كان يعيّرني بحقائق حياتي المنحوسة كنت أزداد تعلقاً وافتتاناً به.

وحينما شـرحت له كيف تعامل معي الأستاذ «ماكان»، وكيف عرّفتـه أنا لأبي، أجابنـي دون حياء: «إن هذا أكبـر دليل على جهلك».

تصور، لم أكن أسـمح لأحد أن يتحـدث معي بهذه الطريقة، الشـبان الآخرون الذين لا يسـاوون عندي مقدار قشـة، كانوا جميعهـم يرقصـون فرحاً بإشـارة واحدة مني، لـم يكن هؤلاء آدميين، ولم أكن أسـمح لهم أبـداً بأن يتجاوزوا حدودهم خطوة واحدة، فضلاً عن ذلك فإن تصرفاتي معهم لم تكن حميمة.

في حين رماني هذا الشاب النحيل والطويل بالجهل في اليوم الأول الـذي ذهبت فيـه للقائه بعد عودته مـن إيطاليا، أصبت بالرعـب، ولم أجرؤ على مجرد الغضـب، فما بالك أن أرد على جسارته بطريقة معينة؟!

عثرتُ على بيته في منطقة Montparnasse بصعوبة، كان منزلـه يقع في علية في الطابق السـادس، وقـد غُطّيت نصف الغرفة بسقف مائل، يشرق عليها نور الشمس من نافذة صغيرة، لا ترى العين سـوى أسـطح مغطاة بالطين والمداخن تتراءى من النافذة، وعلى الجـدار تجلب نظرك خطوطٌ قاتمة اللون خلّفها مـن ورائه جريان ماء المطر. كانت السـاعة تشـير إلى الحادية عشـرة صباحاً، ولأنني كنت قد سمعت أنه يعمل في بيته، ذهبت قبل الظهر، بيد أنه لم يكن موجوداً.

اسـتضافتني خطيبته، كنت قد رأيت هذه الفتاة مرة واحدة، لكننا لم نتعارف، كانت ذات شـعر أسود، وعيناها كعيني غزال،

لـــم تكن فاتنة الجمال، بيد أن وجهها يبدو كوجه فتى في الثامنة عشــــرة من العمر يطفح بالحيوية والشـــغب، وقامتها النشـــطة والمرنة تجذب المرء إليها.

«مهريانو» من الفتيـــات الإيرانيات الأوائل اللواتي ابتعثن إلى فرنســـا على نفقة الدولة، وكانت تلتقي بـ «خداداد» خلسة بعيداً عن أعين الســـفارة وإدارة البعثة، وقـــد التحقت بكلية الطب في باريس، وتريد أن تتخرّج طبيبة أطفال.

أدركـــت من النظرة الأولى أنها ليســـت راضية لرؤيتي، كانت هذه الفتاة بالغة البساطة، لدرجة أن أقل تأثر يبدو على وجهها، ومـــع ذلك، فهي أكثر طيبة مما تُظهـــر، وأنا لم أكن ممن يعرض عنها.

بادرت بالكلام، فقلت:

- جئت لأرى «خداداد»، أنا أتيت من روما، والتقيت بإستفانو هناك، أتعرفين إستفانو؟

أردت أن أجبرهـــا علـــى الكلام، لكنها لم تجـــب، إنما اكتفت بإيماءة من الرأس. وأكملت كلامي:

- إســـتفانو حالياً هو أكبر رسّـــام في العالم، سأل عن أحوال «خداداد»، وقد جئت لأرى أعماله.

ابتسمت ابتسامة أزهار أول الربيع، وفُكّت عقدة قلبها.

- لم يعد «خداداد» يشتغل.

- لماذا؟

كانـــت لـ «مهريانو» نبرة أخّاذة، كأنها وَتَر يتحول لحناً شـــجيّاً لأصغـــر نقرة علـــى قلبها، وتظـــل ذبذباتها تجوب الهـــواء لمدة، وتجعيدة تعلو جبينها تحوّل على الفور ملامح وجهها البشوشـــة

والجذابة إلى حالة حزن تثير الرقة.

ألقيت نظرة على حاملة لوحة الرسم المقابلة للنافذة، وكان موضوعاً عليها قطعة ورق مقوّى، وأستطيع أن أرى من هذه الناحية ظلها فقط.

انتبهت الفتاة لنظرتي، وقالت:

- هذه هي كل أعماله.

فقلت:

- دعيني، لأرى بنفسي.

- إنها غير مكتملة، سأريك إياها.

هبّت واقفة، وأخذت منمنمة ألوانها غير مكتملة، وناولتني إياها، وقالت:

- يرسم مثل هذه ويبيعها ويعيش منها، لا يبقى أي وقت للرسم الحقيقي.

- لماذا؟ ألم يعودوا يصرفون له منحة الدولة؟

- كلا، أوقفوها منذ ستة أشهر، وهو يعيش من بيع هذه المنمنمات.

- لماذا أوقفوها؟

- لا أدري ماذا أقول، اسأليه بنفسك، هم في نهاية المطاف يعرفون «خداداد»، الجميع يعرف كيف يفكّر، من المؤكد أنهم أخافوك أنت أيضاً، منذ مدة طويلة، هذه أول مرة يأتي فيها شخص إيراني يتفقده، كأني أسمع وقع قدميه.. أظن أنه هو، الحياة عجيبة، لا يقوى على المشي، ومع ذلك فهو دائم الحركة، ولا يفكر بتاتاً في صحته، طوال الوقت يسعل، لكنه يعتقد أن حالته جيدة وأنه مزكوم، هل سمعت مرة بزكام مزمن؟ مرهق

على الدوام، أظن أنه محموم ويخفي عنّي، وما يتبقى له من وقت يجب أن يرسم فيه هذه الأشياء، وكل ما يدرّ من دخل يجب أن يصرفه على الدواء والطبيب، يصعد السلالم كالعجزة.

سمعتُ صوتاً مرحاً من بعيد:

- مهري، مع من تتحدثين؟

انتصبت «مهريانو» واقفة، ذهبت وفتحت الباب، وأجابت بصوت مرتفع.

- تعال بنفسك لتشاهد، عندنا ضيف، أصبحت الآن مهمّاً ويأتون من إيطاليا لمشاهدة أعمالك، يجب أن تخجل من نفسك، ماذا لديك لتعرضه؟

تجلّت طلعة «خداداد» على مدخل الغرفة بقامة طويلة وصدر ضيق وشعر أشعث، ترجّحت خصلة منه على جبينه.

كان يتأبط علبة كبيرة ألقى عليها معطفه، وضع على الأرض الجرائد الفارسية أولاً، ثم رمى بمعطفه على حافة السرير بعد ذلك.

- سررت كثيراً بمجيئك، لكن أخبريني ألم تخافي؟ كيف تجرّأت على المجيء عندي؟

بعدها التفت ناحية «مهريانو» وقال:

- غير صحيح ما تقولين؟ إنها لم تأت من إيطاليا، أنت مسجلة في E. d. B. A، تعرّفنا على بعضنا هناك، أليس كذلك؟

راقت لي نبرته المبتهجة والحميمة، أجبته من صميم القلب بنفس تلك النبرة الضاحكة، فقلت:

- نعم، لقد جئت من إيطاليا الأسبوع الماضي، كان إستفانو يسأل عن أحوالك وعن رسام آخر، يبدو أنه حالياً في طهران..

غير أني لم أفهم لماذا نخاف؟

قاطعني:

- هل رأيتِ إستفانو؟ أما زال يتذكّرني؟ الشخص الآخر الذي سأل عنه، هو بالتأكيد، الأستاذ «ماكان»، أليس كذلك؟

قلت له:

- أنت أيضاً تعرف «ماكان»؟

قال:

- بالتأكيد أعرفه، لو لم يكن هو، لكان اليوم قد اهترأ على بدني ألف كفن. على فكرة، «مهريانو»، أرأيت أن الأستاذ قد أرسل رسالة، خذي، اقرئيها بصوت عال حتى تسمع ضيفتنا، لم أر رجلاً في حياتي بإحسانه وشجاعته، إنه لا يخشى شيئاً.

سلّم الرسالة لـ «مهريانو».

حينما تلفّظ باسم الأستاذ دبّت في بدني قشعريرة اشمئزاز.

كان الأستاذ قد أصبح رمزاً ليأسي وضعفي، وإحساسي بالنقص والإنهاك يزداد كلما زادت الأشياء التي تدل على أهمية الأستاذ «ماكان» وفضله. تشكّلت في ذهني الذكرى المتقطّعة عن يوم اللقاء الأول ذاك؛ وأنا أراه جالساً على مكتبه يشاهد أعمالي.

التفت «خداداد» ناحيتي وقال:

- أتعرفينه!

قلت:

- التقيت به مرة واحدة لكن لا أعرفه جيداً.

قال:

- مهري، لماذا لا تقرئين الرسالة بصوت مرتفع؟ كتب هناك في آخرها بعض الكلمات الخاصة لك، لا أريدك أن تقرئيها،

أولها من هنا...

أخذ الرسالة من يد المسكينة، وقال:

- خذي، اقرئي من هنا، أنت أيضاً أنصتي.

أعاد إليها الرسالة، وبدأت الفتاة تقرأ باستسلام هكذا:

«ما كان يجب عليّ القيام به من أجلكَ قد قمتُ به، وليس لدي أمل أن تصل إلى نتيجة في النهاية، رئيس دائرة الأمن يحسب لكَ ألف حساب، لقد وصفوك لدى فخامته بـ terrible(*).

ماذا فعلتَ حتى أصبحت سيئ السمعة لهذه الدرجة؟ لكن لا تيْئَس! إذا أردت، تستطيع أن تنجز شيئاً، يجب ألا تخلي الساحة، ما أسهل أن تصير عالماً، وما أصعب أن تصير إنساناً! انتظر حتى يتغيّر رئيس دائرة الأمن هذا، شريطة ألا تفقد جرأتك، يقولون إن جميع الرسومات والكاريكاتيرات التي تنشر في باريس عبر وسائل النشر والصحف الفارسية وحتى في المجلات الفرنسية عن أوضاع إيران هي أعمالك. لا قدّر الله!..».

لم يسمح «خداداد» أن تكمل الرسالة فقال:

- إنه أستاذ شهم.

ضحك «خداداد»، ولم أفهم معنى ضحكته، أكملتْ «مهربانو» قراءة الرسالة:

«لا تهتم، هذه هي الحياة، أحياناً يجب أن تتقبل الفشل، والآن دورك لتُضرَب، فالشّجار لا يخلو من الدموع والكسور..».

كانت رسالة مطولة، بيد أن «خداداد» كان في عجلة من أمره، وربما لم يكن لديه وقت حتى يستمع للرسالة حتى نهايتها، ذهب وفتح الجرائد التي كان قد لفّها بخيوط، جلس على الكرسي

(*) رهيب وفظيع (المترجم).

وشرع يقرأ إحداها، كانت «مهربانو» تقرأ الرسالة وأنا أنصت:

«كان رئيس دائرة الأمن ينقل عنك أخباراً، يقول إن صحيفة تحمل عنوان «پيكار» تصل كل أسبوع لجميع الطلبة في فرنسا، تصدر هذه الصحيفة في برلين، وأنت من توزعها على الشباب الإيراني في فرنسا..».

نظر «خداداد» إلى ساعته، ولم يترك رسالة الأستاذ تُقرأ إلى نهايتها، سأل «مهربانو»:

- ما غداؤنا اليوم؟ لا نستطيع الذهاب إلى المطعم، كما تعلمين، لأننا لا نملك مالاً، يجب أن نتناول شيئاً هنا، شيئاً تستطيع ضيفتنا مشاركتنا فيه.

أنا أيضاً نظرت إلى ساعتي، كانت حوالي الواحدة زوالاً.

أثّر فيّ إخلاصه، وقبل أن تستطيع «مهربانو» التغلب على حالة الاضطراب التي داهمتها، وتستعيد هدوء قسمات وجهها وتجيب، بادرتُ بالكلام، فقلتُ:

- إذا أذنتم لي، أنا أدعوكم لنذهب معاً لتناول الغداء في المطعم.

قال «خداداد»:

- إنها فكرة رائعة جداً.

- لا، أنت لا تستطيع أكل طعام المطعم، ألم يمنعك الطبيب من أكل اللحم، سيدتي، هو لا يفكر في نفسه أصلاً، أنا لا أسمح لك بالذهاب إلى المطعم.

غلب الضحكُ كلينا، أنا و«خداداد»:

- عزيزتي مهري، لا تغضبي، الحق معك، حسناً لنرَ ما لدينا؟

رمى بالصحف أرضاً، وتوجه صوب حقيبة كانت تحت سرير

النوم، أخرجها، وألقى نظرة داخلها وقال:

- خبز، زبدة، ما هذه العلبة؟ لدينا أيضاً الجبنة الهولندية، مربى كانت والدة مهري قد حضّرتها في طهران، وإذا أردت الموت اذهب إلى كيلان (*). والشاي يحضّره لنا صاحب البيت، وأنا يجب أن أشرب الحليب، إنها وجبة مَلَكِية.

بعد ذلك، سألني:

- هل أنت مستعدة لأن تشاركي فقراء مساكين؟

أجبته ضاحكة سعيدة:

- بالنسبة لي هذا كثير، حقاً أنا لم آت إلى هنا لكي أتناول الغداء، لكنني لا أقدر أن أرد دعوتكما.

التفت «خداداد» ناحية «مهريانو»، وقال:

- إذن، قومي، واطلبي من صاحب البيت أن يحضر لنا شاياً وحليباً، فضلاً عن ذلك، فإن وراءنا عملاً، إلى أن تحين الساعة الثالثة يجب أن نكتب العناوين على كل الصحف ونوصلها إلى البريد، الصحف المتوجهة إلى إيران يجب أن نلفها في صحف «ماتن» القديمة.

خرجت «مهريانو» من الغرفة، وبمجرد ما استفردتُ به سألتُه:

- ما هذه الصحيفة التي ترسلونها إلى إيران؟

علا وجهه التعجب، وقال:

- ألم تري أنت صحيفة «پيكار»؟ (**)

---

(*) من الأمثال الشعبية التي تستخدم عند السخرية من الشخص الذي يملك كل مظاهر الترف والرفاهية، ولكن على الرغم من ذلك يتذمر، فيقال له إن أردت الموت فاذهب إلى كيلان، حيث يقوم أهل كيلان بتوفير كل سبل الراحة لذوي الميت، بحيث لا يضطر أحد منهم إلى القيام بأي عمل لفترة قد تتجاوز الأسبوع (المراجعة).

(**) صحيفة يسارية إيرانية بدأت بالصدور في ألمانيا (المراجعة).

الحق أنني كنتُ قد رأيتُ هذه الصحيفة، كانوا يرسلونها إلى عنواني أحياناً، أتذكر مرة أن رسالة وصلت إلى جميع الطلاب الإيرانيين من السفارة تدعونا في حال وصول هذه الصحيفة لأن نسلمها للسفارة على الفور دون أن نفتحها، وكان هذا الأمر مدعاة لضحك الطلاب، وكل من لم ير صحيفة «پيكار» حتى ذلك الوقت، كان يطلبها من صديقه.

قلت:

- لا، لم أرها.

نشاط هذا الشاب بهي الطلعة بدا لي جديداً.

- أين عشتِ حتى لم تعلمي بوجود مثل هذه الصحيفة؟ تذهب إلى إيران حوالي ألف نسخة منها، يقرؤها عشرات الآلاف من الناس، على الأقل. تدور نسخها من يد إلى يد، هذه هي الصحيفة الوحيدة التي تصدر باللغة الفارسية وتكشف آلام الناس.

قلت لنفسي: الآن أعرف لماذا أوقفت الدولة صرف المنحة له.

أعطاني الصحيفة لأقرأها، وحكى لي لمدة عن موضوعاتها الرئيسة، وعن الاستبداد الحاكم في إيران.

حينما يتكلم كان جسده يرتعد بالكامل، وعيناه تصبحان مستديرتين وتلمعان، وبين الفينة والأخرى يرفع يده ليرد شعره المشتت عن جبينه ويرميه إلى الخلف.

كان يضع يداً في جيبه، ويحاول باليد الأخرى أن يجسد الكلمات التي تخرج من فمه.

أصابع يده اليمنى الخمس كانت دائماً ما تتمظهر في الهواء بأشكال مختلفة، وأحياناً يقذف بنفسه من كرسيه الذي يجلس عليه إلى الخلف في حركة سريعة، كما لو كان يستطيع من بعيد

أن يجعلني تحت تأثيره، بشكل أفضل. حين كان يضع رجلاً على أخرى يصبح أكثر هـدوءاً، وفجأة يهبّ واقفاً، ويضغط بكلتا يديه على حافتي الكرسي ويبقي جسده معلّقاً في الهواء وهو يتحدث.

هذا الشاب قطعة نار وكتلة أعصاب، كنت أحس بنفسي قريبة وطبيعية وغير خجولة أمامه، وهذا ما لم أشعر به قبل اليوم، إن صدى صوته القاطع والحاد يتردد كما يتردد صوت المطرقة حينما تضرب على السندان، لم أكن قد رأيت كل هذا الحماس والفوران في أحد من قبل.

تحدث لمدة عن أوضاع إيران، عن الجرائم التي تُرتكب والفساد والرشوة، وعن الثروات التي تنقل إلى الخارج على أيدي أبناء الأعيان أمثالي، وعن الأبرياء الذين يموتون في الزنزانات، والرجال الذين يقعون فريسة أهواء وجشع الشاه، وعن نشر الفسق والتزوير والرياء، وعن نفوذ الإنجليز الذين يسخرون من هؤلاء الرجال كما يسخرون من المهرجين. فجأة يتريث قليلاً، ويشير إلى حياتي، كأن يقول مثلاً:

- في الوقت نفسه أنا وأنت نتسكع في باريس، نسرق أموال هذا الشعب ونرميها بعيداً. هل فكرت، حتى الآن، من أين تُؤمَّن حياتنا أنا وأنت؟

كنت ملتزمة الصمت، حقّاً أنا أحس بالخجل في بعض الأحيان، كأني شريكة في كل هذه الجرائم ولدي مسؤولية في ذلك.

بعد ذلك، تحدثت أنا عن نفسي وعن أن E. d. B. A وبيئة الطلاب الإيرانيين جميعهم سبب في فقداني أعصابي، وتحدثت

عـن ضعفي وعدم رضـاي عن عملي، وعن الأسـتاذ، واعتبرته مقصّـراً، فهو أجبرني على الذهاب إلى الخارج، كان بإمكانه أن يعلّمني الرسـم، وأن يقول لي باللغة التي يجب أن يكون كل معلّم مطلعاً عليها، إن الرسـم يختلف عن التسلية، وإنه يجب عليّ ألا أهدر حياتي في عمل لم أُخلق له.

وقلت في النهاية:

- ماذا بإمكاني أن أفعل؟

- آه، كل شيء.

فُتح الباب ودخلت «مهريانو» وفي يدها بعض الكؤوس وسكين وشوكة، وتشاجرتْ معه:

- ألـم تقم أنت بأي عمل؟ هيّا انهض، وضع السـفرة، غطاء الطاولة عنـدك داخل الخزانة، رتّب الطاولـة، حتى أحضر أنا الشاي والحليب.

نهضتُ من مكاني واقفة وقلتُ:

- سـيدة مهري، ناوليني إياه، أنا سأعد كل شيء، أنت اذهبي وأحضري الباقي.

كان هـذا الرجل قد أرعبني، كنت أخاف أن أنظر إليه، تماماً كما أخاف الآن أن أنظر إليك.

* * *

قطعتْ المرأة المجهولة كلامها دفعة واحدة، تأوهتْ من أعماق قلبها، وكانت عيناها تلمعان من البلل، لم تكن دموعاً، هذه المرأة تنسى نفسها أحياناً، أنا لا أدري لماذا اختارت الصمت فجأة، ولم أشأ أن أَفْرِطَ عِقد ذكرياتها، حدّقَتْ بي للحظات، غير أني كنت أنظـر إلى الأرض، إنها صادقة، لقد كانت نظراتها مليئة بالعجز

والضعف، مع هذا لم أكن أرغب برؤية هذه النظرة. ثم بدأت من جديد:

- يا لك من رجل عجيب! لا أعلم لماذا أحكي لك قصة حياتي، كل هذا لا معنى له.

انظر إليّ! ماذا تخشى؟ أنا أبوح بما في أعماقي، انظر، أنت تفهم من عيني أني أقول الصدق أو الكذب، لم تعد بداخلي تلك القدرة التي تتصورها أنت، أتعلم أي نوع من الناس أنا؟ أنا ذاك الشيء الذي يسميه الناس، عادة، الإنسان الظالم، قوتي كلها تبرز فقط حين أواجه من هو أضعف مني، أما حين أواجه شخصية أكبر مني، تخور قواي ولا يبقى لي شيء، وأحس بضعفي إلى حد يثير الشفقة على وضعي، حتى ذلك الوقت الذي كان أستاذك مطيعاً لي.. لا، ليس مطيعاً، فمطيع كلمة غير جيدة، فهو لم يكن في أي وقت مطيعاً لأي أحد، حتى ذلك الوقت الذي كنت فيه بالنسبة للأستاذ متساوية معه، كنت ألاعبه، لكن حينما تسلّطتْ على كامل وجودي فجأة قوة أكبر من قوة الجمال، وكل ما تريد أن تسميه، قوة ما فوق اللامبالاة، وألقت بي الحياة بعنفها وقسوتها في غياهبها، لم يعد لدي حينها إرادة واختيار.

كنت طائرة ورقية هائمة في السماء، وغافلة عن أن رأس الحبل هو بيد طفل شقي مشرد. أتفهم ما أريد قوله، لم أدرك أبداً خلال تلك الأيام هذه الحقيقة المرة، كنت أتصور أن كل حركاتي وأفعالي هي بمحض إرادتي ورغبتي، واليوم أحاول أن أضع ذلك الإحساس الغامض والمشتت في قالب ما، كان خداداد أقوى مني أيضاً، لقد فتنني هذا القلب الرحيم والمحب بلا حد أو حصر، ولم أستطع مقاومته، لماذا أقول إحساس غامض ومشتت؟

لأنه من الصحيح أن نفــوذه الأخلاقي ترك أثراً في حياتي، بيد أن تأثيــر شــخصيته عليّ لم يكن قد وصل إلى عظمة الأســتاذ وجلاله، كان وجودي مازال لم يحترق ولم يتحول إلى رماد بعد.

أصبحــت مريدة لـ «خــداداد»، أريد أن أســاعده مهما كلّف الأمــر، لم أكن أؤمن بما يقوله لي، غير أني أحب أن أكون محط احترامه، لم يكن قصده خداعي، كلما يعطيني أمراً، كان ينبهني إلــى الخطر الذي يحتمــل أن يواجهني في حياتــي، لكنه أيضاً لا يستطيع أن يصب سائلاً مذاباً في عبوة زجاج أكثر من سعتها.

بعد أســبوع أو اثنين، كنت قد أصبحــت صديقة مقربة إليه جداً، لدرجة أن «مهريانو» كانت تأتي عندي وتشكو لي همومها، يــا لها من حيــاة مضطربة تلك التي يعيشــانها، لكن في الوقت نفســه، كانا على الدوام ســعيدين وضاحكين وراضيين، النضال جعلهما هادئين، كم أتحسر! لو كنت أعلم حينها ما أعلمه اليوم، لما وجدت امرأة تعيسة هذه الليلة جالسة أمامك، ولم يكن للوحة «عيناها» وجود، وربما كان الأستاذ مازال حياً أيضاً.

ليس معنى هذه الجملة أننــي قتلته، لا، معناها أنه هو أيضاً عرّض نفسه وعرضني أنا أيضاً للقتل.

«خداداد» ضحّى بنفســه من أجل الأستاذ «ماكان»، كان يدين بكل شــيء في حياته للأســتاذ، لقد صادفت في باريس ميزات بين هؤلاء الشــباب الذين ضحوا بكل شــيء، نقرأ عن نظيرها بالضبــط في كتب الماضــي، حينما كان هــؤلاء يثقون في أحد ويطمئنــون إليه، يتغاضون عن كل ما يملكونــه، الفرق أن الأمر فــي الماضي ربما كان تعبدياً، أما اليوم فهو أمر يصدر عن وعي ومعرفة وإصرار.

كان «مـــاكان» قد صقــل موهبة «خداداد»، وهو الذي يســـر مستلزمات سفر ابن البســـتاني الشريد إلى أوروبا ودراسته في باريس.

سألت يوماً «مهربانو»:

- لماذا يحب الأستاذ «ماكان» لهذه الدرجة؟

- أنا لم أر «ماكان»، لكن بحســـب ما يقول «خداداد»، أعرف الأستاذ أفضل من نفسي.

- كيف تعرفينه؟ أي نوع من الناس هو؟

- ولكنك قد رأيته.

- لـــم أقابله أكثر من مرة واحـــدة، كان رجلاً أنانياً وفظاً في نظري.

- يجب ألا يكون هكذا.

- عجيب، قولي لي!

- ســـأقول لك، لكن «خداداد» لا يرغب أن يتكلم أحد عن هذا الموضوع، لأنه خطير، ربما يقبضون على الأستاذ في طهران، لكن أنـــت لا تخبري أحداً، أنا أيضاً لا أعرف كل شـــيء. تتذكرين أنه قبل بضع ســـنوات تم إلقاء القبض على حوالي مئتي شخص من الطلاب والمعلمين والأطباء في طهران وبعض المدن الأخرى، أحد الأشخاص الذين كان من المقرر إلقاء القبض عليه، ومازالت دائرة الأمن تبحث عنه، هو «خداداد» هـــذا، أنقذه «ماكان»، أخفاه في منزله أســـبوعاً كاملاً، بعد ذلك، أرســـله إلى إحدى ضيع طهران التـــي كانت ملـــكاً لأحد أصدقائـــه، كما أعدّ لـ «خـــداداد» هوية مـــزورة، وبمجرد ما تم تغيير رئيس دائرة الأمن ورجعت المياه إلى مجاريها حجز له تذكرة وأرسله إلى الخارج. اسمه الحقيقي ليس

«خداداد»، لم يقل لي اسمه الحقيقي، كان يعطيه مصروفه لفترة، إلى أن أقدم من طهران على التسجيل بواسطة الرسام الايطالي إستفانو، وهذا الأخير هو من ألحقه بـ E. d. B. A، ومنحه شهادة خولتــه أن يكون من جملة الطلاب الحكوميين المبتعثين من طرف وزارة الثقافة، كان يأخذ منحته بشــكل منتظــم، ولم تكن حياته سيئة، كان بإمكانه أن تكون له حياة جيدة، لكنه كان يصرف أكثر ماله على طباعة الصحف والمنشورات.

قلت:

– لم أكن أصدق أن يكون الأســتاذ إنســاناً ذكياً وجسوراً إلى هذه الدرجة، عجباً، يا له من إنسان غريب!

قالت «مهربانو»:

– على العكس، الأســتاذ «ماكان» إنســان فريد جــداً. دَعِي «خداداد» نفسه يحكِ لك.

– لا أعلــم، مع هذه الضغوط الموجــودة حالياً في إيران، هل ضاق ذرعاً بحياته؟

– أليس «خداداد» هكذا؟ صحيح أن الإنســان هنا في الخارج يزداد جرأة، وبخاصة حينما يكون قد تخلى عن كل شيء، لكن مع ذلك، هم أناس عجيبون، يفكرون في الجميع، إلا في أنفسهم، إنه يرى دائماً الخطر المحدق بي ويحميني، لكنه لا يفكر في سلامة نفســه، لا يســير معي كثيراً في شــوارع باريس لئلا يرانا أحد من الســفارة معاً، ويســتدعوني من طهران، ويقطعوا مصروف دراســتي. وزعت السفارة بياناً على جميع الطلبة الإيرانيين بألا يختلطوا به، جميع من في الســفارة يعتقد أنه هو الوحيد الذي يحيد الطلاب الإيرانيين عن الطريق، ويوعّيهم بالسياسة.

- ماذا حصل حتى أوقفوا صرف منحته؟
- بسبب هذه المقالات التي كُتبت بالصحف في فرنسا.
- أهو الذي كان يكتب هذه المقالات؟
- كلا، لــم يكن هو من يكتــب المقالات، لكن هناك فتى يدعى «غيرت»، كان جاســوس الســفارة، يجتمع بالشباب وينتقد الشاه والدولــة أمام الطلبة، وحينما يقول أحد شــيئاً يزيد على كلامه، ويقدم تقريراً للسفارة بذلك. سرق هذا الفتى من محل في مدينة بوردو علبــة تصوير فوتوغرافيــة، وحبس ثلاثة أشــهر، وكتبتْ عــن الواقعة صحف بوردو، أما صحيفــة «پيكار» فقد نقلت خبر صحف بوردو تحت عنوان: «تعرفوا على جواســيس الســفارة»، تجــادل الطلبة الإيرانيون حول هذا الموضــوع كثيراً، كان العديد منهم غير مصدق، بيد أن «خــداداد» لم يأخذ حذره، وبحث عن نســخة لصحيفة بوردو باســم La Voix de Bordeaux (*)، والتي نشرت قصة سرقة «غيرت»، وعثر عليها وأظهرها للجميع. واضــح أن الفتى أضمر العداوة والحقد لـ «خداداد» بســبب هذا الموضوع، في النهاية أُجبر «غيرت» على العودة إلى إيران دون أن يكمل دراسته، وبعد سنة، ومكافأة له على الخدمات التي أسداها في فرنسا لرفع ســمعة البلد، عُيّن رئيساً لمصلحة التعليم العالي في وزارة الثقافة، ومن موقعه ذاك، أرسل تقريره السري والمباشر إلى البلاط، وكانت نتيجة ذلك قطع مصاريف دراسة «خداداد».

أنا عشقت هذا الولد وهذه البنت من صميم الفؤاد، يا للجرأة التــي كانا يعمــلان بها معاً، لا أحد منهما يفكــر أنه في النهاية لا يمكن العيش دوماً على هذا النحو.

---

(*) صوت بوردو (المترجم).

تقول «مهريانو»:

- حينما أكمل دراستي سأعود إلى إيران.

- وماذا ستفعلين مع «خداداد»؟

- هو كذلك سوف يرجع.

- في ظل هذه الأوضاع، لو عاد فسوف يعتقل.

- وهل الأوضاع ستبقى على هذه الحال للأبد؟

ما كان يواسيهما هو الأمل في المستقبل.

كنت أزورهما مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، على الأقل. أحياناً كنت أساعده، أرسم له صور حواشي المنمنمات، ألفّ الصحف التي يريد إرسالها إلى إيران، وأوصلها إلى البريد، وحين أحسست أنه في ضائقة مالية وحياته لا تسير كما ينبغي ببيع المنمنمات، أرسلت له مرتين بواسطة البريد مبلغ مئتي فرنك في كل مرة.

بعد فترة، ذهبت يوماً إلى بيته، وجدته طريح الفراش وكل بدنه متورم، اتضح أن كبده ليست على ما يرام، لم يكن معه مال حتى يزور الطبيب، بمجرد أن دخلت إلى الغرفة، قال لـ «مهريانو»:

- حسنٌ، مهري، إذا أردت أن تذهبي أنت، الآن، فلا مانع من ذلك. أنت، هل عندك وقت لتبقي هنا ساعة أو ساعتين؟

قلت له:

- ليس لدي ما يشغلني، وحتى لو لم يكن عندي وقت، فإني مستعدة لأن أبقى بجانبك الليلة كلها.

- آه، مهري، أتسمعين ماذا تقول؟ ألا تغارين؟

قالت «مهريانو»:

- لا تجعل من نفسك مهزلة، انظر كم أنت قبيح!
بمجرد ما ذهبت المسكينة، قال:
- أنا ليس لدي مال، هل تستطيعين أن تقرضيني؟
- أعطيك كل ما أملك.
- كم معك؟
- لـــدي بعض المال في البنـــك، والآن معي مئتان إلى ثلاثمئة فرنك.
- انظري بالضبط كم معك من المال؟
نظرت، كان معي مئتان وخمســـة وســـبعون فرنكاً، أخرجتها وأريتها إياه، وقلت:
- خذ كل المال.
تغيّر لون وجهه، وقطّب جبينه، وقال:
- قومـــي، افتحي تلك الحقيبة الموضوعة تحت ســـرير النوم! ثمة ظرفان ناوليني إياهما.
أطعت أمره، وميّزت خطي فوق الظروف بســـرعة، هما نفس الظرفين اللذين أرسلتهما إليه عن طريق البريد. فتحهما وأخرج منهما أربعمئة فرنك، وقال:
- تفضلي! هذا المال هو مالك، لا تبعثي لي مالاً بعد الآن.
- هذا المال ليس لي.
- لا تكذبي! أنا أريد أن أتكلم معك بجدية.
كان أســـلوب كلامه هذا فيه من التحكـــم والأمر لدرجة أثار دهشـــتي وتعجبي. كيـــف يجرؤ أن يأمرنـــي وينهاني هكذا؟ لقد أُصبت بالرعب، هذه أول مرة في حياتي أواجه رجلاً أقوى مني، وجمالي لم يكن له أدنى تأثير عليه.

سـيدي الوكيـل، لا أتذكر بالضبط كل الـكلام الذي دار في ذلك اليـوم، لأنه كان يتكلم وحده لمدة سـاعة ونصف، بل أكثر، لكني أعلم أني حينمـا خرجت من بيته، كنت قد اتخذت قراري الحاسـم. أنا أحاول الآن أن أقول لـك ماذا قال لي، وكيف قلب حياتي رأساً على عقب، أنا كشفت له نفسي ذلك اليوم، فُكَّت كل العقـد وحُلَّت جميع الأزمات التـي كانت تملأ ثقوب قلبي. أقول لك بصراحة، بعد ذلك اليوم، هذا هو اليوم الثاني الذي أفتح فيه قلبي وأكشفه لأحد.

منبع تعاستي هو في أن الأستاذ «ماكان»، هذا الرجل الشجاع والمجبـول على الإيثار، الذي كان يأسـر قلوب الناس ويسـيطر عليهـا، لم يـرد، أو لم يقدر أن يدرك مقدار القوى الشـيطانية والإنسانية التي تتجاذب في وقت واحد داخل أعماق روحي، بيد أنه، أي هذا الفتى المتحمّس، الذي كان يكبرني بسـنتين أو ثلاث فقط، أمسـكني في قبضته كما يمسـك فرخ دجاج، كان يقطع أنفاسـي، لكن بمجرد ما كان يفتح يده، كنت أسـتطيع استنشاق الهواء الطلق، حينهـا كنت أتذوّق كل المحبّة الكامنة في يده، في قبضة يده المملوءة، ألم أقل لك إني كنت روحين في جسد واحد؟ هو كان يسـتطيع أن يرعى الملاك الذي بداخلي، لكن أسـتاذك نمّى في قلبي الوحوش فقط.

قال لي:

– هل أشـفقت علـيّ حتى أعطيتني المـال؟ إن كنت صادقة، فلماذا لا تشـفقين على حال أولئك المزارعين الذين انتزع أبوك في طهران لقمة العيش من أفواههم وأفواه أطفالهم الجياع؟

تحـدث معي لفترة، كانت كلماته عذبة، وأنا كنت أحس جيداً

بأنــه يعمل بلطف وأناة على إنقاذي من المســتنقع الذي كنت قد علقت فيه، تحدث في البدء عن الرسم.

كان يقول لي:

- لا يمكنــك أن تصبحــي فنّانة جيدة، إنهــا أرض صخرية، أنــت لم تتذوقي في حياتك معاناة الفشــل، ففي ظل البيئة التي ترعرعت بها في طهران، والدائرة التي رســمتها حول نفســك، لا يمكنك أن تصبحي فنانة، الإنسان الذي لم يتجرّع مرارة الجوع في حياته، والإنســان الذي لم يرتعد جسده من البرد، والإنسان الــذي لم تُحرم عينه طعم النوم من الليل إلى الفجر، كيف له أن يستمتع بالشبع والدفء وأشعة شمس الصباح.

ذهبتِ مرة عند الأستاذ «ماكان»، وأساء معاملتك، حسنٌ! ماذا كنــت تتوقعين؟ ما الهدية التي كنــت أخذتها له؟ أكنت تريدين أن يقبّلك أم أن يستجديك؟ أردت أن تذهبي مجدداً! أردت أن تذهبي للمرة الثالثة، أن تترجيه، هو يملك ما لا يملك أحد من الناس، هو فنان، له ســلطة على أرواح الناس، فهو يستطيع أن يُحزن الناس، وأن يضحكهــم، وأن يبكيهم، أو يثير نشــاطهم، وأن يجبرهم على الحياة، هو يملك شــيئاً لا يمكن شــراؤه بالمــال ولا حتى بالروح، أمــا أنت فتتباهين بجمالك، ولأن المنحطين حولك كانوا يدلّلونك، تخيّلت أن الأستاذ أيضاً يجب أن ينحني لك لتتعالي عليه.

ذهبــتِ مرة عند الأســتاذ، وحكمــتِ عليــه دون أن تَرَيْهِ أو تعرفيه، وجئت وســلكت الطريق الأســهل، قلتِ في نفسك: لدي المال، وســأذهب إلى الغرب، هناك يوجد الآلاف من أمثال هؤلاء الرســامين، وأســتطيع، بما أملك من مــال، أن أتعلم الفن على أيديهم.

كتب لك والدك، لو كان لك أخ، لو كان لك عم، جميع أفراد طبقتك كانوا سيسدون لك نفس النصيحة: تزوجي وعودي! لو كنتِ صبياً، أتعلمين ما النصيحة التي كان سيوجهها لك والدك؟ كانَ سيقول: عد بدبلوم! الكثير ممّن في طهران اليوم لهم مثل هذه الدبلومات ويعيشون منها، يعيشون حياة جيدة، لكنهم ليسوا فنانين، سيستمر الناس في الحديث عن الأستاذ «ماكان» إلى خمسين سنة أخرى، وإلى مئة سنة أخرى، بل أكثر، بيد أن هؤلاء الملوك والوزراء يُنسون بمجرد موتهم.

كل هذا لا أهمية له عندك، أنت لا تبحثين عن الشهرة، أنت لا تلهثين وراء المال، أنت تتعقّبين السعادة، الإنسان لا يلقى سعادته بالدبلوم أو بالمال أو بالزواج، يجب تحمّل آلام الحياة حتى تغمز لك السعادة بعينيها من بعيد. انظري، أنا معتلّ، وربما مصاب بالسل أيضاً، لا أعلم، ربما أتصور ذلك فقط، في كل الأحوال أنا مريض ومعتلّ، لقد ولدتني أمي في حجرة صغيرة أسفل البستان بطريقة تأكدتُ فيها أن صاحب البيت لا يسمع صياحها، في تلك الحجرة المشبعة بالرطوبة ترعرعت مريضاً، أنا نفسي أعلم أني لن أعمر كثيراً، لن أعيش لأكثر من بضع سنوات قادمة، لكني سعيد، لدي يقين أنني أقوم بعمل، خلال السنوات العشر المقبلة سوف يستطيع المئات على الأقل من الأطفال المصابين بداء السل أن يتعافوْا، وهذا الشيء يسعدني، هذه هي المتعة التي أجنيها من وراء النضال، لست أخشى أحداً، لا رئيس دائرة الأمن، ولا منشورات السفارة، فهم الآن من يخافون مني، حينما تُنشر صورة لي في أحد معارض باريس، ويقوم السفير الإيراني بإرسال تقرير إلى طهران عبر التلغراف، أكون في أوج سعادتي،

لكـــن، لا تيْئَســـي، لم يفـــت الأوان بعد، تســـتطيعين أن تصبحي سعيدة.

طريق الفن ما زال مفتوحاً في وجهك، ابتعدي عن حياة التشرد والضيـــاع هذه التي ابتليت بها، اعملي، كافحي، اصرفي الأموال الطائلة التي تملكينها في أمور أخرى، اجلســـي في بيتك، اعملي بجد في المدرسة، تحمّلي آلام الفشل، لكي تصبحي فنانة..

كان يهينني، أنـــا وعائلتي وأبي، كان يهين الجميع دون قصد، بيـــد أنه كان صادقاً، كل ما يقوله عـــين الواقع، كان يضرم النار في أعماق قلبي، حينما داهمه السعال صمت لهنيهة حتى يجدد أنفاسه، قلتُ:

- «خـــداداد»، إن الوقت تأخر، أنـــا الآن أحس بأنني لا أملك أية موهبة.

شـــعرت برغبة خانقة في البكاء، فطفقت أبكي وأشهق، كانت هذه أول مرة أرى فيها نفسي ذليلة أمام رجل، قال «خداداد»:

- ابْكي، ليس عيباً، ولكن ليس في حضوري لأني لا أســـتطيع تحمّـــل بكاء المرأة، لماذا فات الأوان؟ كم انقضى من عمرك؟ لماذا تتســـرعين هكذا؟ بعـــض الناس يعانون طـــوال العمر، ثم يجنون ثمرة عمرهم في مرحلة الشـــيخوخة، أنت لم تكملي بعدُ خمس سنوات في الرســـم، وقبل أن يحدث أي شيء تريدين أن تبدعي رائعة من الروائع؟

- لا، لا أتحـــدث عـــن خلق روائع، أنا كســـولة، أنا لا يمكنني أن أخلق عملاً من تلقاء نفســـي، انظر إلى أنني تحت إرشاداتك سأنفذ كل ما تقول، لكنني أنا أستطيع أن أقوم بأي عمل بنفسي، لهذا السبب، أنا يائســـة. قررت مراراً وتكراراً أن أجلس وأعمل

بجد، غير أن الأمر لم ينجح، إن صفّارة شـــاب متسكع من تحت نافذتي تسـحبني إلى عالـــم من العار والخزي. لمــن أبوح بهذا الكلام؟

- حســنٌ، ليــس الطريق الوحيــد إلى الســعادة أن تصبحي رســامة أو فنانة، ما أهمية ذلك؟ مثلمـــا أن هناك آلاف الطرق توصل إلى الوضاعة والعدم، فإن السمو لا يكون فقط عن طريق الفن، تتخيّلين أنك بمفردك لا تســتطيعين العمل، هيا، تحركي، حتى يســاعدك الآخرون، حتى تستطيعي أن تخرجي نفسك من الجلد الذي قامت طبقتك بحشــوك فيه، هيا اذهبي إلى إيران، اذهبي إلى الأســتاذ، اعملي هناك تحت إشــرافه، واقتربي منه، لكن بتواضع، الناس في وطننا مســاكين إلى الحد الذي يجعلك قادرة على مساعدتهم بآلاف الطرق، ربما يكون هذا الألم الذي تكابدينه اليوم ســبب نجاتك، لكي تصيري فنّانة يجب بالضرورة أن تكونــي إنســانة، أنت ما زلت لا تعلمين فــي أي وضع يعيش أبناء وطنك، هيا، اذهبي إلى إيران! وكوني إنســانة! ربما تعثرين على طريق النجاح! فالحيــاة لا تقتصر على وجودك أنت فقط، إن لم تســتطيعي الآن أن تظهــري الوحوش التي تلتهم ذاتك في لوحة الرســم فاقتلي الوحوش التــي تجثم على قلوب الناس في إيران، ونجاحك هذا ســيفضي إلى تحرر آلاف الأشــخاص من شعب إيران، وسيحقق لك السعادة، هيا، اذهبي إلى إيران! هناك العديد من الشــباب الذين أكملوا دراساتهم في أوروبا، وأسسوا تنظيمات ســرية، ما زالوا لا يقدرون على القيام بأي عمل، إنما ســيحين ذلك اليوم الذي يســدون فيه خدمة كبيرة لهذا الوطن، إنهم في حاجة إلى مساعدة أمثالك.

جمالك هذا، الذي كان سـبب عـذاب روحك، من الممكن أن يكون مفيداً لهم في إنجاز أعمالهم الشاقة. اذهبي عند الأستاذ، اطلبـي العمل عنده، اذهبي إلـى إيران! اذهبي عند الأسـتاذ، بخضـوع وتفان، وليس بغرور وتكبـر، قولي له إنك كنت متعاونة معي أربعة أو خمسة أشهر.. قولي.. إن..

* * *

اتخذت قراري بعد ذلك بيوم أو يومين.

سـيدي الوكيل، إن لغزاً ما ضمّنه الأستاذ في هذه اللوحة في عيني، يكمن في هذا القرار، ومن هنا أخطأ.

أنا نفسـي لا أعلـم، وإلى اليوم لم أفهـم، لا أعلم أجئت إلى إيران كي أنقذ نفسي من الشقاء والبؤس اللذين ابتليت بهما في باريس، أم جئت إلى إيران لأذهب عنده، وأرتمي بين رجليه طالبة عشـقه، أم جئت إلى إيران كي أسيء استخدام وصية «خداداد» بالتقرب منه والتعرّف إليه، وأنتقم من الرجل الذي أوصلني إلى هذا اليوم الأسـود، أم جئت إلى إيران لأبدأ حياة شريفة وأكون إنسانة مفيدة؟

أنا لا أعلم هذا، وهو لا يعلم أيضاً، وأستاذك أيضاً الذي كان يستطيع أن يمنح حياتي قالباً، هو أيضاً كان متردداً في البداية، إنما بهاتين العينين الماجنتين اللتين رسمهما لي في هذه اللوحة، أهانني إهانة كبيرة.

لقد تصوّر أنني جئت إلى إيران لأجل الانتقام منه بإتعاسه.

* * *

كادت الغصة تخنق المرأة المجهولة، بيد أنها هبّت واقفة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، نادت على سكينة وسألتها:

- هل العشاء جاهز؟

- نعم سيدتي، منذ مدة.

قالت لي:

- تفضل سيدي الوكيل.

* * *

لم نتبادل ولا كلمة واحدة على مائدة العشـاء، كانت سكينة واقفة خلف الكرسي تنقل، بأمر من سيدتها، أواني الطعام من هذه الناحية إلى تلك، وكانت فرنكيس تحدّق في غطاء طاولة أبيض اللون، وتضع لقيمات في فمها دونما شهية، من الواضح أنها جلست إلى المائدة لتحول دون خجلي.

أما أنا فقد كنت أنظر إليها الوقت كله، تبدو امرأة تعيسة جالسة أمامي، امرأة أضاعت سعادتها في الحياة، وعبثاً تبحث عنها، لم يبق أي أثر للضغينة التي كانت في صدري تجاهها أول الليل، حتى إنه لوهلة راودتني فكرة أنه ربما يكون الأستاذ وراء بؤسها الحالي، كانت هذه المرأة هي حثالة المجتمع الذي ترعرعت فيه.

كنت أسعى لأن أنظر إلى عينيها، بيد أن رموشها الطويلة كانت تحول دون ذلك، وحين ترفع رأسها وأستطيع أن أشاهد هاتين العينين اللوزيتين المخمورتين لم أكن أرى فيهما أثراً للانحطاط.

حينها، كنت أسائل نفسي: لماذا لم يستطع الأستاذ أن يهدّئ من روعها ويدعوها إلى حياة شريفة؟

قبل أن تكمل سرد بقية قصتها، كنت أشفق عليها أكثر مما أشفق على الأستاذ، فهي في نهاية المطاف كائن حيّ جالس أمامي، هل كان من الممكن مساعدتها؟

أحسست، مع مرور الوقت، بأنه يجب أن أكوّن رأياً بشأنها، كانت امرأة شريفة، ربما أهم شيء فيها هو جلوسها قبالتي وإقرارها بمعاصيها، كانت تفصّل بشجاعة متناهية في نقاط ضعفها أكثر من اللازم، أليس هذا دليلاً على صفاء سريرتها؟ ما كان ممكناً أن تكون هذه المرأة مذنبة، إنما هي مسلوبة الإرادة،

واتخذتها الأحداث ألعوبة لها، مثل قشة ترتفع في دوامة الريح إلى الأعلى ثم تهوي، كانت هذه المرأة تحكي وقائع حياتها دون رياء.

كل النساء اللواتي من طبقتها لديهن حوادث مشابهة في حياتهن، ويعتبرنها عادية، ولا يؤنبهن ضميرهن، لكن هذه كانت تريد، من وراء استحضار الحوادث الجيدة والسيئة الماضية، أن تقضي على الجذام الذي يقضم شبائك روحها، حتى تنعم براحة البال التي تتمناها ولو للحظة واحدة.

في تلك الأثناء، تبادر إلى ذهني فجأة أنّ هذه المرأة ربما تكون مخطئة، كيف لنا أن نعرف أن الأستاذ نعت هذه المرأة بأنها لعوب وطائشة، أنا أرى هذه اللوحة منذ سنوات، ولم أعتقد أبداً جازماً أنها تجسد الأخلاق السيئة، كنت قد قلت لنفسي مرات عديدة إن هاتين العينين أخّاذتان، وليس واضحاً ما الفكرة أو نوع الإحساس الذي بيّنه الأستاذ، كنت قد جلست لساعات طوال وشاهدت العينين، وأحياناً أقول لنفسي إن الدموع يجب أن تجري من هاتين العينين، بعد هنيهة؛ دموع الحسرة، ودموع العجز والتضرع.

في أحيان أخرى، كنت أتصور أن هاتين العينين تكشفان عن امرأة عاشقة، امرأة لا تجرؤ على بيان حبها باللسان، امرأة حطمتها عظمة المعشوق وما زالت تحطمها، والمتفرّج ينبغي أن يدرك شوقها من هذه النظرة. أحياناً كنت أقول عكس ذلك: لا، صاحبة العينين تريد الإيقاع برجل في حبائلها، وتخطف فريستها بعد لحظة، وهذه المرأة بابتسامتها الساخرة التي تتضح من عينيها تشعر بمتعة حيوانية من حالة ضحيتها المحزنة.

لـــم أكن أفهم، أهاتان عينا امرأة عاشـــقة عفيفة، أم عينا امرأة شهوانية عاهرة؟

حينما وضعت السكين والشوكة جانباً، وطفقت أنظر مثلها إلى السـفرة البيضاء وإلى الكؤوس ذات الحافة المذهّبة، انتبهتُ إلى أن صورة عيني اللوحة لم تعد ماثلة أبداً في ذاكرتي، وأحسسـت برغبة شديدة في أن أشاهد الصورة مجدداً، انتصبت واقفاً، ومن دون أن أقــول شــيئاً، عدت إلى الغرفة التــي كنا نجلس فيها من قبل، فتحت اللفافة بسرعة ووضعت اللوحة أمام الطاولة وجلست أحدق فيهــا، لم أجد في هاتين العينين شــيئاً جديداً لم أكن قد أدركته حتى ذلك الوقت، بيد أن الأســتاذ في رأيي استخدم فطنة عجيبة في هذه الصورة، حينها، أشفقت على المرأة المجهولة.

وضعتُ اللوحة في مكان أستطيع النظر إليها دائماً، وتضطر المرأة المجهولة إلى أن تدير وجهها لمشاهدتها.

لم يطل الوقت أكثــر من بضع دقائق حتى فُتح الباب ودخلتِ المرأة إلى الغرفة، ما إن وقعت عيناها على اللوحة حتى ارتســم التعجّــب على محيّاها، وكأنّي بها تســمّرتْ في مكانها، غير أن هذا التعجب لم يدم ســوى هنيهــة، حتى إنها لم تتوقف، أغلقت الباب وذهبتْ على الفور فجلستْ في مكانها.

لــم تقل شــيئاً، لم تُبْدِ أية ردة فعل علــى إخراجي للوحة من غلافها من دون إذنها.

كنتُ أنظر إلى اللوحة، بينمــا تنظر المرأة المجهولة إليّ، ربما كانت تريد أن تعرف ماذا سيكون حكمي على هذه اللوحة، بعدما أصبحــتُ على علم بنصــف حياتها مع الأســتاذ، خيّم الصمت للحظات، وفي النهاية، بدأتُ الكلام، فسألتُها:

- جئتِ إلى طهران وذهبتِ، هل وجدت الأستاذ؟

لـم تجب، أخرجت سـيجارة من العلبة المرصّعة التي كانت موضوعة على الطاولة، وثبتتها على مبسم طويل كان موجوداً في العلبة ذاتها، أوقدت السيجارة ونفثت الدًخان من شفتيها الناعمتين في الهواء، وقالت:

- لا، ليس بهذه السهولة التي تتصور، اسمي ليس فرنكيس، فرنكيس اسم مستعار منحني إياه «خداداد»، وكان دائماً يناديني بهذا الاسم فقط، تقرر في الرسالة التي يكتبها له أن يناديني بهذا الاسم حتى إذا راقبوا الرسالة لا يعرفني أحد، كانوا يستعملون الرموز في كتابة الرسائل ويغيّرون أسماء الأشخاص باستمرار. اتفقنا في باريس على موعد، بأن أنتظره يوم الجمعة العاشر من شهر حزيران (يونيو) أمام باب السينما، كان قد كتب له أنني سأرتدي لباساً أبيض، وسأحمل في يدي حقيبة يدوية حمراء اللون، كان الاتفاق يقضي بأن أشتري تذكرتين في الساعة السابعة تماماً، بمجرد أن أراه، وأحتفظ بهما في يدي اليمنى، وأدخل إلى السينما دون أن أكلّمه، وهو أيضاً سيتعقبني، ثم نتحدث في الظلام.

أتذكر هذا المشهد نفسه، غير أن «خداداد» كان قد نسي أن دور السينما في الهواء الطلق تبتدئ عروضها متأخرة خلال شهر حزيران (يونيو)، وبالمصادفة، كان الازدحام شديداً في الشارع يومها، ولم أستطع تنفيذ أوامره بالتفصيل.

مرت بضع دقائق على الساعة السابعة، وكنت ما زلت لم أره بعد، وفي النهاية، تحدثنا قبل الدخول إلى السينما.

هكذا قابلته بعد رجوعي من أوروبا، لكن ما أسهل قول ذلك. انظر، يجب أن تأخذ وضعيتي بعين الاعتبار، حينها، يمكنك

أن تتصور بأي اضطراب وبأية توقعات كنت قد أعددت نفسـي لأول لقاء.

خـلال تلك الفترة، كنت امرأة واعية، قضيت خمس سـنوات في أوروبا حيـاة بلا قيود، زرت أكثر المـدن الأوروبية، والتقيت بأناس غريبي الأطوار، جميعهم كان يخطب ودّي، لكني كنت في الآن نفسه امرأة وحيدة وغريبة.

مدينة طهران بأسرها تعرفني وتعرف عائلتي، غير أني أحس بنفسـي غريبة ووحيدة بينهم، لم أسـتطع أن أنسجم معهم، ولم يكونوا يفهمون لغتي، وأفكارهم وإحساساتهم تشعرني بالاستياء، ليس ثمة ما يربطني بالناس ومن كان يسـمون حينها بـ «الناس»، أعنـي أولئك الذيـن كان كلامهم ينطوي على نفـاق، باتت لهم انطباعات تثير تقززي بعد إشـاعة والـدي أن له ابنة فنانة في أوروبا، وهذا الأب المسـكين، الذي يحبني كثيراً، كان في نظري أكثـر بعداً عني من أي غريب آخر. في الليل حيث كنا نسـتطيع الجلوس معاً والتحدث لسـويعات قليلة، كان كل وقته يضيع في إعداد لوازم الخمر والعَرَق.

كان يتجادل لفترات حول الكباب المشـوي بالسّـفود، أو حول بيض الخروف نصف النيء الذي لم يشـوَ جيداً، وحين كان يعب عدة كؤوس ويسكر، لا أظفر منه بشيء غير المزاح واللعب وتقليد صـوت أمي، فضلاً عـن ذلك، فإنه يريـد أن يتحدث فقط عن المتقدمين لخطبتي الذين اقتلعوا باب بيتنا من أساسه (*).

والدتي التي نسيت تماماً أني كنت حرة لمدة خمس سنوات في باريس، كانت تتخيّل أنني ابنة 17 سـنة مغمضة العين ومسدودة

(*) تستخدم هذه العبارة للدلالة على كثرة المترددين على المنزل (المراجعة).

الأذن، تتدخل في كل شيء، وتسألني عن المكان الذي ذهبت إليه في تلك الساعة ومن رأيت، ومن يكون ذاك الرجل الذي جاء في ذاك اليوم لزيارتي وترك بطاقته، وتلك الرسالة من أين وصلت، وأين سأدعى في إحدى الليالي، ولم أكن أريد إغضاب هذين الشخصين الحنونين اللذين كانا يحبانني حباً جمّاً.

خذ هذا بعين الاعتبار أيضاً، الحماس الذي كنت أنتظر به هذا اللقاء الأول، أنا تركت أعز شيء في حياتي، حرفتي تركتها خلفي تماماً، لأن «خداداد» كان قد لقّنني بتلميحاته أنني أستطيع أن أكون حلقة مهمة وقوية جداً في النهضة الجديدة التي بدأت تتجذّر في طهران ضد الاستبداد، وكان قد زرع فيّ فكرة أن الأشخاص مهما كانوا ضعفاء، فإنهم في مواقع خاصة وفي فرص استثنائية، يمكن أن يصبحوا عاملاً مؤثراً جداً، وربما يصبح مصير بلد بأكمله، في وقت معين، متوقفاً على تضحية فرد عادي، لا ليس تضحية، بل متوقفاً على جرأة وشجاعة إنسان بسيط، مثل برغي صغير يشغل مكاناً صغيراً في جهاز كبير. كنت أعتبر نفسي وسيلة كهذه، وأنتظر نتائج ذات قيمة من هذه التضحية التي قدمتها في الحياة.

كنت أقول لنفسي: في النهاية، هناك حركة مناهضة للاستبداد هي في طور التبلور في إيران، ومركز هذه النهضة، كما كان «خداداد» قد أفهمني ذلك، هي أوروبا، وأنا سوف أكون منسقة التنظيم في إيران، والشخص الذي يقوم في إيران بإدارة النهضة هو «ماكان»، وفي النهاية، فأنا ذلك البرغي الصغير الذي شغل مكاناً حقيراً في جهاز كبير، أنا يجب أن أبلغ الأوامر له، ولن يطول الأمر حتى أصبح الكل في الكل في هذه النهضة

الصامدة، وحينـــذاك، حتى «ماكان» يجب أن يخضع لســلطتي وإرادتي.. آه، يا لهول هذه الأحلام ويا لجمالها!

أتفهم، لم أكن معنية بمصير الشــعب في هذه البلاد، لم تكن آلامهم تؤلمني، ولم أكن شــريكة في معاناتهــم ومصائبهم، كنت فـــي أمان عن أي حادثة تقع، أية علاقـــة كانت بيني وبين هؤلاء الدهمـــاء الذين ملؤوا البلاد؟ ومن هـــم حتى أحمل همّهم؟ على الرغـــم من أنني عرضت نفســـي للخطر، لكننـــي كنت أفكر في نفســـي أيضاً، كل هذا صحيح، لكنّ هنـــاك أمراً يجب أن أقوله، ربمـــا أنت تتقبل ذلك، لكنه لم يتقبّلـــه أبداً، لو كان تقَبَّل ذلك لما كان رسم لي مثل هذه الصورة.

سيدي الوكيل، إن شئت صدق وإن شئت لا تصدق، أنا أريد أن أبدي لك جميع ثقوب روحي المعذّبة ومخارزها. اعتقد أســتاذُك أنـــي قابلته لكي أنتقـــم من الإهانة التي وجههـــا لي قبل خمس ســنوات، أي قبل ذهابـــي إلى الخارج، في الوقـــت الذي لم أكن أفكـــر، أبداً في تلـــك الأيام، بذلك اللقـــاء، أي منذ يوم 23 أيار (مايو) الـــذي عدت فيه إلى إيران، وحتى يوم 1 حزيران (يونيو) الذي لاقيته فيه، كان عالم جديد آخر قد فُتح في وجهي.

كان طموحـــي قد استُحِثَّ، كنت أريد من خلال النشـــاطات الاجتماعيـــة التي هي بالنســـبة لـــي تنطوي فـــي وجودها على أغراض شـــخصية أن أواجه السعادة، فنسيت تلك الضغينة التي في قلبي تجاه هذا الرجل.

منـــذ اليوم الثانـــي لوصولي إلى إيران، انشـــغلت بالبحث في حياته، حتى توصلت إلى أنه يذهب يومياً إلى هذه المدرســـة التي أنت وكيل فيها، ويخرج منها الســـاعة الخامسة أو السادسة، وفي

النهايــة، أي يوم 27 أيار (مايو)، من تفحصي به، وبالاعتماد على ذاكرتي، تعرفت عليه وبقيت لفترة أقاسمه المشي في الشارع جنباً إلى جنــب، وكنت أريد أن أتفحّصه بعينـــي الفنان الذي لم يمت بعد في نفســـي، وأحفظ تقاسيم وجهه، لم أكن ذلك اليوم، أنظر إليـــه بعين امرأة، امرأة راغبة ومتعطّشـــة، بيد أنني لا أعلم لماذا كان قلبي يخفق، وكنـــت أريد أن أعرف هذا الرجل المقدام الذي يضع روحه على كفه ويناضل، مستهزئاً من أعماق قلبه بكل قوى الاستبداد الغارقة في المظاهر البرّاقة، وأن أتعامل معه في اللقاء الأول ليوم العاشر من حزيران (يونيو) بصورة تكسبني احترامه.

بهذا الشوق وبهذا الاضطراب وبهذه التوقعات وبهذا الأمل.. قابلته دقائق معدودة بعد الساعة السابعة في العاشر من حزيران (يونيو) من العام 1935.

والآن، يجب أن أقول لـــك إن نظرة واحدة إلى وجهه، وتبادل بضع كلمـــات معه غيّرت حالتـــي هذه بأكملهـــا، وصرت - كما السابق - امرأة تحسّ أنها لاقت رجلاً أكبر وأشرف منها. أتَعْلَم، لو كان الأستاذ، مثل بقية الرجال، متيماً بي، ربما كانت نار الهوى قد ربطت بيننا بسرعة، وانطفأت بالسرعة ذاتها، ولكانت ذكرى الأستاذ اختفت وأصبحت طي النسيان كذكريات الآخرين.

هيّج قلبي إحساس غامض ومشتت، وظننت أنني أقابل رجلاً في حاجة إليّ، في حاجة إلى روحي وجســـدي. لا، واجهت رجلاً كنت أقدّســـه وأريد إســـعاده، وأريد أن أجد فـــي أحضانه تلك السعادة التي لطالما تمنّيتها.

ثمـــة الكثير من التناقض بين ما قلته لك، وما أقوله الآن، وما ســـوف أقوله فيما بعد. أحياناً يكون ما أقولـــه مرة واحدة غير

متناســب مع ما أضيفه فيما بعد، ولك أن تستنتج ما شئت، بيد أنني، في نهاية المطاف، لســت إلا ما تراه الآن، أنا الآن أكشــف لك نفسي كما هي دونما رياء، ليس في كلامي تناقض، إنما في وجودي ثمة تناقض، أتعلم بماذا يجب تشــبيه حياتي؟ بعين ماء زلال تتفجر من ركن فــي جبل، ماء صاف وبارد، هذا الماء الذي يهب الحياة وينعش الروح، هذا الماء الذي ينهمر من الجبل هائجاً صاخبــاً، وينبجس من بين الأحجار، ويقتلع الأحراش والنباتات، ويجتذب معه الحصى يدحرجها، وحين يصل إلى الســهل، يصل هادئــاً صافياً، يزيّن العشــب، ويمنــح الورود طــراوة، ويتدفق بالعطاء، هذا الماء نفســه حين يصل إلى مســتنقع أو حين يبقى في أحواض نتنة وعفنة، يصير ماء آســناً متعفناً، وإذا وصل إلى ســبخة ينفذ إلى عمق الأرض ولا يبقى منه أثر على وجهها، لكن حينما يرقد في قعر الأرض يصير صافياً وزلالاً من جديد، هذه هي حياتي، هي ذاك الماء الصافي والمنعش الذي يظهر بكل هذه الأشكال غير المتناسبة! وإذن، عن أي تناقض نتحدث؟

على عكس كل مــا كنت أظن من أن وجهه الظاهر لا يمكن أن يؤثر فيّ، فجبينه الطويل، وعيناه الواســعتان الخارقتان، ولباســه الأنيق، وحركاته الموزونة والمتئدة، وأسلوب كلامه الرصين، ووطأة يــده الثقيلة، كل هذا أشــعل فيّ النار دفعة واحــدة، ولم يبق من وجودي وشــخصيتي المصطنعين غير الرماد؛ أحسســت بنفسي تافهة وضعيفة إلى حد يصعب تصوره، كان هذا إحساساً جديداً، ولا يشــبه البتة ما كان قد انتابني إلى الآن، كنت أدرك أن وجهي سيعلوه الاحمرار من جراء كلمة واحدة ينطق بها، ولن يتبقى شيء من تلك الجرأة والجســارة في نفسي، كنت أخجل، تماماً كما كنت

في سن الخامسة عشرة، حالة من التشنج تداهمني وأنا أتواصل معه، لقد كنت أكنّ الاحترام لـ «خداداد»، أستمع لكلامه، كان يرعبني، لكن هناك لم يكن للمرأة الحسناء المتوارية في وجودي أي رجاء أو توقع، لكن هنا انتصبت امرأة راغبة، امرأة عاشقة، امرأة كانت لمرة واحدة قد تجرعت من رجل مرارة الإهانة والتحقير، وأحسستُ أنه لم يتبقّ لي أية سيطرة على نفسي.

حينما أظلمت السينما، سألني:

- ما اسمك؟

- فرنكيس.

ما إن سمع صوتي حتى نظر إليّ بعينيه الكبيرتين اللتين كانتا تبرقان في الظلام كبريق عيني القط الأسود، وكفتاة مسكينة وقعت أسيرة في يد رجل قوي، رجعتُ وألقيتُ عليه نظرةً مليئة بالضعف والعجز والحاجة والالتماس.

قال:

- كأنني رأيتك في مكان ما.

- أنا لم أرك في أي مكان.

- صوتك مألوف لأذني.

- تتصور.

لماذا كذبتُ؟ لأني كنت أريد أن ينقطع الخيط الذي ربط حياتي بحياته وبوجوده في الماضي، لم أكن أريد أن يعرف أنني تلك الفتاة التافهة والمتقلّبة والوقحة التي جئت يوماً إلى المرسم في شارع «لاله زار»، أردت أن يحترم شخصيتي.

كان يُعرض فيلم جديد في طهران، وفي تلك الليلة جاء الناس بكثافة لمشاهدة هذا الفيلم، وقد وُضعت في ممرات ساحة

السـينما مقاعد ليجلس عليها المتفرجون، وعلى أحد المقاعد لم يكن ثمة مكان لأكثر من فرد واحد، بيد أنني اسـتجمعت نفسي وأتحـت له مكاناً بجانبي، ولكي لا يسـقط من الأريكة وضع يده على مسـنَدها من الخلف، زاحمت قليلاً الشـخص المجاور لي، وقلت للأستاذ:

- اقترب أكثر حتى تستطيع الجلوس جيداً.

بيد أنه لم يُلصق نفسـه بي، وأنـا التي كنت أود أن يضع يده على كتفي ويضم جسـدي، كنت أود أن أحس بدفء جسده، وأن أمسـك يده بإحـكام وأضغط بها على صدري حتى أكشـف له نبضـات قلبي والاضطراب والهياج الذي سـيطر عليّ، آه، كنت أريد أن أظهر نفسي صغيرة وعاجزة حتى أستدر شفقته.

حكايـة لوحة «عيناها» بدأت من هنـاك، كيف كان ممكناً أن ينظر إليّ الأستاذ «ماكان»، وهو الرسام الكبير الذي يقرأ الأسرار من نظرة واحدة، وألّا يدرك الثورة التي استعرت في روحي؟ في تلك الليلة الأولى، انجذب إلى عينيّ، كان يسـأل نفسه دائماً ما السر الكامن في هاتين العينين؟ ما الذي تريدانه مني؟ كان، لعدة سـنوات متواليات، يبحث عن جواب لهذا السؤال، وفي النهاية، أجاب بالطريقة التي تراها الآن في هذه اللوحة.

بيـد أني يومها ما كنت أدري ماذا أريد؛ أنا كنت محتاطة من هذا الرجل الناضج والخجول والانطوائي والناري والفولاذي في الآن نفسـه، الرجل الذي كان يفكر في كل شـيء، إلا في مغازلة فتاة شـابة مثلي، منذ تلك الساعة الأولى، أحسست بأنني إذا لم أُخضِعْه لنفسـي، فلا مناص من أنه سـوف يسحقني، ربما كنت أنظـر إليه بتصنع وبعينين عاشـقتين، لكن لـم يكن قصدي أن

أعذبــه أو أن أخدعه، وكنت أريد أن أظهر نفســي كامرأة واعية ومجرِّبة، آه، لا أدري أكانت عواطفي طاهرة وتدل على التضحية، أم مصطنعة ومثالاً على النزوة؟ كان يســألني وكنت أجيبه أجوبة تحتمــل أكثر من معنى، في حين لم أكن أجرؤ أمام «خداداد» أن أقول إلا محض الحقيقة.

ســألني عن باريس وعن «خــداداد»، كان معنيــاً بأن يعرف تفاصيل حياته وصحته، وكان يسأل عن أوضاع الطلاب وعددهم وعــن تغلغل «خــداداد» ونفوذه بينهم، ســألني أكان لدي علاقة سياســية مع طلاب آخرين أم لا؟ متى يكملون دراســتهم؟ ومتى يعودون إلى إيران؟ وهل كان «خداداد» راضياً عن أنشطتهم؟ بعد ذلك، تفرغ لإسداء النصح إليّ.

كان الانشــغال بالأنشــطة الاجتماعية في ذلــك الوقت أمراً خطيراً؛ لعباً بالنار، يجب الحذر من التصور أن هنا مثل باريس، وأن يد الدولة لا تصل إلى المعارضين! سألني إن كنت قد سمعتُ أن دولــة إيران قد قطعت علاقاتها مع الدولة الفرنســية وتقرر إرســال كل الطلاب الإيرانيين إلى سويسرا أو بلجيكا؛ حذارِ أن أتخيّل أنني ســأبقى في أمان لكوني فتاة، لقد اعتقلوا الآن عدة نســوة من مدينتي «رشــت» و«تبريز»، واثنتان منهن تقضيان ما يقارب الســنتين في الســجن، رجال الأمن لا يرحمون أحداً، إذا أردت أن أكــون فــرداً مفيداً للمجتمع، يجــب أن أتوخى الحذر والحيطــة أكثــر من الحــد الذي يبــدو ضروريــاً، فالكلام في السياســة مع غير المؤهلين لذلك لا يجلب إلا الضرر، والتمجيد بنظام الدولة والديكتاتور في بعض الأحيان ليس ذنباً، وبما أنني قد عدت للتو من الخارج فإنه مما لا شك فيه أنني سأكون تحت

المراقبة، لذلك يجب التوقف عن الاتصال بالبعض، كما سألني: أمعك رسالة أم لا؟

كان يسأل ويريد جواباً صريحاً وواضحاً. أحياناً لم تكن أجوبتي تقنعه، حينها، كان يسأل مرة ثانية بدقة أكثر، أو يحلل سؤاله ويلفت انتباهي إلى الأمور المطلوبة.

لكن علاقتي بدنياه هذه كانت قد انتهت، لا تتصور أنه كان خائفاً، الأجواء في طهران يومها كانت أجواء خوف ورعب ويأس، فالجميع يخاف من الجميع، وخوفي لم يكن أقل أو أكثر من الآخرين، فضلاً عن ذلك، لم أكن أحس بخطر، فدائرة الأمن تستطيع أن تشرّد أمثال «خداداد» وتفرقهم. كان لعائلتي نفوذ في جميع أركان الدولة، وأنا لم أسمع قط أن الدولة قد اعتقلت أيضاً أناساً محترمين، أما اعتقال وزير الحرب وسجنه هو ورجال من طرازه فكان شأناً آخر.

هؤلاء كانوا مرتبطين بالسياسة العليا للدولة، وإلّا فلم يكن لأحد دخل بي، هكذا كنت أفكر مع نفسي. من ناحية أخرى، كانت حياتي رتيبة ومملة لدرجة أن التردد على ضباط دائرة الأمن لم يكن بالنسبة لي إلا ترويحاً عن النفس.

لم يعد لي في الحياة أكثر من هدف واحد، وكان الزمان بدأ يبتسم لي، فقد عثرت على رجل عشقته دون أن أراه أو أعرفه، واستدراجه بأية وسيلة كان أقدس واجب أتصوره لنفسي.

أي خطر أكبر من أنه كان يتحاور معي دائماً بشكل بارد ورسمي، كان قلبي يخفق فيما هو ينجز عمله غير مبال ولا مهتم، فأضطر إلى الكذب عليه.

لو كنت أعلم أنني أستطيع أن أقيم معه علاقة معنوية أعمق

من العلاقة السياسـية التي تربطني به لأجل القيام بالأنشـطة السرية، لكنت مسـتعدة لأن أرمي نفسي بين أقدامه، وأن أترك كل شـيء، وأن أفني شـخصيتي، لكن قلبي كان يشهد أنه يجب عدم التعامل معه بهذه الوسيلة، بل تجب مقارعته ومنازعته حتى ينهزم.

حكيت له عن حياتي وسفري إلى إيطاليا، وعن إطراء إستفانو عليه، كما شرحت له كيفية تعرّفي إلى «خداداد».

في حديثي كله كنت أظهر نفسـي مهمـة وجريئة وحصيفة، وحينمـا كان ينبّهني إلـى أنه يجب توخي الحـذر، كنت أجيبه: لا تهتم بأمري، انتهى الأمر، أنا أعرف جيداً طريقة التصرف.

كنت أتكلم عن الشباب في باريس بشكل يوحي بأنهم جميعهم عديمو التجربة وكثيرو الادعاء. منذ الوهلة الأولى لحديثي معه، وضعت قناعاً على وجهي، وتوصلت إلى أن هذا الرجل ينبغي ألا يطّلع على وجهي الحقيقي، وإذا اطّلع على ضعفي وجميع عيوبي، فلـن تبقى لشـخصيتي عنده أية قيمة. كنـت أنفخ في الأعمال الصغيـرة التي أنجزتها بأمر من «خـداداد» حتى تبدو منجزات كبيـرة، وأثير الحديث عن مواضيع ما كنـت قادرة على إدراكها يومذاك. كل ما سـمعته من الآخرين أو قرأته في الصحف كنت أنسـبه لبنات أفكاري، وأحياناً كنت أردد نفس كلمات «خداداد»، ولم تكن الضحكة تغادر عيني وشـفتي، اسـتعملت مهارتي في الغواية بالكامل.

في تلك الليلة الأولى بالذات، كان لديّ هدف من وراء كل هذا الغنـج، أثناء كلامه، كان قد قال لي إنه ليس من الجيد أن ألتقي به حتى وقت آخر، لم يشـأ إعطائي حتى عنوان بيته، في الوقت

الذي كنت قد اتخذت فيه قراري بالنسبة للمستقبل، وكنت أريد أن أخضعـــه للتجربة، ينبغي ألا يكون قادراً على عدم رؤيتي مدة طويلـــة، يجب أن يدرك، منذ هذه الليلة الأولى، أنه يقابل امرأة، امرأة لا يســتطيع تجاهلها، كما ينبغي ألا يتصور أنه يتواصل مع شـــخص سياسي عادي، يجب أن يفكر فيّ، وهذا ليس ممكناً إلا إذا رأينا بعضنا كثيراً، واســتمتع هو بمعاشرتي وحديثي العذب ووجهي الجميل وضحكاتي المبهجة وعينيّ الجذابتين الفاتنتين.

عندما تأثرت بـــ «خداداد» في باريس وقَبِلْتُ كل ما قاله، كان لذلك ســبب، كنت مستعدة هناك لأن أضحي بنفسي، فضلاً عن ذلك، فإن كل إنسان في باريس ينظر إلى أبناء وطنه بعين مختلفة.

عندما جئت إلى إيران واتصلت بالناس، أصابني اليأس، كنت أحســـب الناس العاديين أذكياء وشجعاناً، بيد أنني كنت أرى بأم عيني في طهران المميتة تلك أن الجزار يدفع الرشوة لرجل الأمن في أول الزقاق بكل تملق ورياء، وكنت هناك في باريس مســـتعدة لأن أفتدي بنفســـي الناس الذين تختزنهـــم مخيّلتي، فضلاً عن ذلك، فقد اعتقدتُ أن الاســـتمرار في الوجود بالنســـبة لي، أنا الفاشلة، غير ممكن إلا من هذا الطريق؛ أو أنه كان يتوجب عليّ أن أعيش مع أحد هؤلاء المنافقين والجهلة، أو أن أتعذب وأقضي على نفســـي، والطريق الثالـــث كان هو النضال، لقد أذكاني هذا النضـــال ومنحني الأمل، لكن بصـــورة مؤقتة، إلى أن قابلته. في باريس كنت قد بحثت، أنا عديمة الفن، عن عمل أكبر مني بكثير، وكنـــت عاجزة عن القيام به، وهناك، انتابني يأس قاتل، وحينها، أصبحت مســـتعدة لسلوك الطريق الثالث هذا. كنت أتصور أنني اكتشفت هدفاً في الحياة، إضافة إلى كل العوامل الشخصية، فإن

الحياة البسيطة واللطيفة لـ «خداداد» مع «مهريانو»، وبخاصة تضحيات هذه الفتاة الظريفة، كانت قدوة لي. في يوم من الأيام، باحت لي «مهريانو» وقالت: «لو كنت تعلمين كم أحب «خداداد»! رغم أني أعلم أن هذا الحب مآله الفشل، فـ «خداداد» سيغتال أو سيقضي على نفسه من فرط التعب والمشقة، إنه مريض أيضاً»، كيف لا يؤثر فيّ كلام هذه الفتاة البريئة؟ أقلعتُ عن مباهج باريس كلها، وجئت إلى طهران، وكنت أعلم جيداً ماذا ينتظرني هنا من شقاء.

لكن عندما تعرّفت إليه، في الشهر الأول أثناء لقائه في السينما وفي ثنايا الحوار الذي دار بيننا وخلال سرد أحداث حياتي الماضية في باريس، اكتشفت حقيقة أكبر.

كانت روحي وجسمي يطلبان شيئاً آخر. خلال السنوات الخمس كلها التي قضيتها في باريس لم ألتق برجل واحد يروق لي، ولم تكن روحي المصدومة مستعدة، ولو لمرة واحدة، لأن تطلب شيئاً من رجل.

صحيح أنني لم أكن أحب الناس في بلادي؛ لأني لم أكن أعرفهم، لم أكن آنس لهم، كانت «فضة سلطان» بالنسبة لي نموذجاً من أهل وطني، ويكفي أن أحرك لساني حتى تأتيني كالكلب الأليف محركاً ذيله، ولكن لو أن رجلاً مثل الأستاذ الذي افتدى هذا الشعب البائس والتعيس بكل ما يملك حتى بفنه، لكان من هذه الناحية جديراً بالتقدير والثناء.

كيف يمكنني أن أقارن هذا الرجل الجميل والناضج الذي جرّب الحرمان بأولئك المدلّلين من الإيرانيين المقيمين في باريس؟ لقد كانت أحاسيسهم الكاذبة تشعرني بالاشمئزاز، وجميعهم كان

يطلب جسـدي، في وقت كنـت أتمنى أن أنثر روحـي، أريد أن أمنح جسـدي لشخص يأسـر روحي، وأودّ أن أحصل على ذلك الشـيء الذي أنا متعطشـة إليه، ولو بالعـراك وبالإجبار، لا أن يأتيني أحد ويطلب مني شـيئاً ويرجونـي. لكن هنا في طهران، أمام هـذا الرجل الفذ، هذا الرجل المظلوم والعنيد الذي يفتدي بفنه الإنسانية.. آه، ماذا عساني أن أقول؟

آه، كم كنت أود أن أشـرح لك ما لا أسـتطيع بيانه. لا تتصور أنني عشقته من النظرة الأولى تلك، لا، على الإطلاق، ليس الأمر كذلـك، لم أعشـقه، ولم أكنّ له في قلبي ضغينـة، غير أن هذا الرجل ترك في وجودي تأثيراً.

كان قد أضرم ناراً في قلبي، تقضِ أعماقي وتحرقني، كيف أشرح لك؟ ربما تفهم، ربما يكون الاشمئزاز الذي أخفيته في قلبي بعد أول لقاء به في البيت الكائن في شـارع «لاله زار» بمثابة ماء كامن تحت التبن، كان يثيرني ضده دون أن أعلم بذلك، غير أني لم أنتبه إلى هذا السر في تلك الليلة وفي الليالي التالية في السينما، إنما هناك شيء؛ كانت لهذا الرجل شـخصية تدعوك إما إلى عشقه وإما إلى تعذيبه، ليس من الممكن تجاهل هذا الرجل، وكنت أود أن أتشاجر معه.

حينمـا اقترب الفيلم مـن النهاية، وكان كلامنا على وشـك الانتهاء، سألته:

- أنت تقول إننا يجب ألا نلتقي كثيراً، ماذا تقصد؟

- حسنٌ، لا نرى بعضنا كثيراً في الوهلة الأولى.

- أنا لي شـأن معك، أنت لم تأمرني بالقيام بأيّ عمل، أنا لم آت إلى طهران لأتسـكع، ماذا يعني «كثيراً»؟ أعني متى أراك في المرة المقبلة.

- في الوقت الحاضر، يجب أن ننتظر ثلاثة أسابيع أو أربعة.

- وكيف ستخبرني بذلك؟

- سنحدد موعداً لذلك.

- يجب تحديد الموعد الآن.

حملق بعينيّ في الظلام، ثم قال:

- ولماذا الإصرار أيتها الفتاة؟

ضحك. راق لي حديثه هذا كثيراً، فقلت:

- أحب أن أراك أكثر.

- هل عندك هاتف؟

أعطاني رقم هاتفه وأعطيته رقم هاتفي أيضاً، سجّل الرقم، أما بالنسبة لي فلم يكن تسجيل الرقم ضرورياً، لأني لن أنسى رقم هاتفه أبداً.

سألته:

- هل أهاتفك إذا كان لديّ أمر ضروري؟

- إذا كان أمراً مستعجلاً وضرورياً، فنعم!

رأيت أن هذا الطريق ليس سالكاً، فدخلت من آخر، فقلت:

- أنا يجب أن أخبرك بموضوع مهم هذه الليلة، لأنك صديقي الوحيد في طهران، وإذا أذنت أن يكون لي هذا الشرف، فأنت الرفيق الوحيد الذي أشاطره أسراري، يجب أن أستشيرك في جميع أعمالي، لأني ليس لدي أي شخص آخر، والدي رجل طيب للغاية ووالدتي طيبة أيضاً، لكن في واقع الأمر، هذان الاثنان عزما على القضاء عليّ، يريدان تزويجي مهما كلّف الثمن.

قال بلا مبالاة:

- خيرٌ، إن شاء الله.

امتعضت مـــن برودته هذه ولامبالاته، ليس لأنه غير مهتم بزواجـــي، لكن لأن إظهار لامبالاتـــه بزواجي هو عدم اهتمامٍ مـــن طرفه بمصير النهضة وتقدمها. لـــم أجب، تريّث قليلاً، ثم قال:

- ربما مصلحتك تكمن في هذا.

سألته:

- مصلحتي في ماذا؟

قال:

- فتـــاة مثلك يمكن أن تكون مفيدة جـــداً في العمل الخطير الـــذي ينتظرنا، لكن التردد في هـــذا الطريق لا يوصل المرء إلى نتيجة.

قلت:

- وأنا لن أسمح للتردد بأن يداهمني ولم أسمح، لهذا السبب، قلت إني أريد أن أراك كثيراً.

حينها لان وقال:

- هاتفيني في الوقت الذي تريدين.

خلال تلك الليلة الأولى، دار بيننا الكثير من الكلام، وتحدثنا عن كل شـــيء، باستثناء ذلك الشـــيء الذي شُغفت أنا به، كنت أريـــد أن أتحدث عن اللوحات التـــي يعمل عليها، بيد أني كنت أعرف أنه لا يروق له ذلك، وقد سمعت أن الناس كانوا يحدثونه بهـــذا الكلام غير المجدي، وهو كان يجيب ســـاخراً، أو يكتفي بالـــرد بكلمات بصـــوت خفيض، في وقت كان فيـــه قلبي حقاً يتحرق شـــوقاً لرؤية لوحاته، بعد كل الذي سمعته من إستفانو و«خداداد».

بدأتُ ثانية:

- ما رأيك لو آتي إلى المدرسة وأشاهد لوحاتك هناك؟ أنا أيضاً كنت على وشك تعلم الرسم.

قال:

- أعلم، لكن مع ذلك، أوصي بألا تظهري بقربي لأسبوعين أو ثلاثة.

قلت:

- إنك تحتاط كثيراً.

قال:

- هذا ضروري، أنت أيضاً يجب أن تفعلي ذلك.

لم أفهم تلك الليلة أبداً ماذا استنبط من لقائه معي.

قلت لك إن هذا الرجل غطّى وجهه بغطاء من التمنّع والحزن الخفي، وما لم يذب هذا الجليد، فإنه ليس بمقدور أحد أن يرى مرآة روحه الصافية. كنت على وشك أن أتصور أن هذا الرجل جبان، إذ لم يكن ممكناً تفسير كل هذا الاحتراز بشيء آخر، كان يحتاج في عمله إلى توخي الحذر، بيد أني بدافع الحب كنت بحاجة إلى العجلة.

استطعت أنا مرة واحدة في الحياة فقط أن أمزّق هذا الغطاء البارد والسميك، في تلك الليلة بجانب نهر «كرج»، ما أكثر الأشياء التي باح لي بها، كان متوجساً من عينيّ، وكان يقول إنني نظرتُ إليه مثل ثعبان يريد أن ينوّم أرنباً، كان وجهه يتخذ حالة جديدة حين تقطيب حاجبه الذي يتراءى في امتداد عينه اللوزية، وكانت عيناه أخاذتين، وكأن صاحبهما يعاني من شيء، ما كان يطيق النظر طويلاً في عينيّ، غير أني كلّما حوّلت نظراتي تجاهه في ظلمة السينما، كنت ألاحظ أنه منتبه إليّ.

أود كثيــراً أن أتكلم عن تلك الليلة الأولى في الســينما، لكني لا أتذكّر شــيئاً، ليس لأنني لا أتذكّر شيئاً؛ لقد نُقشت في ذهني تفاصيل ذلك اللقاء كلها وللأبد، وســوف ترى من خلال كلامي أن الكثير مما تحصّلت عليه تلك الليلة، قد أشار إليه هو بنفسه. هذه اللوحة التي رســمها، لــو أردت الحقيقة، هي صورة وجهي فــي تلك الليلة الأولى في ظلمة الســينما، كان ما زال لم يدرك بعد حقيقة العينين وكلامهما، كانتا عبارة عن شيء تائه وغامض في الظلام، كنت في العادة أجمع شــعريٍ وأعقده خلف رأســي، لكن في تلك الليلة أرخيته وتركته منسدلاً يتموج على كتفيّ، وكان شــعري قد أحاط بكامــل وجهي. انظر، باســتثناء العينين، فإن كامل الشــفاه والفم والوجنة والذقــن والأنف والجبين باقية في الظلام، ولا يظهر من رقبتي شيء.

لقد أضاف العينين بالشكل الذي أراده في هذه اللوحة، وهذا ما يعذبني.

في تلك الليلة، كان لــدي عالم خاص، لعبت ومزحت مع أبي في البيت بشوق ونشاط لم يكن يتوقعه على الإطلاق.

علــى عكس العادة، حيث كنت أذهــب وأجلس جنب المصباح ذي القاعدة، وأقرأ كتاباً، جئت قرب أبي، وجلســت في الغرفة، وســكبت قليلاً من الفودكا في ماء «آبعلي» المعدني، ثم احتسيته. قليــلٌ من الكحول يجعلني أتعمق أكثــر في الحالة التي أمر بها، وأرى أكثــر، وأتذوق أكثر، وأحس بالألم أكثر شــدة، وأجد اللذة أكثر إنعاشاً.

ذهبــت إلى غرفة نومي متأخرة، وشــغّلت آلــة الكرامافون، وتمشّــيت في أطراف الغرفة، كانت الســاعة تشير إلى الواحدة

والنصف بعد منتصف الليل، فُتح باب غرفتي، وإذا بأبي يأتيني مرتدياً الروب دوشامبر عنابي اللون، ويسألني:

- لماذا لا تنامين؟

- طار النوم من عيني.

- لماذا؟

وضعت رأسي على كتف أبي، فبكيت حتى اشتدّ نَحيبي، ثم قلت:

- لا أعرف.

يا له من أب حنون ومتفهّم. داعب شعري، لكنني لم أمهله وقتاً، فأخرجته من الغرفة، وقلت له:

- اذهب، سأنام الآن.

داهمتني مرة أخرى، ربما لآخر مرة، حسرة حارقة، وتمنيت لو كنت رسّامة، ولو كنت أستطيع أن أعيش مرتاحة البال.

لم أره لعدة أيام، وكل الوقت أتحيّن ذريعة كي أهاتفه، وكنت، كل يوم عصراً، أطوف حول مدرسته، على أمل رؤياه، أذهب حتى باب بيته، وأسأل هاتفياً خادمه «آقا رجب» عن أخباره، عندما كنت أعلم أنه ليس في البيت، أتحدث هاتفياً مع «آقا رجب» وأستفسر عن أحواله، حتى إنني مرة قلت له: قل له إن فرنكيس اتصلت بالهاتف لعلّه يهاتفني.

في النهاية، سنحت لي فرصة بصورة تلقائية، إذ وصلتني رسالة من «مهريانو»، وكانت قد كتبت أن وضع «خداداد» سيئ للغاية، وقد أخذوه إلى المستشفى. جمع بعض أصدقائه الطلاب سرّاً مبلغاً من المال، وإلى الآن كانت مصاريفه مؤمنة، لكنهم ما عادوا يقوون على عمل أي شيء، فضلاً عن ذلك، فإن «مهريانو»

نفسها لا تستطيع أن تتردد إلى المستشفى كثيراً، لأن جواسيس السفارة، لو رأوها هناك فسوف يوقفون صرف منحة دراستها بالتأكيد، وحتى هذه المساعدة البسيطة سوف تنتهي، و«خداداد» نفسه لا يرغب في أن يراها أحد تتردد إلى المستشفى كثيراً، فهو يدَّعي أن مرضه لن يطول أكثر من بضعة أيام، وسيغادر المستشفى، لكن الأطباء ليسوا متفائلين إلى هذا الحد، كان طلب «مهريانو» أن أتصل بالأستاذ على الفور طلباً للمساعدة، ربما يستطيع، رعاية لأوضاعه وأحواله، أن يرسل له مصاريف دراسته.

اتصلت بالأستاذ هاتفياً، ورجوته أن ألتقي به في سينما «قصر» عند الساعة السابعة والنصف لأمر مستعجل، ألمحت له أن رسالة وصلت من «خداداد»، ورؤيته ضرورية.

على عكس التوقع، قبل على الفور، والتقيت به ليلاً أمام باب السينما، كان وجهه منقبضاً، يوحي باعتقاده أن طلبي لا أساس ولا داعي له.

حين سلّمته الرسالة قال:

- ماذا كتب؟ أنا لا أستطيع قراءتها الآن.

سردت عليه ملخص الرسالة، وبعد ذلك قال:

- لن يعطوه مصاريف الدراسة، واضح أن الرسالة كتبت من دون علم «خداداد»، وهذا يدل على أن حالته ليست على ما يرام.

- يجب في نهاية المطاف أن نقوم بشيء من أجله!

- يجب توفير مبلغ من المال وإرساله إليه.

- كم تريد أن ترسل له؟

- سأحاول، خلال بضعة أيام، وعلى أبعد تقدير خلال أسبوع، أن أهيئ مئتي تومان أو ثلاثمئة، وأرسلها له.

- أنا سأرسل له غداً ثلاثمئة تومان، وأنت تردها لي فيما بعد.

- من أين ستحضرين المال؟

- سآخذه من والدي.

كنّا كلانا نسند ذراعينا على حافة الكرسي، وقد قرّبنا رأسينا من بعضنا، لنتكلم بصوت خافت.

ألقى نظرة عجيبة على وجهي، ثم قال:

- أنت فتاة طيبة.

ابتهج قلبي لثنائه، ضغطتُ بذراعي على ذراعه، فوضع يده فوق يدي وشدّ عليها بحرارة.

أمسكت يده بكلتا يديّ، وتذوقت حرارة يده بشوق شديد، كما لو أنه كُتب لي أول نجاح في العراك الذي كنت أعدّه مع هذا الرجل.

بدت عيناه الكبيرتان أكثر اتساعاً، لكن فجأة تنحّى جانباً، وارتخت شدة قبضة يده، كأن أصابعه قد بردت، فامتعضتُ لتغير حالته هذه، وأنا بدوري، شئت أم أبيت، رفعت يدي عن الكرسي، ولم نتحّدث بعدها مع بعض، وتفرغنا تلك الليلة لمشاهدة الفيلم، كان فيلماً موسيقياً.

* * *

انقضى شهران أو ثلاثة من حياتنا على هذا النحو، كنت أراه على الأقل مرة واحدة، وأحياناً أكثر، في الأسبوع، وأحس بفراغ في الأيام التي لا يكون لدي أمل في لقائه، لا أعرف كيف أملأ وقتي، كنت بانتظاره كل حين، أنتظره على الدوام في الشوارع التي لا يتردد إليها أبداً، في ساعات كنت أعلم يقيناً أنه منشغل بعمله، في البيوت التي لا يعرف أصحابها في الأساس، وكنت أتصور أن المعجزات تقف في صفي لأصل إلى هذه النتيجة وأظفر بلقائه.

هذا في الوقت الذي كان يحيل عليّ، من الشهر الثاني، أعمالاً كثيرة، وأنجزها بشوق ولهفة من دون أدنى تخوف. أمرني بأن أتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة، آه، ما أصعب وأقسى العمل على هذه الآلة، بيد أني تعلّمت، وكنت أعمل يومياً سبع ساعات لمدة ثلاثة أسابيع كاملة، كنت مذهولة لصلابتي في العمل، لكن هذا الطريق هو الوحيد الذي تبقّى لي في الحياة، عندما كنت أنجز العمل الذي يوكله إليّ، ألاحظ ارتياحه وسروره، وسروره هذا مصدر حياتي، ويثير حماسي.

عندما تعلّمت الرقن على الآلة الكاتبة، أعطاني رسالة وطلب مني أن أستنسخ عنها خمسمئة نسخة.

التقيت به في اليوم الذي كان ينوي إعطائي الرسالة في السينما، وقال لي:

- أريد أن أسلّم لك رسالة لتنسخي منها خمسمئة نسخة على الآلة.

- ما أسعدني، إذ تسند إليّ في النهاية عملاً!

- أتدرين أنه عمل خطير للغاية؟

- ليس هناك من خطر في الطباعة على الآلة.
- سوف تُنشر هذه الرسالة، وإذا علموا بأنك من كتبتها على الآلة، فسيقبضون عليك، وسيكون الوضع حينها سيئاً للغاية.
- أنا مستعدة، أعطني الرسالة، سلّمها لي الآن.
- هي ليست معي.
- أكنت تظن أنني سأرفض تنفيذ أمرك؟
- لا، كنت أعلم أنك ستقبلين، لكنني كنت أريدك أن تنجزي العمل بعد إدراكك للخطر المحدق بك.

تقرّر أن يحضر شخص الرسالة إلى بيتي في تلك الليلة، أتذكّر جيداً نص الرسالة، كان الشاه ينتوي شراء عقارات بالقرب من مدينة «تنكابن»، أكثرها يعود للملاكين الصغار.

كان مسؤولو العقار يتوافدون على القرى، ويقتادون الناس عنوة إلى مكاتب الإسناد الرسمية، ويأخذون توقيعاتهم.

وقبل أن يحين دورهم، فرّ بعض القرويين ليلاً من «تنكابن»، ولجؤوا إلى طهران عند أحد كبار القضاة من أبناء بلدتهم، والذي كان يملك هو الآخر هناك بضع مئات من الفدادين.

لم يجد القاضي بدّاً من أن يشتكي من موظفي العقار إلى الشاه نفسه، لا أعرف كيف وصلت هذه الرسالة التي تحتوي على ما يقارب الخمسين سطراً إلى يد الأستاذ، أنا نسخت من هذه الرسالة خمسمئة نسخة، وبحسب الاتفاق السابق، جاء إلى بيتنا في إحدى الليالي الساعة العاشرة، في الوقت الذي كان فيه الجميع يغط في النوم، رجلٌ لم أستطع حتى استبيان وجهه، ونقر عدة نقرات على زجاج غرفتي، فسلّمته الرسائل، حسب الأوامر التي لدي، على دفعات، وأخذها. بعد بضعة أيام، وصلت إحدى

هذه الرسائل إلى أبي.

والدي الذي انتابه شـــكّ من تعلمي الرقـــن على الآلة الكاتبة، بعد مضي بضع ليال، وفي منتصف ليلة، كشف لي الرسالة، وقال:

- أرأيت ماذا وصلني من البريد يوم أمس؟

- لا، أبي العزيز، ناولني إياها لأقرأها ونعرف ما فيها؟

- في الحال.

حينمـــا ذهبت إلى غرفة نومي، لحـــق بي والدي، وفتح الباب وقال:

- ليس ضرورياً أن تقرئي الرسالة، فأنت من كتبها على الآلة الكاتبة.

لم أجب، لأن الإنكار لم يكن ممكناً.

- بنيّتي، أنت تلعبين بالنار، وتهدرين ســـمعتي وشـــرفي، هنا ليس بلاد الغرب، من يدفعك إلى هذا العمل؟

- لا أحد، لكن، والدي العزيز، شرفك لن يدنَّس من جراء هذه الأعمال، على العكس من ذلك، ستزداد شرفاً.

- أنـــت أدرى، إنمـــا أكتفي بـــأن أقول لك إن هـــذا العمل له عواقب وخيمة، منذ أن انتشـــرت هذه الرســـائل في طهران إلى اليوم، تم القبض على ما لا يقل عن ثلاثمئة شـــخص، وتم تغيير وزير البريد والتلغراف بســـبب انتشار هذه الرسالة، سبّه الشاه، وقـــال له: اذهب إلـــى بيتك ونم، والكلام يـــدور الآن حول تغيير رئيس دائرة الأمن. لو يعلمون أن في بيتنا آلة كتابة فلن يحين يوم غد حتى يسووا بيتنا بالأرض، ما قلتُه ليس مبالغة، فقبل مجيئي إلى غرفتك كسّـــرت الآلـــة ورميتها في خزان المـــاء والبئر لكي لا يبقى منها أثر.

أصغيتُ إلى كلام والدي في البداية باضطراب وخوف، لكن حينما قال إنه كسّر الآلة الكاتبة وتخلّص منها، لم يبقَ لي حينها أي سيطرة على نفسي، علا كامل وجهي الاحمرار وانقبض قلبي، وامتقع لون محياي، وأصابني تشنج لم أعرف له مثيلاً من قبل، حينما فتحت عيني، كان والدي قد غادر الغرفة، وأمي جالسة بجانبي ورائحة الناردين تفوح من الغرفة.

كنت مصابة بضعف الأعصاب دائماً، وكانت الحساسية المفرطة تعذبني على الدوام، لكن ليلتها كنت أول مرة أصاب فيها بأزمة حادة.

في اليوم التالي، وفي الصباح الباكر حين كان والدي يستعد للخروج، استفردت به وقلت له:

- أبي العزيز، ماذا فعلت بالآلة الكاتبة؟

- قلت لك إنني رميتها في خزان الماء.

- أبي العزيز، لحفظ ماء وجهك وشرفك سأشتري الآن بنقودي آلة رقن أخرى، لكن يجب أن تعلم أنني فتاة راشدة، وإذا أردت أن تجعل حياتي صعبة، وألا تتركني حرة فيما أقوم به من أعمال، فسأترك بيتك وأنصرف الآن.

ألقى والدي عليّ نظرة ملؤها الخوف، وخرج من البيت دون أن يقول شيئاً. هاتفت الأستاذ على الفور، وحددت موعداً معه، اتفقنا على أن نلتقي ليلاً في المكان المعهود قرب باب السينما.

حكيت له ما جرى في الليلة السابقة من حوادث، وسردت له بالتفصيل ما دار بيني وبين والدي، وألمحت إلى أنه يجب أن أترك ذلك البيت، ولا أدري ماذا أفعل.

كنت أتمنى، من أعماق قلبي، أنه إذا لم يدعُني إلى بيته، فعلى الأقل أن يوافق على أن أهيئ بيتاً، أستطيع أن أراه فيه أحياناً على انفراد، قلت له إن أبي يحبني كثيراً وحتى لو غضبتُ وخرجتُ من بيته فهو مستعد أن يؤمّن لي مصاريف الحياة بصورة مشرّفة، غير أن الأستاذ أومأ برأسه، وقال:

- لا، على العكس، من الواضح الآن أن هذا البيت ملاذ جيد، ليس لك وحدك بل لنا جميعاً، أنا الآن ارتحت أكثر، هو الآن يقاسمك سرّاً، لكنه يخاف، الجميع يخاف، البعض بدرجة أقل، والبعض الآخر بدرجة أكثر، يجب أن تخبريه شيئاً فشيئاً، أبوك هو الآخر من أولئك الذين فقدوا عقاراتهم في «مازندران»، وما كسبه في طهران، عوضاً عن ذلك، لا يمثل حتى خُمس ممتلكاته السابقة، لذلك، فهو في أعماق قلبه مؤيد لنضالنا.

يجب أن تبقي في هذا البيت، وتتعاملي مع والدك بمحبة وتودد، ومثل هذه الأعمال أنجزيها في البيت الآخر الذي سأدلك عليه، والدك إنسان مفيد.

بعد بضعة أيام، جاءني رجل الساعة الثانية بعد الظهر يرتدي ملابس صغار التجار، وكان يحمل إليّ في يده رسالة منه، وذهبنا معاً إلى بيت يقع خارج المدينة، وهناك في حجرة صغيرة تغطي أبوابها طبقة من القطن ثبتت بمسامير، كانت ثمة آلة للكتابة فوق طاولة صغيرة، قال لي التاجر:

- لا يوجد أحد غيري في هذا البيت، متى أنهيت عملك فأنا جالس خلف الباب، أخبريني لأوصلك إلى بيتك.

قلت:

- ماذا يجب عليّ أن أعمل؟

- افتحـــي آلـــة الطباعـــة، وســـتجدين هناك ورقـــة لتقومي بطباعتها.

لا أتذكّر اليوم ما كانت تلك الرسالة الثانية، ربما لم تكن مهمة، لكنها كانت كذلك بخصوص النضال ضد دائرة الأمن، لأن الكثير كان قد اعتُقل، فكان من الضروري نشر رسالة أخرى حتى يساور دائرة الأمن الشـــك والتردد، فيما لو اعتقلتْ بعض الأشـــخاص المسؤولين. جلست واشـــتغلت لمدة ساعتين أو ثلاث، وحين قمت تعبة منهكة لأذهب، ناولني رسالة الأستاذ، كان قد كتب فيها أنه مـــن الضـــروري ألا أتصل به لأيام، ولـــو بالهاتف، ضاعفت هذه الرسالة تعبي أضعافاً كثيرة، وكدت أن أفقد وعيي، تحمّلتُ هذا وسيطرت على نفسي حتى لا يعاودني التشنج الذي أصابني في اليوم السابق، كنت أودّ أن أقوم بعكس ما أمر، وأذهب في صباح اليوم التالي مباشـــرة إلى مدرســـته، وأقول له إن الأمر استعسر عليّ، وإنني أفقد القدرة في السيطرة على نفسي.

لا تدري كم كنت أشـــعر بالخوف عندمـــا كان يأمر بألا أراه، لأن رؤيتـــه تمنحني القوة والصلابة. يبدو أنني حينما كنت عنده اعتبـــرتُ نفســـي جريئة، لكن حقيقة الأمر هـــي أنه كان مصدر قوتي.

عندما قرأت الرســـالة، جلســـتُ هناك على الدّرج للحظات، وقلتُ للتاجر:

- هل يمكنك أن تحضر لي كوباً من الماء؟
- لا، لا يوجد في هذا البيت أي شيء.
- لماذا لم تعطني الرسالة في أول الأمر؟
- أمرني سيدي أن أسلمَها لك عندما تريدين المغادرة.

استغرقتُ في التفكير، هل أدرك الفضل الذي يغدقه علي حينما يكلّفني عملاً؟ لماذا لم يعطني الرسالة قبل تسليم العمل، لا بد أنه يعلم إلى أي حد تعلّقت به، ويعلم أنه من شدة اليأس ربما لا أنجز العمل على الوجه الأكمل، كان يعلم هذا، لقد انكشف أمري، والآن هو من يسيطر عليّ.

* * *

فجأة، انتشلت المرأة المجهولة نفسها من ذلك الزمن الماضي، وصرفت وجهها إليّ وقالت:

- بالمناسبة، أتعرف من كان ذلك التاجر الذي رافقني إلى ذلك البيت؟

- لا.

- كان «آقا رجب»، وكانت تلك المرة الأولى التي قابلته فيها.

تعجّبتُ، وعلى نقيض القرار الذي كنت قد اتخذته، قاطعتُ كلام المرأة المجهولة، وسألتها:

- «آقا رجب»، خادمه؟

- نعم، «آقا رجب»، فرّاش مدرستكم.

- إذن، هو على علم بعلاقاتك كلها مع الأستاذ وبالأعمال المشتركة التي قمتما بها، ومع ذلك، لم يحرّك ساكناً! كم ألححت عليه!

- لا يمكنك أن تتصور مقدار وفاء هذا الرجل ومودته، كان كلام الأستاذ، بالنسبة إليه، بمثابة وحي منزّل، وكان مريداً مضحياً بنفسه، مستعداً لأن ينفذ كل أوامر رفيقه وقائده تنفيذاً أعمى.

- عفواً، لأني قاطعتك.

أكملت المرأة المجهولة قصتها:

- قررت الرجوع إلى البيت والذهاب مباشرة في صباح اليوم التالي إلى مدرسته، وأشرح له ما الذي دفعني إلى القيام بكل هذه التضحيات، أصررتُ على أن أخبره بأنني على استعداد لأن أتحمل آلاف الأخطار، لكن ليس من أجل ما يتصوره هو، أدركت أنه لم يعد بوسعي الاستمرار في هذا الوضع، كنت أريد الاستسلام، هكذا بدا لي أنه ليس بمقدوري أن أبعده عن طريقي.

بمجرد أن عزمت الخروج من بيته السرّي، قال «آقا رجب»:

- سيدتي، انتظري لبضع دقائق، أمر سيدي أن تحرقي هذه الأوراق، واحذري أن تتركي معك شيئاً.

- لا يوجد معي أي شيء.

- ابحثي مرة أخرى في حقيبتك اليدوية وفي جيوبك.

بحثت ولم أجد شيئاً، وأحرقت كل ما كان ممكناً إحراقه، وما إن أردتُ فتح الباب، حتى سمعت صوت عربة قادمة، قال السيد «آقا رجب»:

- تعالي لنذهب باتجاه العربة، سأذهب أنا أولاً، ثم بعد دقائق معدودة تخرجين أنت، اسحبي الباب جيداً، سيُغلق تلقائياً، أنا سأذهب مباشرة إلى بيتك، وأنت تذهبين في العربة.

حينما عدت وجدت الفوضى تعم بيتنا، رأيت أمي جالسة خلف الباب بانتظاري، و«فضة سلطان» هناك أيضاً بعباءتها السوداء المرقطة، وقد جلست القرفصاء تثرثر مع أمي.

«فضة سلطان» هذه كانت صديقة أمي منذ الطفولة، ولدت في بيت أمي، وحينما انتقلت والدتي إلى بيت الزوجية، أصبحت مؤنستها وتقوم بكل أعمالها، وهي التي ربّتني، ولأنها لا تملك

أحــداً في هذه الدنيا فقد غمرتنــي بكامل المحبة التي ادخرتها في قلبها الحنون.

بمجرد أن طرقت الباب، فتحته «فضة ســلطان»، ودخلتُ إلى البيت، فقالت العجوز باضطراب شديد:

– الحمد لله، أحمدك إلهي مئة ألف مرة.

لم تسمح أمي لـ «فضة سلطان» بأن تضيف كلمة أخرى.

عند الولوج إلى مدخل بيتنا، كنتَ تجد على الجانب الأيمن غرفة والدي، وشــمس مساء الخريف قد أغرقت الفضاء كله بنورهــا، ومن خلف النافذة، كان الرمّان الأحمر المدوّر يتراءى لامعاً.

كان الحوض ممتلئاً ماءً، و«بابا» منهمكاً في سقي البساتين، فالعجـوز كـان يعمل في بيتنا منذ ثلاثين ســنة، وكان والدي قــد جلس في غرفته علــى مقعد وثير، يدخن ســيجارة في هدوء.

وثمة رجل عجوز وسمين، أسود البشرة، تغزو التجاعيد وجهه، أصلع الرأس وقد تربع على الأرض، يقلب الأوراق.

سألتُ والدتي:

– من هذا؟ وماذا يريد؟

– جاء من دائرة الأمن، إنه يقلّب غرفة والدك بأسرها، رأساً على عقب.

لم أترك أمي تكمل كلامها وتوجهت مباشرة صوب أبي، ألقى ضابط المباحث نظرة عليّ، وقام من مكانه وســلّم، سألتُ والدي كما لو أني لا علم لديّ بما يجري من حولي:

– أبي العزيز، ما الخبر؟

- يقولون إن البريد قد أحضر رسـالةً إلى هنا قبل عدة أيام، أنا لم أر شيئاً، والآن هم يفتشون.

بعد هنيهة من التأمل، قال:

- هذا هو المهم، لا أعرف ماذا يريدون! دعيهم يبحثوا.

التفت الرجل السمين والأصلع إليَّ، وسأل والدي:

- ما اسم السيدة؟

قلتُ له:

- ما دخلك أنت حتى تسأل عن اسمي؟

تدخّل أبي وقال:

- بنيّتي العزيزة، لا تتسـرعي، الرجل مكلَّفٌ مهمةً وهو ليس بمخطئ، تلقى أوامر، والآن يجب أن يقوم بعمله.

بعد ذلك، وجّه والدي كلامه إلى رجل المباحث وقال:

- إنها ابنتي.

ثم قال له اسمي.

كان للرجل السـمين وجه بشـع، ويبدو من ملامح وجهه أنه إنسان سيئ، لكنه كان يتكلم بأدب.

قال رجل المباحث:

- نعـم، الأمر كما تقولون، ما ذنبنا نحن، سـاعي البريد هو من قال في تقريره إنه أحضر رسـالة إلى هنا، هناك الكثير من أمثال هؤلاء الحقيرين، ربما اختلط عليه الأمر، بعد هذا التقرير، أصبحتم موضع شـبهة لدى المسـؤولين الكبار، لكنني أحترمكم وأقدركم، وأعلم أن جنابكم من الأشـخاص الذين باعوا أملاكهم فـي «مازندران» لجلالة الملك عن طيب خاطر، لقد أخذتم طبعاً مصلحة البلاد بعين الاعتبار.

الجميــع يعلــم أنه من الأفضــل ألا يوجد مُــلّاك صغار في «مازندران»؛ ربما لم تكن الرســالة باســمك، وربما أيضاً تكون السيدة الصغيرة قد فتحتها.

سألته:

- أية رسالة؟ من كتبها؟

أراد الرجل ذو الهيئة البلهاء أن يبرز نفســه في ثوب إنســان مهم، نظر إليّ بعينيه المقززتين وابتســم، كان يريد - كما يظن - أن يختبرني، لكنه لم ينجح، لم أمنحه الفرصة، وقلت لأبي:

- دعه يســأل جميع من في البيت إن كان قد أحضر ســاعي البريد أمس رسالة إلى هنا أم لا.

كان لــديّ يقين بــألا أحد من أهل بيتنــا؛ لا أمي، ولا «فضة ســلطان»، ولا «بابا» العجوز ســينبس ببنت شــفة، وقد عاشوا جميعهــم في بيتنا على الأقل عشــرين إلى ثلاثين ســنة، وكانوا هم أهل الــدار وعلى اطّلاع بحياة أبي السياســية في الماضي، وقــد تعلّموا في الدرس الأول أنه في مثل هذه الحالات يجب ألا ينطقوا بكلمة واحدة.

ثم أضفتُ بعد ذلك:

- فضلاً عن ذلك، يســتطيع ســاعي البريد أن يُفْصِح عمّن تسلّم الرسالة.

قال الرجل:

- أنا قلت لكم إن ساعي البريد ربما يكون قد أخطأ، وبالتأكيد اختلط عليه الأمر، أضف إلى ذلك أنه أقرَّ بأنه لم يسلّم الرسالة لأحد، بل رماها من تحت الباب إلى داخل المنزل.

حينذاك تحــدث الرجل، الذي ينبثق الريــاء والنفاق من كل

جملة من جمله، عن نفسـه، وقال إنـه منذ زمن بعيد وهو يقدّر عائلتنا، وهـو ممتعض من هذا التفتيش الذي تسـبّب في أذية أناس محترمين، كان يقسـم بالله وبدم حنجرة علي الأصغر (*) إنه قدّم اسـتقالته ألف مرة، لكن ماذا تُراه يفعل وهم لا يتركونه في حال سـبيله، كان يقول إنه أُجبر في يوم من الأيام حتى على تفتيش منزل صهره، لكنه عبد مأمور، والمأمور معذور.

في الوقت الذي كان يعلم تمام العلم أن صهره إنسان مستقيم وليس من أهل الخداع والمكر، والعجيب في الأمر أن صهره هذا كان قـد تقدم بطلب للعمل في وزارة الداخلية، كما أنه ينظر إلى مثل هذه الأعمال من وجهة نظره هو. كان يُستنتَج من كلامه كله أنه إنسـان بريءٍ وغير مذنب، وهو نفسه يدرك جيداً أنه يفتّش هذا البيت عبثاً.

ثم قال أيضاً:

- لكـن، في نهايـة المطاف، هناك في هـذه المدينة من كتب هذه الرسائل وتسـبّب في إزعاج الناس وشقائهم، ودائرة الأمن سـتعثر بكل تأكيـد على هؤلاء، آلة الكتابة التـي رُقنت بها هذه الرسـائل هي من نوع «كونتننتال»، والآن نتوفر على صور لجميع هذه الآلات التي دخلت إلى إيران خلال السنوات القليلة الماضية، وهذه الليلة سيُعرف أين هذه الآلة الكاتبة.

كان يقـول ذلـك، وفي الآن نفسـه، يقلب صفحـات الكتب، يتصفّحها ويعيد تقليبها، وفي الآخر، قال:

- كلا، لا شيء هنا.

(*) المقصـود هو ابن الإمام الحسـين بن علي بن أبي طالب الذي قتل في كربلاء وعمره سـتة أشهر (المراجعة).

كان والدي قد بدأ ينفعل، وقال:

- إذن، قل لنا ماذا نفعل نحن؟

غيّر الرجل الموضوع، وسأل:

- ألا تملكون في هذا البيت آلة كاتبة؟

حينما ذكر اسم الآلة الكاتبة اعتلى وجهي الاصفرار، غير أنه كان أشد بلاهة من أن يفهم شيئاً.

انتصبت واقفة وأردت الخروج، أدرت ظهري ناحيته لهنيهة، وأجاب والدي:

- أنا رجل تقليدي وخطّاط، وابنتي أيضاً ولغاية بضع سنوات سابقة كانت تتعلم الخط، ليس لنا عمل ننجزه بالآلة الكاتبة.

برودة أعصاب والدي أنعشتني، رجعت ونظرت إليه نظرة استحسان وإعجاب، وقلت:

- أبي العزيز، دعه يفتش البيت كله.

قال والدي:

- أنا لا أمانع، فليفتش.

سألني ضابط المباحث:

- ألا تعرفين الرقن على الآلة الكاتبة؟

- الرقن على الآلة الكاتبة لا يتطلب المعرفة، كل شخص يعرف ذلك.

- على يد من تعلمتِ؟

- لم أتعلم، أنا أعرف الرقن عليها بأصبع واحد.

- أين كتبتِ بأصبع واحد؟

- كان لدينا في مدرستنا آلة طباعة، وهناك طبعت.

- أتستطيعين أن تريني آلة الكتابة؟

- لماذا أريك أنا؟ أنا غادرت تلك المدرسة منذ عشر سنوات على الأقل.

- أنا سألتك، عن هذه الأيام؟

- أنت متى سألت عن هذه الأيام؟

الاستجواب الذي اجتزته ذلك اليوم، وبرودة أعصاب والدي التي دفعتني إلى الجرأة والصمود، والرعب الذي تحملته إلى أن نفي والدي إلى إقطاعه الصغير، كل هذا كان جديداً بالنسبة لي، خلال تلك الأيام، تذوقت طعم الخوف والهلع من دائرة الأمن، وكنت أنتظر، في كل لحظة، أن يأتوا ويقبضوا عليّ أيضاً، حينما كان يُقرع الباب، أصاب بالهلع، وأخاف من ظلي، وأخجل من عيني أمي المضطربتين.

لكن أهم من كل هذا الخوف والرعب كان الإحساس الجديد الذي يبهج قلبي وروحي، أقول لنفسي: لقد ارتفع شأني لديه الآن.

لم أعد البنت الصغيرة التي تنشد القرب منه رغبة في المغامرة، لقد أحرزت لنفسي شخصية.

عندما خرج ضابط مباحث الدائرة السياسية من البيت، عاد أبي ثانية إلى غرفته، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، جلس على كرسي مكتبه، ورتّب أوراقه.

جلسنا نفكر معاً لدقائق معدودة، ووالدتي جالسة على سجادة الصلاة في الغرفة المجاورة.

في النهاية، قلت:

- أبي العزيز!

أجاب أبي بهدوء وتأمل:

- اتركيني وحيداً لبعض الوقت حتى أفكر.
- أبي العزيز، كنت أود أن نكون وحدنا ونفكر معاً.

انتظرت للحظات حتى يجيب، حينها استدار فوق كرسيه ونظر إلي، نهضت من مكاني وتوجهت إليه وضممت رأسه إلى صدري بشدة، ثم ألقى والدي يديه وقبلني على رقبتي ووجنتي وجبيني وبكى.

قلت:

- أبي العزيز، أنا من تسببت لك بهذه المتاعب.
- لا يا عزيزتي، لا تفكري هكذا، أنا أفتخر بأن لديّ بنتاً مثلك.
- ولكن لا يمكن تحمل كل هذه المصائب، انظر، إذا كانوا يعاملونك أنت بهذا الشكل، فكيف الحال مع بقية الناس؟
- أنت لك أمل كبير في الناس.
- لو أردت الحقيقة، أنا لا أتوقع الكثير، لكن هذه الأعمال هي وحدها التي تبقيني في الحياة.
- وهذا هو الأسوأ! من يكتب هذه الرسائل؟
- لا تسألني هذا السؤال، ليس لدي الحق في أن أجيب.
- أنت تعلمين، أنا دائم التفكير بك، ليس من الضروري أن تغتمّي لحالي، فلن أعيش طويلاً، لكني أريدك ألا تصبحي تعيسة.
- لا يمكن أن أكون أكثر تعاسة من الآن.

مسح بيده على شعري وقال:

- لماذا يا ابنتي العزيزة؟ ما الذي حدث؟
- لا تسأل، أنا نفسي لا أدري ماذا أصابني.

حينها، نصحني قائلاً:

- لا تقولي، إن لم تشائي أن تقولي، أنت وأمثالك لا تستطيعون أن تزحزحوا أركان هذا النظام، أتعتقدين أن هذا النظام واقف على رجليه حتى تستطيعوا أنتم قلبه؟ إن الذين يحافظون عليه لا يتوجسون من لعبة الغميضة التي تلعبونها أنتم، هذا الغول يحتاج إلى المزيد من الضحايا، بيد أني لا أرى في أحدٍ رجل المرحلة، أخشى أنكم عوضاً عن أن تضعفوه، سيصبح أكثر شراسة ويهاجمكم بلا هوادة. وصلني أن بعض الطلاب في الخارج يحاولون، ورأيت أيضاً صحفهم، إذا كنت تعتقدين أن الطريق الذي تسلكينه صحيح ولا تستطيعين سلوك طريق آخر فواصلي، وليكن الله معك، لا بد أن هذا الأمر أساسي بالنسبة لك.. جميع ممتلكاتي هي تحت تصرفك.

في هذه الأثناء، رنّ جرس الهاتف، إنه من دائرة الأمن، يريدون الحديث مع والدي، معاون دائرة الأمن طلب من أبي أن يقوم بزيارة إلى مكتب المدير العام بين الساعة السادسة والسابعة ليلاً.

عندما رجع من عند رئيس دائرة الأمن، وعلى عكس تصوري، كان عادياً جداً وهادئاً.

لم تكن تبدو على حركاته وكلامه أية آثار للاضطراب أو القلق، وخلال الليل، وكما العادة، جلس أرضاً في غرفة عمله بمعيتي أنا وأمي، كان قد ارتدى منامته، ورمى عباءته على كتفه، وصينية الخمر موضوعة أمامه، واستعمل قطعاً من الرمان المقشر، وقليلاً من الخبز والخضراوات والفجل والكباب السفّودي كمقبلات.

تحدث عن كل شـــيء إلا عمّـــا كان يختزنه فـــي قلبه، وكنت مهتمة بســـماعه، وفي آخـــر الليل، تصـــورت أن الحادثة انتهت بصفة نهائية.

في اليوم التالي، قال لأمي، وهذا ما ســـمعته منها، إنه ينتوي الســـفر إلى «صالح آباد»، إلى ضيعة كانت لنا هناك قرب مدينة «قزوين».

في اليوم نفســـه، أخذني وأمي إلى كاتب العدل، وهناك وهب لي الجزء الأكبر من ممتلكاته، كما خصّص لوالدتي حصة معينة، وتقرر أن أدير أملاك والدي وأمواله إلى آخر حياته وبعد موته.

لم يعلم الأستاذ شيئاً عن قصة نفي والدي طيلة أسبوعين أو ثلاثـــة، لكنه كان قد علم بتفتيش منزلنا، ولهذا الســـبب، لم يكن يقبل بلقائي بأي حال من الأحوال طوال أسبوعين أو ثلاثة، إنما كان «آقا رجب» يوصل أوامره إليّ بين الفينة والأخرى، حتى تلك الليلة التي تحدّد فيها مصيري المشؤوم.

فـــي أواخر فصل الخريف، والجو لم يكن بارداً لدرجة يحتاج فيها المرء مســـاء وأثناء الليل إلى ارتداء معاطف ســـميكة، كنت أرتدي فســـتاناً حريرياً قصير الكم، وكان هو مازال يلبس سترة صيفيـــة وبنطالاً رمادياً، ويضع ربطة عنق زاهيـــة بلون عنابي ومرقطة باللون الأسود.

عندما رأيته في السينما، كنت وجلة، تصورت أن أحداً يتعقّبني ويتعقّبه، كان ثمة شـــخص يقف خلفه، وحينما اقتربت منه نظر إليّ لمدة، وبمجرد أن أثرت انتباهه في الســـينما إلى ذلك الشاب قصير القامة ذي الشارب الأسود قال لي:

– ما من شيء مهم، ليس لأحد أي شأن معنا.

- أنا رأيته يتفحصني بنظراته.
- ليس مهماً، إنه معنا.
- إذن لماذا لم تعرّفني به؟
- كنت أريده أن يتعرّف إليك. ماذا حدث في بيتكم ذلك اليوم؟
- من أين عرفت؟
- خلال الأسبوعين الأخيرين ألقوا القبض على الكثيرين.
- جاؤوا إلى بيتنا أيضاً وفتّشوه.
- انتظري حتى أقول لك شيئاً قبل أن أنسى، الرسائل التي تصلك من باريس تحمل اسم من؟
- يكتب على الظرف: إلى المحترمة والموقرة السيدة فرنكيس.
- هل يُكتب اسم أبيك أيضاً؟
- لا، يُكتب عنوان بيتنا فقط، واسم الشارع ورقم المنزل.
- هل لبيتكم رقم؟
- نعم.
- حسنٌ، بعثت برقيةً بألا يرسلوا لك رسائل مجدداً، إذا وصلتك رسالة لا تفتحيها لمدة 24 ساعة، وإذا جاؤوا يطلبون الرسالة، سلّميها لهم، وقولي إنها ليست لك، ووصلت إلى هنا بالخطأ.
- وإذا لم يأتوا ماذا أفعل؟
- ومع ذلك لا تفتحيها، سلميها لي، حينما يأتي «رجب» أعطيها له ليحضرها إليّ، أنا سأفتحها وأقرؤها دون أن أفتح أعلى الظرف، ثم أعيدها لك لتحتفظي بها كما هي.

انتابني القلق فسألته:

- أستاذ، هل هناك خطر؟

- الخطر موجود دائماً، إنما لا أظن أنه ستقع لك أية حادثة أخرى هذه الأيام، فضلاً عن ذلك، فإني ما زلت لا أعرف ماذا وقع في بيتكم، قولي لي أولاً ماذا حصل.

لم أكن قد رأيته محتدماً بهذا الشكل أبداً، وحينما أمسك بيدي في الظلام لنغيّر أماكننا، كانت يده ساخنة جداً، ولم أكن بتاتاً أتوقع مثل هذا.

* * *

سيدي الوكيل، الحالات التي داهمتني تلك الليلة حينما واجهته، ليست بالشكل الذي أستطيع شرحه لك بهذه البساطة، انظر، أنا أحببت والدي، لكني كنت أكثر قلقاً على الأستاذ، كان قلبي يخفق خشية أن يُصيبوه بأذى لا قدّر الله، الخطر الذي يتهدد الأستاذ كان برأيي أشد ألف مرة من المصيبة التي حلّت بوالدي.

كنت مضطربة وقلقة، وكان هذا الرجل الكتوم - إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يحتفظ في أعماق قلبه بتلك العواطف والإحساسات التي تزلزل أعماقه - يكاد يفقد توازنه في تلك الليلة تحت تأثير اضطرابي الذهني.

من أين لي أن أعلم أنه كان يتعذب، مثلي؟ إنما معاناتنا مختلفة تماماً من ناحيتين؛ أنا كنت لا أستطيع تبرير عذابي النفسي.

إذا فهمتَ ما قلتُه لك لحد الآن، فهذا جيد، أما إذا لم تفهم فالأمر ليس بيدي.

هو كان إنساناً، لم يكن هناك وجود بالنسبة له لأي شيء ذي طابع فردي أو شخصي، كان يُخضع كل شيء للتحليل والتجزئة،

بمــا في ذلك نداء قلبه، وإذا لم يتوافق مع المبادئ التي يؤمن بها كان يخنق هذا النداء أيضاً.

قلت لك إن فنه، بالنسبة له، هو التعبير عن كل ما تصبو إليه نفسه، ما كان يرســمه على اللوحة هو ذاك الشيء الذي يشتعل لهيباً في أعماق قلبه وطيات روحه المتعالية، لم يكن لديه شــيء أعز من فنه، وكان فنه يســتند إلى المجتمع والناسِ الذين يعيش فيٍ وســطهم، من كان يتوقع ألا يضحّي بحبه أيضاً من أجل هذه المُثل العليا؟ ليس لأنه كان يســتطيع التغلب على سيل إحساساته الجارفة والمتلاطمة، ويقطع كالســد طريقها بقواه العقلانية، لا، هو كان يســتطيع الصبر والتجلد، ويقدر على أن يمســك بقلبه المشــتعل في قبضته، ويعتصره لئلا يسمع نبضاته ويدركها أحد غريب عن دنياه وعوالمه وأحواله.

فــي تلك الليلة، أدركت قــرب أيِّ موقد نارٍ حارقةٍ وقفت، في حين إني ما زلت أرتعد من البرد. هو كان يريدً ويحاول أن يخفي عني ضربات قلبه التي اكتوت بنار بعدي. حينما يشــتمّ الإنسان رائحة المصيبة، يحتاج أكثر إلى الصداقة والحنان.

كنت أســأل نفســي طوالِ الوقت عن رأيه فيّ، لا بد أنه كان يقول لنفســه: هي ليست أهلاً لحبي، ولا نستطيع أن ننسجم مع بعض، ســوف تتوقف وسط الطريق وترحل. ربما كان الحق معه أيضاً.

ســردت له الأحداث التي وقعت في بيتنا، حكيت له في الأول عن أمي، فقلت له:

- منــذ ذلك اليوم وأمي تقرأ آية الكرســي، وتنفث في أبواب المنــزل وجدرانــه، ومنذ صباح اليــوم تقيم ختمة [أَمَّــنْ يُجِيبَ

المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ] (*). تعتقد أمي أن سبب تعاستنا هو أن إنساناً مشؤوماً وطئت قدماه بيتنا ليلة الأربعاء.

وحينما أردت أن أقول له إنهم نفوا والدي، أحسست بحرقة قاتلة، ثم عدت ونظرت إليه في الظلام وعيني تدمع، وقلت له:

- ليس لدي أحد غيرك يكون ملاذي وصديقي.

ألقى يده وأمسك بذراعي العارية وضمّها بقوة حتى أحسست بالألم، ثم أمسك بذراعي العارية وسحب جسدي كله نحوه.

لا تستغرب سيدي العزيز، وأنا في قمة النشوة، وحتى حينما أذوب في موقد السعادة، أتذوق مرارة سم الحياة الكامنة تحت لساني، يا للمتعة التي أحسست بها من لمس يده لذراعي العارية! ومع ذلك، أحسست بالاشمئزاز، لم أكن أتوقع هذا، كان هذا الرجل يبدو مثل الرصاص، يظن أنه يستطيع أن يخفي النار التي في داخله، بيد أنك تشعر بقلقه وتوتره، في كل تقاسيم وجهه، وفي الحمرة التي تبرق من عينيه، وفي الصمت الذي يخيم عليه، وفي الرعشة التي تغطي شفاهه الجافة، ومع ذلك، كان هذا الرجل متردداً على الدوام، ولا يعلم مع من يتعامل.

لماذا أمسك بذراعي؟ هل لأنه أشفق عليّ، لأنني أُضحّي ببيتي وعائلتي ووالدي في سبيل هدفنا المشترك؟

شعرت بالاشمئزاز حين فكّرت بهذا، لم أكن أرغب في أن يشفق على حالي، ربما ضمّ ذراعي لأنني قلت إنه لا ملاذ ولا معين لي، وأحسَّ بحرارة حبي، آه، كان هذا جميلاً، وهذا ما كنت متعطشة إليه. أريده أن يحس، من خلال عينيّ الراغبتين، بأنني

(*) سورة النمل آية 62، بحسب بعض رجال الدين الشيعة يقوم الإنسان الذي تصيبه مصيبة أو عجز إما بترديد هذه الآية 12000 مرة إذا كان في مجلس أعد لعمل (الختمة) أو أن يرددها 120 مرة إذا كان الفرد يقوم بذلك وحده بهدف زوال كربته (المراجعة).

إذ أُقـــدِّم التضحيات فلأجله هو وحده، لأجله وحده لأنني أحبه، ولأنني أحبه فقد تصورت أنني بعد كل المشـــكلات التي صادفتها قد ظفرت في النهاية بجوهـرة.

* * *

سيدي الوكيل، أرجو أن تنتبه إلى أنني إنسانة عليلة، لا تنظر إلى مظهـــري، فإذا كنت أجـــول أوروبا، مع وجـــود حبي لإيران وارتباطـــي بهـــا، فجزء من ذلك للمعالجة، عرضت نفســـي على أفضـــل الأطباء في أوروبا عدة مرات، في الظاهـر لا أشـــكو من عيب، أكثرهم لم يشـــخّصوا مرضاً، ورأوا أنني ســـليمة، وجميع أجـــزاء بدني ســـليمة أيضـــاً، لكن أحيانـــاً يرتعد كل جســـدي ويشـــتعل بدني وينقبض قلبي، قال لي الأطبـــاء إنني أعاني من Hypersensibilité(*)، وأعاني من حساسية زائدة عن المعتاد، في جلد بدني ورؤوس أصابعي وفي نظرة عينيّ، وكل شـــيء فيّ، وتؤثر فيَّ العوامل الخارجية أكثر من اللازم، وهذه الحساســـية المفرطة تثير أعصابي أكثر من القدر اللازم.

ماذا أقول؟ إياك أن تسخر مني في باطنك، ما أقول لا يختلف عن التفاهة إلا بقدر أنملة، ومع ذلك، فهو مؤلم بالنســـبة لي، أنا نفسي لا أفهم، هذه اللوحة التي رسمها الأستاذ لعينيّ ليست من دون صلة إلى تلك الدرجة، هو فهم شـــيئاً ربما لم أدركه أنا إلى يومنا هذا، فهاتان العينان وهذه النظرة بليغة وصريحة أكثر من الحد المتعارف عليه.

هـــذه اللوحة عذبتنـــي لفترة طويلة، أتعـــرف لماذا أردت أن آخذها منـــك؟ أردت أن أحرقها، لكن ما الفائدة؟ وأنا أحكي

(*) فرط الحساسية (المراجعة).

لك الآن قصة العـــذاب الدائم في حياتي المضجرة، أرى أن هذه التعاســـة لا تفارقنـــي، بوجود اللوحة أو مـــن دون وجودها، هذا الخـــوف وهـــذا الغضب مرافقان لـــي على الـــدوام لا يتركانني وشأني.

عندما أمسك ذراعي بأصابعه الكبيرة والقوية، شعرت فجأة وكأن آلاف الإبـــر قد وُخزت في جروح قلبي، وفي الوقت نفســـه كأنَّ مـــاء صافياً وزلالاً يداعب كل جســـدي ويدغدغه بعد تعب طويل، وحين ســـمّرت عينيّ في عينيه، تذوّقت كل ذلك الشـــوق وتلـــك الحرارة اللذيـــن كانا يذيبانه، وكانا قد شـــرعا يحيلانني إلى رماد، كان قلبي على وشـــك الانفطار، وأتمنى أن أبيّن له ما يعتمـــل في قلبي بلغـــة ما، بالطريقة التي يفهمنـــي بها، آه، كنت أود لو أســـتنطق اللغة المشتركة التي نتقاسمها، رجعت وانحنيت علـــى أصابعه العظمية والثقيلة التـــي كانت تبحث عن مكان لها فـــي ذراعي، فقبّلتها، خفّ الضغط الـــذي كان على ذراعي ولملم أصابعـــه، وبرؤوس أصابعه داعـــب ذراعي، وكأنه أراد أن يعوّض عن تلـــك الصدمة التي أوجدها. فجـــأة، ضمّها من جديد بقوة وسحب يده جانباً.

لم أستطع التحمّل أكثر من ذلك، انتصبت واقفة، وقلت:

– لنذهب.

– إلى أين؟

– لنذهب من هنا، إلى حيثما نذهب.

– انتظري، الشاب الذي خلفنا لديه شأن معي، إنه ينتظرني.

آه، هذا الرجل لا ينصرف عما يريد عمله؛ عن هدفه ومبتغاه، ولـــو لهنيهة واحدة، وهذا ما كنت أخمّنـــه دائماً، لكن ليس لدي

دليل على ذلك، ومرة أخرى كان يفكر في «عمله»، كان يسحبني إلى موقد النار ثم يتركني أرتعد من البرد، هذه هي الفاجعة التي ابتليت بها العمر كله وما زلت.

أتفهم ما أريد قوله؟ كنت أعلم أنه كان متعطّشاً إلى فبلاتي، وأعلم أن أصابعه الساخنة تريد أن تحرق بدني كله، وأفهم أن صدره يرغب في أن يضمّ تمام جسدي، كنت أدرك أنه لو كان أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يرضيه ولو للحظة واحدة فهو أنا، وأنا نفسي كنت أريد أن أحس بضغط بدنه كله، وأتذوّق كامل قوة يديه الثقيلتين في أعماق بدني، أريد أن ينحل وجوده في وجودي، وأريد أن أداعب شعره المجعد شعرة شعرة، أريد أن أشعر بحرارة شفتيه فوق شفتيّ، وأريد أن أرى روحه، تلك الروح الحزينة المتجردة من الثوب الخشن الذي يلفّ البيئة ومشكلات الحياة والسياسة البليدة وضغط الديكتاتورية والخوف من الشرطة.

أريد أن أكشف أعماقه، لكنه كان يفكر في عمله، يفكر في سياسته، وكنت أتخيّل أنه مثلي تماماً، لا يملك عالماً آخر غير عالمي وعالمه، بيد أنه كان يفكر في كتابة الرسائل، وإرسالها إلى البريد، وفي دغدغة رئيس دائرة الأمن، وإثارة أعصاب الشاه، ويفكّر في مزارعي «مازندران» وعمال «أصفهان»، وفي محبيه، وفي الشباب الذين ينتظرون أوامره، وحسب تعبيره، كان يفكر في الناس.

أنا كنت قد افتديته بكل ما أملك، لكنه في المقابل ما كان يريد أبداً أن يمنحني شيئاً.

لم أمهله، سلكت طريقي وذهبت، كان لا بد أن أفرض عليه

إرادتي ولو لمرة، قلت له:

- أنا سأذهب، لا أستطيع أن أبقى هنا.

كنت أظنه سيبقى ثابتاً في مكانه ولن يلحق بي، غير أنه نهض من مكانه. الشاب الذي كانت تفصله عنا بضعة صفوف نهض أيضاً.

طأطأت رأسي وخرجت من باب السينما، كان يركض لكي يلحق بي، أوقفت عربة في الشارع، وأمرت صاحبها أن ينزل السقف.

حين أردت الركوب، جاء وجلس إلى جانبي، ووضع يده تحت ذراعي، كان جسدي كله يرتعد من الغيظ، لكنني كنت أبدو في الظاهر هادئة، أمسك يدي بيده وشدّ عليها وقال:

- فرنكيس!

لم أجب، كان يضغط على يديّ، غير أنني لم أكن أعرف ماذا أقول له، كنت قد جلست إلى جانبه باردة مثل الحطب الرطب الذي ينفث الدخان ولا يحترق، ما كان يقول شيئاً، عندما دخلنا إلى الشارع المحاذي للسفارة، سألنا صاحب العربة:

- أين نتجه؟

كنت أريد أن أعطيه عنوان بيتي، ولم أكد أنطق باسم الشارع حتى قاطع كلامي وقال:

- اذهب باتجاه شارع «پهلوي» في اتجاه نهر كرج.

عدت ونظرت إليه نظرة ملؤها الشكر، لم أكن أعرف ماذا أقول له، كان هذا الرجل متحكّماً فيّ، وأقوى مني، كان بإمكانه أن يفعل بي ما يريد.

لم يعد لديّ أي خيار، انحنى برأسه وقبّل عيني.

لكنّي حررت نفســي من قبضته، وتريّثت ثانية، ثم أمسـكت رقبته بيدي، وألصقت شفتيه اليابستين بشفتيّ.

قال: فرنكيس، فرنكيس!

قلت: روحي! روحي!

كانت هذه أحلى قبلة في حياتي، وفي الوقت نفســه، لم أجد نفسي أبداً محبطة ومحكوماً عليّ بالشقاء إلى هذا الحد.

* * *

صمتت المرأة المجهولة للحظات وهي تعضّ على شفتها السفلى، كانت تريد أن تحول، بالقوة، دون انسكاب العبرات من عينيها.

كأني بها في الدقائق الأخيرة قد نسيت وجودي أصلاً، وانشغلت بالحديث مع نفسها، كما لو أنها تستعرض أمام عينيها بكل وضوح وبصورة حية، المشاهد السوداوية في حياتها الماضية، وتنقل ما تراه لكي تخزّنه في ذهنها، بشكل أفضل.

لفت صمتُها انتباهي إلى عالمنا، ومرة أخرى، ألقيت نظرة على اللوحة التي انتصبت أمامي، وحدّقت في العينين، كنت أمنّي النفس أن أكشف شيئاً جديداً فيها، ثمة مرآة عاكسة لماضي هذه المرأة كامنة في هاتين العينين الصافيتين والشفافتين.

ولمّا رفعت وجهي عن لوحة «عيناها» والتفتُّ إليها، وجدتها تنظر إلى ساعتها، فقالت:

- أتعلم أن الوقت قد تأخّر كثيراً؟

- كم الساعة؟

- تجاوزت الواحدة ليلاً.

- إذا لم تُخرجيني من هنا فلن أذهب، أود أن تستمري في سرد الأحداث لي حتى النهاية.

- ليس هناك نهاية.

- كيف انفصلت عنه؟

- أكنت تظن أننا كنا نستطيع أن نبقى مع بعض؟

- لا أدري، هذا ما أودّ أن أسأل عنه.

- هنا تكمن المشكلة، إذا لم تدرك إلى الآن هذه المسألة، فواضح أنني لم أنجح في تعريفك بنفسي وبالأستاذ.

- ما الذي حصل في النهاية حتى تم نفيه؟
- هذا الأمر ليس مرتبطاً بحياتي.
- أنتِ أيضاً لـم تكوني تريدين حكاية قصة حياتك لي، كنت تريدين أن تفشي سرَّ هاتين العينين.
- هذا أيضاً لم أكن أرغب في قوله، كنت أريد فقط أن أوضح لك لماذا وبأي تصور رسمني هو بهاتين العينين. نعم، لقد نُسجت خيوط حياتي بخيوط حياته بحيث يسـتحيل فصل بعضهما عن بعض.

رجعَتْ وألقَت نظرة على العينين، علت جبهتها بعض التجاعيد كأنهـا لم تكن تتوقع أن تجـد في اللوحة مثل هذا الوصف الذي تصورته لنفسها، ثم قالت:

- إذا لـم يكن قد عرفني وقام برسـمي بمثل هاتين العينين فليـس الخطأ خطأه، الخطأ خطئي أنا، لأنني لم أحاول أبداً أن أبرز له نفسي على حقيقتها، لم تكن لديّ هذه الجرأة، وكنت أُكنّ له الكثيـر من الاحترام، وأقيم له ألف حسـاب إلى الحد الذي لم أستطع أن أكشف له تاريخي المشؤوم.

انظـر! هذا أمـر صعب، وأنـا لا أعرف بأية لغـة أنقل لك ما يبدو لي متقطّعاً في صورة منظّمة. ماضيّ أنا كان على الدوام ورائـي، وكان يتعقّبني دائماً كالظل، ما عيبي؟ وما الخطيئة التي اقترفت؟ لماذا لم أستطع أن أعيش حياة عادية؟ ولماذا لم أستطع أن أتزوّج؟ ولماذا لا أسـتطيع الآن؟ كنـت أمنّي النفس بأن تكون لـي حياة فنانة، وكنت أتخيّل أنني كنت محظوظة لتمكني من أن أتحدّث بمـا لا يمكن الحديث به، والآن حُرمـت حتى من نعمة السـعادة التي ينعم بها الناس العاديون، مثل سـمكة خرجت من

الماء وسقطت أرضاً، أتلوى وأضرب برأسي وذيلي على الحجر والتراب، لا أملك ذلك العالم العلوي ولا تلك الدنيا السفلى، لا ملاذ ولا حامي لي، أتدري لماذا؟ لأن ماضيّ والعوالم التي عشتها والأحداث التي تخبطت فيها ترافقني كظلي في كل مكان، ولم أستطع أبداً التخلص منها. إن الخيوط، التي نسجتها عائلتي حول وجودي، ألقت بي في القفص، ومهما سعيت وحاولت فلن أتمكن من تحطيم هذه القشور الباردة، غير أن هذه المصيبة التي طوّقتني ليست وليدة اليوم، بل كانت موجودةً ذلك اليوم أيضاً، إن السعادة المتأتية من احمرار وجهي حينما يحدثني رجل بحديث جميل ولطيف، أحسست بها في الحياة فقط في حضوره هو، حينما كان يمسك بيدي، كنت أتذوّق طعم مثل هذه السعادة، لكن ماضيّ ظلّ بعبئه الثقيل الذي كان يزداد ثقلاً في كل آن وحين، كان على الفور يكشف لي عن وجهه القبيح ويحيل شراب أحاديثه العذب سماً زعافاً، وقد وصل هذا العبء المضجر حداً لا يحتمل، فكلما كنت أستحضر ذكرى سعيدة ربما أكون قد عشتها في حياتي، كان ينتابني على الفور نوعان من الشعور؛ الأول أنني كنت أقول أنا لست أهلاً لهذا الرجل وليس لي قدرة على التضحية، فهو كتلة من الإيثار والحرمان، كيف يمكنني أن أتخلى عن كل أشيائي؛ عن اللباس والعطر، والتنزه، عن الترفيه ومرافقة الشباب الظريف والمرح، عن التردد إلى مجالس الرجال المحترمين، والسفر إلى الخارج، كانت كل هذه الأشياء في متناول يدي، ويفترض بي أن أتخلى عنها جميعها، في الوقت الذي كان هو يستطيع أن يفتدي مبادئه العليا والأفكار التي يؤمن بها بكل شيء، بالجاه والمقام والفن والحب والاحترام، وكان

سـعيداً بتقديمه هذه التضحيات، يملك الأمل ويسـتمتع بذلك، وعندمـا كان يصيبـه القلق حينما يأخذون رفقـاءه إلى الدائرة السياسـية لأيام ويكبّلون أيديهم ويعلقون على خصيّهم الصناج، كان يسـتحضر مسـتقبل الناس الذين يحبهـم، ويجعل من هذا العذاب والأذى ورقة في مصلحته وفي مصلحة قيمه ومثله، لكن ماذا عنّي؟..

* * *

وضعـتْ فرنكيس رأسـها على يدها، وأسـندت يدها على الطاولة، وكانت تقضم ظهر سبابتها وهي تفكّر.

.. مـاذا كنت أريد أن أقول؟ انتابني نفس الإحسـاس، حينما أردت أن أتخلـى عن فني، نفـس المصيبة ونفس الإخفاق اللذان عشـتهما، أنا لم أُخلق لأتسلق هذا الجبل الشاهق، لم تكن لديّ القـدرة لعمل ذلـك، ولم أكن أعرف ماذا خلـف الأكمة، بيد أنه هو كان رسّـاماً، يرسم في مخيّلته منظراً أجمل من ذلك الشيء الذي هو موجود فعلاً على قمة الجبل، وكان يسـتمتع أكثر بهذا الخيال الجميل والمبهر، هو كان أسـيراً للمستقبل، يرى المستقبل جميلاً وواضحاً وصافياً وخالياً من المشكلات وعارياً من العذاب والغضب، على عكسـي تماماً، فعوض المستقبل كان لديّ ماضٍ.. مـاضٍ بلا روح، ماض مظلـم لم يكن فيه ثمة شـعاع واحد من النـور، وكنت أتوهم فـي حياتي كثيراً أنني حصلـت على لؤلؤة وتدحرجت من يدي، وكم سـعيت وجهـدت لأركض من الأعالي وراء هـذه اللؤلـؤة اللامعـة التـي تتدحرج بين ثنايـا الأحجار والحصى وفي خضم الوديان السريعة، لأعثر عليها، كنت أجري وراءها، وأعبر الماء دونما معبر، وكنت مسـتعدة لأخاطر بروحي،

أسقط، ورجلاي تصطدمان بالحجارة وتجرحان، أنهض مجدداً وأركض، أركض وسط أرض مخْصبَة ساخنة، وسط الأشواك بأرجل جريحة وذهن مرعوب، وحينما أحصل عليها لم تكن أكثر من زجاج، فكان تعب الطريق كله يعلو جسدي والعرق البارد يرتعد له عمودي الفقري. قلت لنفسي ألف مرة: من أين أعلم أن هذا الدر أيضاً ليس سوى واحدة من تلك القطع الهشة المزيفة؟

كان هذا أحد أفكاري، لكن أكثر ما كان يعذبني هو كيف لي أن أعرف أنه يحبني؟ هو لا يحبني في الأساس، ألم يثبت ألف مرة أن أكثر شيء متعلّق به في الحياة هي آماله ومُثُله، هو غير متمسّك بشيء، لو أنني لم أشارك في أعماله الخطيرة فهل كان سيحبني؟ كل الرجال كانوا يتغنّون بجمالي، بينما لم يذكر جمالي ولو لمرة واحدة، آه، كم أتمنى أن أعرف أنني محبّبة لديه، لم يقل ذلك، رغم أنه فنان موهوب، كان ينبغي أن ينتبه إلى سحر جمال وجهي أكثر من أي شخص آخر، لم يكن لجمالي وجود بالنسبة له.

إنه معجب بشجاعتي فقط، وكان يستمتع ببرودة أعصابي في الأعمال الخطيرة التي يسندها إلي، وأنت تعلم أن شجاعتي هذه مصطنعة، أنا لم أكن مؤمنة بذلك، أنا لأجله هو كنت مستعدة لأن ألقي بروحي في الخطر في أية لحظة، لأجله هو فقط، وليس لأجل الناس الذين هو يضحي لمصلحتهم، وهو لم يكن على علم بتضحيتي هذه، وكم يجب عليّ أنا المسكينة أن أخبره بكل شيء؟ كان يعتقد أنني أعذبه بعينيّ الساحرتين، وكان هذا الشعور يعذبني، ما كان يريد شخصيتي ولا وجودي، بل يحب عمله فحسب.

لا يمكن تصور معاناتي في تلك الليلة قرب نهر كرج، لا تستطيع الكلمات أن تفصح عن إحساساتي، كنا نتجوّل يداً بيد تحت

ظلال أشجار المُرَّان العالي وتحت ضوء القمر، عاشقة وسعيدة، وحبيبهــا غير مقيد بالماضي، ومتأمل في المســتقبل، غارقة في حالة يقل نظيرها في حياة أي كائن، كنا نســتمع إلى نغمات الماء الهادئة والمثيرة للعشق، نتبادل القُبَل كلما سنحت الفرصة وخلا المكان من تردد المارة، كنت أقبّل وأشتمّ راحة يده ورؤوس أصابعه وعينيه الكبيرتين وشعره الثائر، كما لو كنت أخاف ألا تتكرر هذه اللحظة، ويجب لهذا الســبب التزود لعمر تعيس، ما أكثر الوعود التي أعطيتها له! وما أكثر ما قلت له! اعترفت له أني قد أحببته منــذ أول يوم التقيته، أخبرته أنني رأيته لأول مرة في مرســمه، بأية رغبة وحرص كان يتجرّع عذوبة كلامي! حكيت له بالتفصيل أنني تخلّيت عن الرسم لأني لم ألق تشجيعاً منه، يا لحزن وجهه، كانت شفاهه قد جفّت وبدأت ترتجف.

كان يضمنــي بيديه حتى ينقطع نفســي، ما أحلى ذلك الألم! قلت له إنني أريد أن أكون له العمر كله، أن أكون رفيقته أبقى معه جنباً إلى جنب وزميلته ومكافحة معه، أشاركه أفراحه وأتراحه.

كانــت ثمة بقعة من الســحاب تدور حول القمــر، الذي كان أحياناً يختفي وســط الســواد، حينها كان ماء كــرج يتماوج في غموض وهدوء، والأغصان تومئ برؤوســها بهدوء، ثم ينكشــف القمر مبتسماً، وينثر فوق الماء فضة مذابة، وامرأة غجرية كانت تغني من بعيد وهي تعبر الطريق، وفي جانب الشارع شيخ يعزف على الناي ويردد أغاني حياته المضجرة.

كنّا نتبادل القُبَل بنهم، أضم يده إلى صدري بقوة، ويقول لي:

- عينــاك أوصلتانــي إلى هــذا الحال، ونظــرة عينك هاته أوقعتنــي فيمــا أنا فيه، ما كنت أقدر علــى أن أتحمل نظراتك،

ألم تكوني تلاحظين أنني كنت أحدق إلى الأرض؟

فأقول له:

- انظر إلى عينيّ بدقة أكثر! لا شيء غيرك موجود فيهما.

فيقول:

- لا، ثمة عالم غامض خفيّ في هذه النظرة، كنتُ إنساناً خجولاً، وعيناك هما اللتان منحتاني الجرأة.

حينها، كنت أمسك يده، وأقبّل راحتها وأقول:

- ما أعظم الروح التي تملك، أنا أحب هذه الصفة فيك، أنا أريد منك هذا الشوق وهذه الحرارة وهذا الألم وهذا التعطّش، وأريد أن أعيش معك على الدوام، وأن أكون معك على الدوام.

عندما كان يتكلم كنت أسند رأسي إلى كتفه، غير أنه لم يكن يهدأ، كان يأخذ رقبتي بيديه ويضغطها، وكان يضغط بشفاهه على حنجرتي، كان نفسي يتوقف، فأقول له:

- كم تتعذب أنت، وكم تعذبت؟ كانوا يقولون لي إنك رجل عنيف وعديم الإحساس، كيف كنت هادئاً هكذا وتتظاهر بالهدوء؟ أنا أقدّس روحك الحيوية التي ذاقت الظلم، أريد أن أكون على اطّلاع بجميع ما تقوم به، سأقوم بكل ما تطلب، ولن أخاف من شيء، أسندْ إليّ مهمّات أصعب، واجعلني مؤتمنة لديك، ولا تترك أي شك ينفذ إليك، لم يبق لي في الدنيا شيء غير العيش حسب رغبتك، أود لو آتي وأرى أعمالك، الآن عرفتك، ويجب أن آتي وأرى ماذا تفعل وماذا ترسم، بالتأكيد، أنت عندك أيضاً أشياء أخرى غير ما تبديه للناس، يجب أن تريني كل شيء.

كان هو يحرك رأسه بخجل، ويهمس أحياناً:

- كل أشيائي هي ملك لك، تعالي إلى بيتي! فرنكيس،

لم يكن لأحد سلطة عليّ مثلك.. أنت.. أنت.. طيبة.. أنت محبوبة.

أظهــر حبه بهذه الكلمات المعدودة فقــط، ماذا كنت أريد أنا أكثر مــن هذا؟ لقد أذابــت وجودي هذه النغمــة الحارقة التي تنبعث من أعماق فؤاده، وهذه الشعلة التي تحرقه وتحرقني، لقد أوصلني إلى أســمي ما كنت أصبو إليــه، كانت هذه دنيا أخرى، كلها موســيقى خالصة لطفاً وجمــالاً. أحس بأن وجودي بأكمله ليس ملكاً لي، وكنت أمسك يده وأقبّل رؤوس أصابعه، وأقول:

- أنا أقدّس هذه اليد التي تبدع آثاراً خالدة.

بيد أنــه لا يمنحني فرصة الكلام، فكان يحتضنني، ولا يلقي بالاً للمارة الذين ينظرون إلينا من بعيد.

آه، لا يمكن شرح عوالم تلك الليلة، إنها عوالم لم تتكرر أبداً، لأن ســمو مكانته وحرارة حبه طغيا علــى كل ما أملك، واختفى ظلي في نور جلال وجوده.

لم أجد بعدهــا الوقت لكي أصل إلى ماضيّ أنا، إلى الماضي الــذي كان على الدوام يحفر في قلبي، وتذوقت للحظة لذة زمان الحال، ورأيت بأم العين صورة المستقبل المشرق.

اتفقنــا على أن أذهب إلى بيته صباح اليــوم التالي، غير أنه حينما أوصلني قرب المنزل، قال:

- هل ستأتين غداً إلى بيتي؟

- طبعا سآتي.

- متى ستأتين؟

- في الوقت الذي تريد أنت.

- انتظري هاتفي، موعدنا يوم غد، إنما أنا سأحدد الساعة.

- لماذا لا تحدد الساعة الآن.

- أريـد أن أدعـوك حينما يكـون بيتي آمناً، ولا تنسـي إذا سـألوك عن شـيء أن تقولي إنك لا تعرفينني، جئت فقط لكي أرسم وجهك.

- هل حقاً تريد أن ترسم وجهي؟

- كنت أرغب كثيراً لو أني أستطيع رسم وجهك.

- إذن سترسمه؟

- وهل أستطيع؟

- لماذا لا تستطيع؟

- ما لم أعرفك فكيف أستطيع رسم صورة تشبهك.

- أنا ملكك.

- أنا أخاف من عينيك، إن لهما سلطة علي.

- أنا أخاف منك.

- لماذا؟

لـم أجب، كنت أريد الفـرار من قبضته، أمسـك يدي وقبّل راحتها فيما أسرعتُ أنا أركض صوب البيت.

كانت أمي جالسـة على سجادة الصلاة، وفي يدها كتاب «زاد العماد» (*) الذي كنت أعرفه منذ الصغر، كان وجهها فقط يبدو مـن تحت عباءة الصـلاة البيضاء، تركع علـى الأرض، تتحرك وتنفرج شـفاهها، وبمجرد مـا رأتني حرّكت رأسـها معترضة، وقالت:

- إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل ووالدك ليس موجوداً؟! إنني أموت من الوحدة.

---

(*) المقصود هنا هو كتاب زاد المعاد، للشـيخ محمد باقر مجلسي (1037 - 1110 هجرية)، و كتاب أدعية خاص بالشيعة (المراجعة).

أخذتِ الصحيفة من جانب سجادتها، وقالت:

- لقدْ غيّروا رئيس دائرة الأمن، وعينوا العقيد آرام الذي نعرفه رئيساً جديداً، ألا تريدين أن تفعلي شيئاً من أجل والدك، لعلهم يرجعونه إلينا من المنفى.

لم تكن لدي طاقة لأستمع لهذا الكلام، ذهبت على الفور إلى غرفتي، ورغم مجيء «فضة سلطان» المتكرر، وإصرارها على أن أنزل لتناول العشاء لم أستسلم لضغطها، وارتميت على الفراش بنصف روح.

سيدي الوكيل، لا يمكن قول بعض الأشياء، فهي تُشعرك بأنها تقطع عرقك وعصبك، وتذيب قلبك، وحينما تريد أن تبيّنها تجدها مفتقدة للون والرونق؛ مثل لوحة رسمها تلميذ نقلاً عن عمل الأستاذ، هي اللوحة نفسها، إنما تفتقد إلى تلك الروح، وإلى ذلك الشيء الذي يشدّ قلبك.

كم وددت لو استطعت أن أجسد لك مدى معاناتي في تلك الليلة، وماذا حلّ بي، كانت أخطاء الماضي تعبر من أمام عيني واحدة تلو الأخرى، تكشر عن أنيابها وتوجّه لي كلمات لاذعة.

يهزؤون بحبي، أولئك المهزومون والمنسحبون وجدوا الفرصة سانحة كما لو أنهم كانوا يقولون: لا تأخذي الأمور بهذه الجدية، هذه ليست سوى نزوة. تجلى أمامي وجه دوناتللو الحزين، حينما شوهت أمواج الماء شكله الطبيعي، كانت نار سيجارته الحمراء تنزلق من ثنايا الأمواج، وفجأة غمرت سطح ماء البحيرة بأكمله، كان يقهقه كالمجنون، ويفر مني كمجنون تحرّر من الأسر، ويصيح: أنت، أنت تتحدّثين عن العشق؟ كلام أمي عن رئيس دائرة الأمن ذكّرني به، كم كان مصرّاً على الزواج بي. كنت أخاف

من هؤلاء، وأخفـــي وجهي في المخدة، أرتجف، وأشـــعر بالبرد، وتنتابني حالة من التوتّــر، أقوم وأقرأ كتاباً، لم يكن النوم يعرف طريقه إلى عيني، وكنت أُجهد، وحينما أحاول النوم تعاودني هذه الظلال المرعبة، وتمر أمام عيني واحدة تلو الأخرى، وتسلب مني الهدوء. في بعض الأحيان، كانت ملامح وجه «خداداد» المضطربة والمنفعلة تسدي لي النصح، حتى هو لم يعد ليّناً ومقنعاً، كان هو الآخــر يهددني، كأنه يقول: انظري إلى مُهري! أمّا الأكثر وقاحة مــن الجميع فهو ذلك الفتى الفرنســي، الروائي الذي كان يريد الــزواج بي مهما كلّف الأمر، كنـــت قد قلت له إنني أحب وطني، ولا أريــد أن أعيش معك، هذا الولد الذي كان على الدوام يضع يده في جيب صدْريّته الأيمن، ويتحرك بسرعة ومن دون تناسق، ويضحك عليّ بوجه فاجر، ويقول: أي مكان من وطنك تحبين؟

كانــت هاتان الروحان المتخاصمتان المعشْشــتان في وجودي، في ســبات منذ دخولي إلى إيران، واستيقظتا من جديد، واحدة تقــول: إياك أن تذهبي إلى بيته، «ماكان» رسّــام ماهر، حتى إنه ضحى بفنه في سبيل طموحه، ورأسه المضطرب لا يقنعه الجاه، هو متعطّش إلى الشهرة، إياك أن تذهبي إلى بيته، فهو لن يبقى معك أكثر من بضعة أيام، حينها ماذا ستفعلين؟ أما الروح الثانية فكانت تجيب بقلــق: عذوبة الحب تكمن في هذا التردد، اذهبي إلى بيته، اذهبي وساعديه.

آه، ما هذا الهراء الذي أقول! صدقني، لم أنم الليل كله، كانت تتقاذفني دائمــاً أوهام مختلفة من موضوع إلى آخر، مدهشــة وخادعة، واعدة ومظلمة وحانية ومشوشــة، لم أكن أعرف ماذا أفعــل، ولم أكن قادرة على اتخاذ أي قــرار، الأمر الوحيد الذي

كان مؤكـداً بالنسـبة لي هو أنني لو ذهبت يوم غـد إلى بيته، فينبغي أن أعد نفسـي لحياةٍ ملؤها المصائـب. كنت أقول إنني لست أهلاً للعيش معه، فأنا لا أستطيع أن أناضل معه جنباً إلى جنب، ونتيجة لذلك سـوف أوقف طريـق تقدمه، وهو ليس من الأشخاص الذين يتخلّون عن هدفهم، شئتُ أم أبيت سوف يحكم علي بقضاء عمر من العذاب والشقاء.

لكن لو لم أذهب يوم غد فماذا سـأفعل؟ ألن أندم؟ ومن بعد غد أي إجابة سأعطيها لنفسي؟ وهذه أيضاً تعاسة، أنا لم أقرر، وفقدت السيطرة، وأخذني سيل الأحداث معه.

كمـا يجب ألا تنسـى أيضاً أن الخُطّاب لـم يكونوا يتركونني وشـأني، وكانت إغراءات هؤلاء أيضـاً وبالاً عليّ، كان واحد من هؤلاء يتوقف كل يوم على باب منزلي بسـيارته الشفروليه، ينظر إليّ بوقاحة بشـكله الأحمق، بينما كنت أنا غارقة في مشكلاتي، لدرجة أنني لم أستطع أن ألتفت إلى هؤلاء المخادعين المتأنقين.

في يوم ما دخلت مجموعة من النساء بوجوه تغطيها مساحيق التجميل، يلبسن معاطف من الفرو، وأصابعهن ممتلئة بالخواتم، كانت نظرةٌ واحدةٌ كافية بالنسبة لي لأتعرّف إليهن، ركضت نحو أمـي، وقلت لها: سـيدتي العزيزة، هنيئاً لـك بمجيء الخُطّاب لخطبة ابنتك. كانوا ينحدرون من أسرة تعمل في التجارة، وسكة الحديد كلها تمر من وسط أملاكهم وعقاراتهم، وكانوا قد انتقلوا من «كودزنبورك» (*) إلى شارع «پهلوي»، في البداية تحدثن إلى والدتي عن عفّتي وحشمتي، وكن يقلن: هذه الفتاة لا ترفع رأسها في الشارع لترى الناس، وبقدر ما كانت أمي تحاول أن تبيّن لهن

(*) إحدى مناطق طهران الفقيرة، والمقصود هنا أن العائلة حديثة الثراء.

أن الأمــر ليس كذلك، كن يصرّرن علــى كلامهن. وحينما كانت أمــي تقول إن ابنتي تريد زوجاً مثقفــاً، كنّ يرددن عليها بجواب جاهز سلفاً: نعم سـيدتي، ولدنا حاصل على الليسانس، حينها كانــت أمي تقول: هي لن تختار إلا الشــخص الذي تريد، ويكون جوابهن: نعم، بــكل تأكيد، هذا واضح، أنت ائذني لهما ليخرجا معاً، ويذهبا إلى السينما، حتى يتعرفا إلى بعضهما فيما بعد.

خاطبٌ آخر كانت أمه رفيقة أمي في ســفر كربلاء، كان ابنها قد ظل في الخارج يلهــو ويلعب لبضعة أيام، والآن هو يعمل في وزارة الزراعة مفتشاً خاصاً بدبلوم صناعة الخمر، كان يدعوني، ويصطحبني إلى ســهرات نادي إيران؛ لم أكن أجمل النساء في هذه اللقاءات وحســب، إنما كنت أكثر النساء تأنقاً وذوقاً بينهن كذلــك، وكنت أتحدث مع هؤلاء بلغتهن الخاصة. ذات يوم، أريته دولاب ملابســي، وقلت له: انظر كم لديّ من الملابس والأحذية والمعاطف وكل ما تريده النفس، كيف ســتؤمن لي أنت شراء كل هذه الملابس؟ أريته، على الأقل، عشــرين نوعــاً من العطورات والمســاحيق وأدوات التجميل، احمرّ وجه الرجل، ولم يرجع إلى بيتنا ثانية، فأنا أعلم جيداً ماذا كان يجول في خاطره عني، لكن ما أهمية ذلك عندي؟

كانت حياتي تدور حول محور الأستاذ، إما أن تكون معه وإما أن تكون كما هي الآن.

أمــا الثالث فكان عقيداً من أقــارب والدي، وكنت أعرفه من أيام وجودي في الغرب، دعني أتكلم عنه فيما بعد.

ظللت أتململ على فراش النوم في اليوم التالي حتى الســاعة العاشــرة والنصف، وحتى تلك الساعة، كنت شاحبة اللون قلقة

أعاني من الأرق، ولم أخرج من غرفتي بعد. جاءت أمي وجلست إلى جانب فراشي، تريد أن تعرف سبب انزعاجي، آه، كم كان الأمر سيصبح أفضل لو أنهم لم ينفوا والدي، كنت أنسجم معه أكثر، على الأقل سأنال متعة وضع رأسي على كتفه وأستسلم للبكاء، وهو كان متفهماً لدرجة أنه لا يسأل عن سبب تعاستي وحزني، لكن أمي من التقليديات اللواتي يتصورن أن كلمة الحب يجب أن تقرأ فقط في ديوان «حافظ» (*)، ولم تكن تفهم معنى الهجر والوصال، ليس لها شيء في العالم الخارجي غير هذه الحياة التي تعيشها مع أبي، وكان والدي قليل الكلام ويكره الثرثرة، بيد أن أمي لا تدرك أن الإنسان يحتاج أحياناً إلى أن يقفل فمه ولا يقول شيئاً.

رنّ جرس الهاتف الساعة العاشرة والنصف، طرت من غرفة نومي بقميص النوم الذي أرتديه إلى استراحة الطابق العلوي، فقد كان الهاتف هناك.

كنت أعرف صوته، كما العادة، كان يتحدث بهدوء ومتانة ورصانة، سألني عن أحوالي، على خلاف العادة، وخاطبني بصيغة الجمع (**)، وبعد حوار عادي، سألني:

- هل ستحضرين إلى هنا؟

- لا أعلم.

---

(*) هو الشاعر شمس الدين محمد بن بهاء الدين، ولد تقريبا بين عامي 1310 - 1337 ميلادية في شيراز، ويعرف بحافظ الشيرازي، وقد ترجمت أشعاره إلى الكثير من اللغات، ويستخدم ديوانه كثيرا في التفاؤل ومعرفة الطالع، ومن الصعب أن تجد إيرانيا لا يعرف حافظ بسبب وجود ديوانه تقريبا في معظم المنازل الإيرانية لاستخدامه في التفاؤل، على الرغم من أن أشعاره تزخر بمعاني العشق والفلسفة والحكمة (المراجعة).

(**) هي صيغة تستخدم في اللغة الفارسية للاحترام، وتستخدم غالبا كصيغة كلام رسمية (المراجعة).

- ألم نحدد موعداً؟
- بلى، لكن اليوم ليس لدي وقت، وأنا لست على ما يرام.

أردت أن أتحدث معه بنفس اللغة التي كنت أتحدث بها مع الآخرين، لكن الأمر لم ينجح، هذا الرجل سحرني.

- فرنكيس، يجب أن تأتي.
- ربما ليس لائقاً.
- إنه لائق، بالتأكيد.
- ربما إنه ليس في مصلحتنا.

هنا أصابه الوهن، وانقطع الصوت لهنيهة، وبعد بضع ثوان، قال:

- الأمر يعود إليك، ربما الحقّ معك، ربما ليس في مصلحتنا.

لم أجب بأي جواب، بينما تريّث هو لحظة، ثم قال:

- حسنٌ، إلى اللقاء!

انتهى الأمر بالنسبة لي، وأيقنت أن الأمر انتهى بالنسبة له.

ماذا أصابه بعد هذه المحادثة الهاتفية؟ من أين لي أن أعلم؟ هو لم يكن يتكلم أبداً، والشيء الذي استطعت أن أستخلصه منه هو ما كان يعبّر عنه بنفسه، ربما قرّر في ذلك اليوم أن يرسم وجهي، بهاتين العينين اللتين رسمهما الآن، تذكّرت كلامه، حيث قال: «أمنيتي هي أن أرسم وجهك، وما لم أعرفك فكيف أستطيع رسم صورة تشبهك؟».

كان العمل والجهد ملاذه، فكلما كان يفشل يحتمي بأعتاب العمل، ويستعيد هدوءه، وهذه أكبر سعادة يحصل عليها إنسان في الحياة، إنما، هذه المرة، كان لا بد من المزيد من الصبر والتحمل.

بعدمـــا لعب قليلاً بالألوان والريشـــة، أدرك أنه لا يقدر على ذلك، وضع كوعه على ركبته وأسند رأسه إلى يديه، وانغمس في التفكير لبضع دقائق، ثم خرج بهذه النتيجة: إن الحق معها، ليس من مصلحة أي منا. حينها ســـأل نفســـه: إذن، ماذا كانت تقول عيناها؟ اســـتغرق هذا التأمل والتعمق نصف ســـاعة فقط، بعد ذلك باشر عمله.

كان هذا ما استطعت أن أستخلصه، لكن الحقيقة كانت أكثر حدة من هذا، لم يكن يفضي لأحد بشيء، ولم يفضِ لي أنا أيضاً بشـــيء، هذه الصورة الموجودة أمامك الآن تحكي خلاف ما كنت أعلمه، عانى هذا الرجل لثلاث سنوات بالتمام في النفي، بسبب اعتقاد واه، وبســـبب تصور خاطئ عني، وفي ثلاث ســـنوات بعد نفيه في «كلات»، رسم هذه اللوحة. هذا هو العمل الفني الوحيد الذي أنجزه في فترة تشرده بعد الخروج من طهران، فهو إذن لم يتخـــذ قراره، ولم يقرر أن يتركني في نصف الســـاعة هذه، كنت أتخيّل أنه فكر لنصف ساعة وانتهى الموضوع بالنسبة له.

انظر، كلانا تعاســـتنا أننا لم نعرف بعضنا حينما كنا قريبين مـــن بعضنا، فهو لم يعرفني البتة، وهاتـــان العينان تبيّنان أنه لم يدرك روحي أبداً. أنا كنت المقصّرة، فإذا كان هو لم يقل شـــيئاً، فقـــد كانت هذه هي الرغبة التي تمليها عليه طبيعته، لأن الفنان لا يكشـــف آلامه لكل الناس، هو لا يتكلّـــم، بل كان يوصل وجهة نظره عن طريق عمله الفني.

أما أنا فكنت أستطيع أن أقول له لماذا أجبته في أول الأمر في الهاتف بذاك الشكل، وعملت خلاف ذلك لاحقاً.

دونمـــا أي تردد وبصورة لا شـــعورية، توجهت من الهاتف إلى

دوش الحمام، بعد ذلك، جلست لبضع دقائق على المقعد الوثير وتفرغت لتزيين نفسي، ليس بغرض الذهاب عنده، لا. كانت في داخلي قوة أكبر من إرادتي وتصميمي تدفعني إلى أن أفعل هذا، كما لو أنني كنت أريد أن أذهب إلى اجتماع رسمي وألقي خطبة احتفالية. عقدت شعري من المفرق باتجاه طرفي الرأس بإحكام، وارتديت سترة وتنورة سوداوين، كنت أراه هو فقط في المرآة جالساً منهمكاً في الرسم، و(الباليته) في يده، وكانت ألوان مختلفة وأخرى حادة وألوان متنافرة تعجن ببعضها، يخلطها بسكين، فجأة تبادرت إلى ذهني فكرة أنني لو فتحت باب ورشته ودخلت إلى غرفته، فماذا سيقول لي؟ بالتأكيد سيقفز من مكانه ويأخذني في أحضانه ويقبّلني حتى ينقطع نفَسي. لا، لم يكن هذا في مصلحة أحد، لم يرُق لي هذا المشهد، ثم تبادرت إلى ذهني فكرة أخرى، وهي أن أتصل به هاتفياً وأخبره بأنني سآتي، ألن يستغرب؟ ألن يتعجب من ترددي وعدم ثباتي؟ لكن هو يختلف عن الجميع، يجب أن يكن لي «ماكان» الاحترام، ويجب ألا يعرف من أكون، أنا أدرك ضعفي أكثر من الجميع، وهو لو عرفني على هذه الصورة، فسينتهي أمري، لن أذهب. إذن، لماذا ارتديت الملابس في وقت الغداء؟ بماذا أخبر أمي؟ أقول لها أنا مدعوّة إلى أين؟

انشغلت عبثاً لساعة من الزمان بلباسي ووجهي ورأسي، وفي الآن نفسه، كان الحزن والألم يعتصران أعماقي، كنت في صراع مع نفسي، لا أعرف ماذا أريد، ذهبت إلى الهاتف مرتين أو ثلاثاً، ورفعت السماعة وأدرت رقم هاتفه، بيد أني لم أجرؤ على الحديث إليه، وفي النهاية، خرج الأمر عن سيطرتي، وبمجرد

ما سمعت صوته على الهاتف، قلت:

«ماكان»، أنا غيّرت قراري، سآتي.

قال: تعالي!

خرجت من البيت دون أن أخبر أمي بشيء، لقد تعودت المسكينة على خروجي من المنزل، أما الآن ورغم عدم اطّلاعها على أنشطتي السياسية بعد نفي والدي، فإن الخوف يسيطر عليها، لم أكن أريد أن أجادلها، قلت لـ «فضة سلطان» أمام الباب:

لا تنتظروني، فأنا مدعوة إلى الغداء.

قالت العجوز:

الله معك.

ذهبت في الطريق مسرعة، وكأني قد وقعت في ورطة، ولم يكن قد بقي لي حل آخر غير هذا، كنت قد صرت مشبوهة لدى الجميع، وأشك في الجميع، وأتوجس من كل من ينظر إلي، وأحسب الجميع جواسيس لدائرة الأمن، بدا لي أن الجميع قد اتّحدوا ليكسروا الكأس التي تحوي شهد سعادتي، كان منزله يقع خلف مسجد «سپهسالار».

لم أكد أطرق الباب حتى أدخلني «آقا رجب» إلى ساحة المنزل، في الجهة الأخرى من الساحة باتجاه الشمس، كانت ثمة سلالم تنتهي بشرفة غطّت فناءاتها زهور العسلة، وقف «آقا رجب» جانباً، ومن دون أن ينظر إليّ، ومثل خشبة ألبسوها لباساً، وبملامح لا يظهر عليها أدنى تأثر، أشار بيده إلى السلالم. كان هناك طفلان صغيران يلعبان في الساحة تحت أشعة الشمس، أحدهما يستقل دراجة ثلاثية العجلات، والآخر يقودها، وفي

إحدى الغرف في الجهة اليمنى، كانت ثمة امرأة ترتدي سروالاً أسود طويلاً منشغلة بتجفيف الأطباق الصينية.

في هذه الأثناء، فُتح باب الشرفة العلوية، فجاء هو إلى الدّرج، وكان ما يزال يحتفظ بـ (الباليته) والريشة في يده، أمسكني من تحت ذراعي اليسرى بيده اليمنى واقتادني إلى غرفته.

يجب أن أحكي لك كل شيء صحيحاً وبصراحة، حتى تفهم بأي نار كنت أكتوي، وحتى تدرك كيف كان يتعامل معي عن غير علم، كقطة صغيرة تلعب بذيلها.

كنت أتوقع بمجرد دخولي إلى غرفته أنه سيأخذني في أحضانه ويغطي شفاهي بقبلاته الساخنة، وأنا سأدير وجهي وأمتنع، لماذا كنتُ قد اتخذت هذا القرار؟ لأنني كنت أريد أن أحافظ على تأثيري عليه، في وقت كنت ألهث وراء قبلاته، وكنت أود أن تغطي شفاهه رأسي ووجهي، وكنت أود أن أجرب دفء جسده، وأن أحس في حضنه الدافئ بكل ما فشلت في تحقيقه على الرغم من أنني كنت أتمناه طول حياتي، ومع ذلك ولأجل إثبات قوة شخصيتي والمحافظة عليها، اتخذت مثل هذا القرار، لم أكن أرغب في أن يفهم أن قوة خارقة سحبتني إليه مثل دمية بلا إرادة، ولكنه هو كان هادئاً للغاية، هل فقد جرأته من شدة الاضطراب، أم أصابه الرعب هو الآخر؟ ربما تكون مكالمتي قد أثرت فيه وأرجعت إليه صوابه. آه، تلك الأيام، كنت أعتقد أن الأستاذ رجل عاقل وكيّس، وما لم يزن الأمور، خيرها من شرها، فلن يقدم عليها. تصورْ أنني، أنا التي كنت أجبر مئة شاب بغمزة وإيماءة واحدة على الرقص مثل قرود الحلبات، كنت مجبرة أن أتسوّل من أجل قبلة واحدة منه.

أدخلنـــي إلى الغرفـــة، كان يبدو هادئاً، كانت غرفة بســيطة أثاثها يتكون فقط من مقعدين وثيرين وطاولة مستديرة، وتتراءى على طاولة صغيرة مزهرية مملوءة بالورود.

أجلسني على الكرسي، وجلس هو نفسه إلى جانبي، نظر إليّ للحظات، ثم سألني:

- لماذا لم تكوني تريدين المجيء؟
- كنت في حرب مع نفسي.
- من فاز في نهاية المطاف؟
- أنت.
- لم تكوني في حرب معي أنا.

نســيت جميع فنون الإغراء، ولم تعد تلك النظرات التي تهزم الجميـــع تتضح مـــن عينيّ، وكل ما كنت أعرفـــه من كلام وغزل تجمّد على طرف لســـاني، ونســـيت حتى ضحكاتي، كنت أنظر إليه بانكســـار وإنهاك، ولو أنه نطق بكلمة لخنقتني دموعي، لكن «آقـــا رجب» أنقذني من هذه الورطة؛ ســـمعنا صوت أقدامه في الشرفة.

قلتُ له:

- أين أعمالك؟
- مرسمي هي هذه الغرفة المجاورة.
- اسمح لي أن أتفرج.
- ليـــس لدي الكثيـــر، الأعمال غير المكتملـــة كثيرة، أتريدين مشاهدتها الآن أم بعد تناول الغداء؟
- الآن وبعد الغداء أيضاً.
- انتظري. رجب.. ماذا كنت تريد؟

دخل «آقا رجب» إلى الغرفة بوجهه الذي لا يبوح بشيء، وقال:

- لم أكن أريد شيئاً.

قال الأستاذ:

- أنصت إلى ما سأقول، لو جاء أحدٌ فلست موجوداً، أنت تعرف السيدة فرنكيس، جاءت لكي أرسم وجهها.

قال:

- نعم، سيدي.

أكمل الأستاذ كلامه:

- قل هذا الكلام لكل من يسألك.

أجاب:

- نعم، سيدي.

قال الأستاذ:

- ليس لدي أمر آخر.

سأل «آقا رجب»:

- متى تتناولان وجبة الغداء؟

أجاب الأستاذ:

- سنذهب الآن إلى المرسم، أنت جهّز المائدة، ونحن سنخبرك بأنفسنا.

بعد ذلك، توجهنا إلى محترفه.

لوحة «حفلة كشف الحجاب» الكبيرة لم تكن قد اكتملت حتى ذلك الوقت، فقد كان وقتها يعمل على عدة لوحات لرباعيات الخيام، «البيوت الريفية» كان على وشك الانتهاء منها، وهي آخر لوحة أنجزها في طهران.

انجذبت إلى كل هذه البراعة والنبوغ، وفجأة ألفيت نفسي

فـــي عالم لطالما كنت أنتظره، نظرت مدة إلى اللوحات بدهشـــة وبقلب مغموم، كان الأســـتاذ واقفاً أمام عتبة الباب، وكنت أحسّ بلوعة نظرته من خلف ظهري، فقد ســـلب لبّي بهاء هذا المرسم فارتبكت، كنت قد شـــاهدت في أوروبا شيئاً من أعمال الأساتذة الكبـــار؛ ففـــي إيطاليا، عظمة جمـــال وبهاء لوحـــات «ليوناردو دافينشـــي» و«رافاييل» تثير اندهاش المـــرء وانبهاره، وكنت أحب أعمال المدرســـة الفرنســـية، وفي ميونيخ رأيت آثار «رامبرانت» و«دوره»، لكن ما شـــاهدته، لأول مرة في مرسمه، أثّر فيّ بشكل أكبر، ليس لأن الأستاذ كان فناناً أكثر سمواً، لا، ما رأيته في ذلك المرسم كله كان قطعاً من روحي أنا.

أولئـــك الذيـــن كان الأســـتاذ قد رســـمهم في لوحاتـــه كانوا يتحدثون بلساني، ويفقهون لغتي، وينظرون بعيني، كنت أعرفهم وأدرك آلامهـــم، ثمة تعـــارف وأنس يحكمان هنـــاك، فالحوادث والمصائب التي كانت مجســـدة في الرسوم، لم تكن في رأيي تثير الانتبـــاه في الوهلة الأولى، فلقد راق لـــي كثيراً أن الناس الذين عاشـــوا هذه الأحداث من الأشخاص أو الأقرباء أو أبناء الوطن، تجرعـــوا ما تجرعت مرارتـــه، وعانوا ما عانيـــت منه، ومازال. كانت لوحة «حفل كشف الحجاب» قد تم تصميمها حديثاً، ووجه المرأة بحالتـــه المضحكة كان يبدو مكتملاً تقريبـــاً. تذكّرت أمي على الفـــور، إذ بمجرد ما إن دبّت الفوضى في إيران هربت إلى كربـــلاء، وكانت تريد أن تبقى هناك مجـــاورة للحرم، أما خالتي العزيزة فقد تورطت تقريباً في هذا الوضع، فقد كان وزير العدل الملا يريد أن يقبّل يد خالتي العزيزة، التي كانت تسّبح العمر كله. اتصلت بي كل هذه المشاهد وكل هؤلاء الناس بشكل من الأشكال،

وأنا أحسست بأن الجنة التي كنت أمني النفس بها موجودة في هذه الغرفة.

تذكرت مجدداً كل المصائب التي عانيت منها بسبب هذا الرجل، الذي يقف الآن خلف ظهري، فلو كان قد انتبه أكثر في ذلك اليوم في مكتبه الذي كان مدرسته، لربما كنت اليوم سعيدة أيضاً، فرجعت ونظرت إليه نظرة تختصر كل هذا الاشتياق الدفين.

سألني:

- ماذا؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

خطا خطوات ثلاثاً، فاقترب مني، أمسكته من رقبته، وقلت:

- «ماكان»، كنت أود لو أصبح رسامة مثلك.

مسح بيديه مداعباً شعري، وأبقاني هادئة للحظات، وبعد ذلك أمسك وجنتيّ بيديه الكبيرتين العظميتين، وحدّق في عينيّ، كانت شفاهه تتحرك لمدة، كما لو أنه يبحث عن كلمات ضاعت منه، وقبّل عينيّ فقط دون أن يقول شيئاً.

ماذا كان بإمكانه أن يقول؟ هل كان من اللازم أن يكرر ما قاله قبل خمس سنوات بطريقة من الطرق، بيد أنه يعرف أنني لم أعد تلك الفتاة صاحبة النزوات الطائشة، كان يعلم هذا.

سيدي الوكيل، لا تدري حينما يتوفّر لديك الشوق للإبداع والخلق لكنك تفتقر إلى المهارة والموهبة والتجربة، كيف يعشش اليأس والإحباط في ثنايا وجودك ويبحثان عن موطئ قدم لهما!

جلست على كرسي ذي أربعة قوائم، بينما كان هو واقفاً بجانبي، وكنت أحس في جواره بجمال وسعادة تضمر المرارة في أعماق حلاوتها.

فجـــأة، بدأ يتكلم بهدوء، كما لو كان يردد الجمل التي حفظها من قبل، فقال:

- أريد أن أقول شــيئاً ربما يكون جديداً، بالنسبة لك، وربما لا تستطيعين ولا تريدين أن تفهميه أيضاً، لكنني مجبر على قوله لك، لأنني لا أريد أن أخدع فتاة شابة مثلك.. إن مصيري ومصير هذه البلاد توأمان، لم تعد لدي ســعادة شــخصية، لو أردت أن تقرني حياتك بحياتي فسوف تصبحين تعيسة.

بدأ يتلعثم ويتأتئ مثل الأطفال الذين لم يتعلموا درسهم جيداً، لكن صبري نفد، فقلت:

- أعلم، كل ما تريد قوله فكرت فيه، أنا أعلم أنني لست أهلاً لك، فأنا شـــابة بالنسبة لك، أنت تفكر في المستقبل فقط، فيما أنـــا أريد أن أتـــذوّق طعم الحياة للحظة واحـــدة في عمري كله، لهذا جئت وأنا الآن أتوســـل بين يديـــك، أعرف أن ترددي أدخل الشـــكّ إلى قلبك، لا وجود لغدٍ بالنسبة لي، غدي مظلم، ومعك مظلم، ولكن من دونك أســـوأ بكثير، لا فائدة، لا تتكلم! أنا أصغر منك بكثير، ليتك علمت بما قاسيتُه، فأنا أكبر سناً مما يبدو من ظاهري.

- احكي لي ماذا قاسيت؟

- أنتَ لن تطيق الاستماع إلى ذلك، وأخشى أن تحتقرني.

- ربما يكون العكس صحيحاً أيضاً.

- ما عكسه؟

- عكسه أنه ربما تكون مكانتك عندي أسمى مما تتصورينها، أن تصبح أسمى.

- لا، لا يمكن قول ذلك، كل الرجال يقولون هذا الكلام.

سيدي الوكيل، قل لي أنت؟ ماذا كان بوسعي أن أقول له؟

لا شــيء جديد في حوارات ذلــك اليوم، بالنســبة لك، فما كنــت أخمّنه كان صحيحاً، كان هذا الرجل مصنوعاً من الفولاذ، فحينما ســمع صوتي في الهاتف اتخذ قراره، كان يكنّ الاحترام لكل شخص، وبإمكانه أن يفعل بي تلك الليلة ما يحب، ويستطيع أن يأخذني في حضنه كجارية، لكن هذا لم يكن كافياً بالنســبة له، إنه كان يريد نفس الشــيء الذي كنــت أرنو إليه، هو لم يكن يستمتع ببدني، بل كان يريد روحي، ويخشى ألا تكون من نصيبه، لم يكن يبحث عن معشــوقة، أراد رفيقة كفــاح في المعركة التي يخوضها، أراد من تضحي بنفسها وترافقه دون أن تصيبها رهبة من أي بلاء.

تناولنــا الغداء وتحدثنا عن كل شــيء إلا عن الحب الذي كنا كلانا نتركه ينمو في قلبيْنا بشكل خفي.

نعم، حبنا الجلي بدأ في تلك الليلة على ضفة نهر كرج، تحت أشجار المُرَّان العالي، وانتهى هناك.

انظــر، هــذه هي المصيبــة الكبرى فــي حياته، أتــدري أية اســتمرارية وأي ثبات للنار التي تحت الرماد؟ الحب الخفي هو حب لا يجرؤ الإنســان أبداً على أن يتحدث بشأنه ويقر به، لأي سبب من الأسباب؛ بسبب القيود الاجتماعية، والطبقية، وبسبب أن المعشــوق لا يدرك، أو لســبب آخر، فإن هذا الحب هو ذاك الحب الذي ينخر أعماق الإنســان ويضرم النار فيه، ويصبح في النهاية كالفضة المذابة الصافية من كل شائبة.

لــم أكن أجرؤ على الإفصاح له عما يعتمل في قلبي، وكان هو يريد أن يبقيني مصونة، ومع ذلك، فقد كان هناك فرق أساســي

بيننا، إذ لم تكن كل قواي في اختياري، ولم أكن أستطيع أن أخفي تماماً كل ما كان يجيش في أعماق وجودي، كان ذلك يظهر في حركات شفاهي، وتعاملي المهذب واللطيف معه، في طاعة أوامره طاعة عمياء، في نظرة عينيّ، وفي الشوق والحماس الذي أبديه في مقابلته، كنت أظهر حبي في كل الأعمال التي لها صلة به، غير أنه كان يفكّر بشكل آخر، لم يكن يشعر بطريقة أخرى، إنما يستطيع أن يتغلّب على كل عواطفه، فلو كان أحد يراقبنا باستمرار ما كان سيستنتج غير نتيجة واحدة؛ هي أنني متيّمة به، وهو رجل قلبه من حجر لم تصل رائحة العشق أصلاً إلى مشامه، ولا يعيرني أقل اهتمام وعناية.

من هذه الناحية فقد تعذّب هو أكثر، واللوحة التي هي الآن قبالتك دليل على ذلك.

آه، كم كانت ستصبح حياتي سعيدة لو تجرأت تلك الليلة وعرّفته إلى نفسي، على الأقل كما تعرفني أنت اليوم.

قضيت ذلك اليوم بأكمله عنده، وجلسنا الوقت كله في المرسم، كان في بعض الأحيان يأتي أحدٌ لرؤيته، حينها كان «آقا رجب» يكتفي بالنقر على الباب فقط، كان «ماكان» يعتذر إليّ بمنتهى الأدب ويعطيني علبة الكرتون التي بداخلها تصاميم متنوعة، أو المجلة التي نشروا فيها أعماله بالنمسا، أو أحد أغلفة «خيام» الذي كان هو قد صوّره، ويذهب، فأبقى وحدي، وأقرأ ما في يدي، أو أتحسر، وأحياناً، أنسى كل شيء في عالمي المليء بالنشوة، وأتصور نفسي فارغة من كل أنواع العذاب، كنت أقلّب تصاميمه رأساً على عقب، وأستمتع بمشاهدة أعماله غير المكتملة. مرَّ الوقت بسرعة لدرجة أنني تعجّبت حين حلّ الظلام.

ما إن قمت من مكاني، حتى قلت:

- «ماكان»، سنبقى أصدقاء.

- يجب أن نكون رفقاء.

كان معنى ذلك واضحاً، بالنسبة لي.

نزع معطفه الأبيض، وسألته:

- أتريد أن تأتي معي؟

- سآتي لأرافقك قليلاً في الطريق.

- تعال لنذهب معاً إلى جانب نهر «كرج».

- ما الفائدة؟ هذه الليلة تختلف عن الليلة السابقة كثيراً.

- بالنسبة لك!

أمسك وجهي بيديه بقوة، ونظر إليَّ بنظرات ملتمسة، وقال:

- لو أنني أفهم ماذا يكمن في نظرتك هذه، لكانت هذه الليلة حينها ستصبح مشابهة لليلة أمس، ولرسمت لك صورة.

- ساعدني لكي أعرِّفك نفسي.

- أخشى حينها أن تصبحي تعيسة.

- الآن أنا تعيسة أيضاً.

زم شفتيه وألصقهما بسرعة على جبيني، وخرجنا معاً من المنزل.

* * *

لم يبق شيء أقوله لك.

لو لم يرسل هذه اللوحة بعد ثلاث سنوات قضاها في المنفى، لربما لم يكن لي أبداً كلام أقوله، ولو لم تأت هذه اللوحة إلى طهران، ولم أعلم بوجودها، لكنت ربما سأنسى تماماً معرفتي بهذا الفنان، كما نسيت النزوات الأخرى التي كنت إلى ذلك الزمان منشغلة بها، فإذا كنت قد ضحّيت بجزء من عمري، وتخلّيت عن كل أشيائي فهذا شيء ليس بالغريب، أنا سعيدة بأنني ضحيت في حياتي مرة واحدة، واشتريت بهذا الحرمان سعادة وسلامة إنسانٍ أكثر فائدة مني.

إنما هذه اللوحة التي رسمها لي بهاتين العينين قلبت حياتي رأساً على عقب، وللأبد.

بعد تلك الحادثة قرب نهر كرج، وبعد الحوار الذي تبادلناه في مرسمه، أيقنت أنه لا مجال للنفوذ إلى زوايا قلبه إلا من طريق واحد فقط، إذ لم يعد للنظرة وللجمال ولا للتزيين والغنج أي تأثير عليه، فقد كانت هذه كلها بمثابة حجر يصطدم بكومة قطن، حيث لا يقتصر الأمر على عدم ارتداد الحجر، بل إنه يختفي في ثنايا القطن.

كنت أستطيع فقط بالسعي والمثابرة والتضحيات الكبيرة أن أفتح مكاناً لي في قلبه، بيد أنني كنت، في الوقت نفسه، أحس بأنه كلما ازداد تعلقه بوجودي وبأنشطتي، أعطاني فرصة أقل لأجني ثمار عشقه.

منذ ذلك الزمان فما بعد كنت أزوره في بيته مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، أجد دائماً الذرائع لأذهب عنده، وكنت أهاتفه دائماً، وأحدد موعداً معه، ولم يدعُني هو قط ولو لمرة واحدة،

لكن حينمـــا كنت أذهب عنده أو أتحاور معـــه عبر الهاتف، كان واضحاً وجلياً أنه راض بلقائي، ويستقبلني بحماس وشوق.

كان ينشـــغل أحياناً بعمله، بينما أنا جالســـة أتفرج، وأحياناً أقـــرأ كتاباً، ونتبادل في بعـــض الفترات أطراف الحديث، يحكي لي عن ماضيه، وأحاول أن أســـتخلص من كلامه الانطباع الذي رســـمه في ذهنه عني خلال فترات مختلفة، وأحياناً كنا نناقش بعض الشؤون العادية المشـــتركة، وكان ينصت إلى كلامي بدقة، وبخاصة عندما يتحدث عن أمر يحتمل أن يكون فيه خطر عليّ، موضّحاً جميع جوانب الموضوع. وكان استنتاجي على الدوام أنه كثير الدقة ومنتقد عندما يتعلق الأمر بالسير العام للأمور.

لم يخطر في بالي أبداً أن تعلّقه بوجودي سيجعل منه إنساناً مدققـــاً وحريصـــاً إلى هذا الحـــد، فحينمـــا كان يحكي لي عن ذكرياته الماضية، كانت تُســـمع لصوته نغمة حزينة ولينة، تحدث لـــي بتفصيل كيف تعـــرّف إلى «آقا رجب»، وكيـــف أنه يثق بهذا الرجل أكثر من أي شـــخص آخـــر، فهو في رأيه مـــن القرويين الأشـــداء في «همذان»، وكان من المســـتحيل أن تحصل منه حتى علـــى كلمة. في حين، لم يكن يريد ولم يمنحني الفرصة أبداً كي أحكـــي له عن ماضيّ أنا. بعد التلميح الذي وجهه لي ذلك اليوم لم أجرؤ على أن أفشـــي له أســـراري، لم يمنحني مجالاً بعدها، إلا في حالة رئيـــس دائرة الأمن، وهناك أيضاً لم يكن للموضوع صلـــة بحياتي كي ألفت انتباهه إلى ماضـــيَّ الخاص، كان يفكر هناك في عمله ونجاحه. انظر، فحينما أقول عمله فليس قصدي الأنانية وعبادة الذات.

أصبحت بالتدريج شـــريكة لأسراره السياســـية، إلى حد أنه

كان يوجه أسئلة لـ «آقا رجب» في حضوري أحياناً، ويسمح له أن يقول أشياء لم يكن يسمح لأحد بأن يسمعها.

بعد سبعة أو ثمانية أشهر من التردد إلى بيته، وبينما كنت جالسة بالقرب من المدفأة في غرفته، دخل «آقا رجب» والخوف بادٍ على وجهه، فقال:

- سيدي، تفضل معي لدقيقة واحدة، فلدي ما أقوله لك.

- ما الخبر؟ قل لي، هنا!

قال «رجب» بأعين مذعورة:

- لقد ألقوا القبض على «فرهاد ميرزا» ليلة أمس.

- من أين علمت بالخبر؟

- عندما ذهبت، الآن، لتسليم علبتك لوسيطه، أخبرني بأنه من المفترض أن يكونوا قد ألقوا عليه القبض ليلة أمس، أو على الأقل قد واجه خطراً محدقاً.

- كيف نعرف أنه ألقي عليه القبض؟

- لم يكن وسيطه يعرف هذا، أنا فهمت ذلك.

كان الأستاذ ما يزال محتفظاً بهدوئه، أو على الأقل أظهر ذلك، في الوقت الذي داهمني خوف شديد، فسأل «آقا رجب»:

- هل فتّشوا منزله أيضاً؟

- نعم، سيدي.

- كيف عرفت؟

- كانت الإشارة أن يلفّ مزهرية زهور إبرة الراعي في ورق أحمر ويضعها أمام النافذة، في حال أصبح بيته غير آمن، واليوم صباحاً كانت هناك مزهرية زهور إبرة الراعي أمام النافذة.

- من أين عرفت أنهم اعتقلوه ليلة أمس؟

- سألت جيرانه.
- أنت سألت؟
- نعم، سيدي.

هبّ واقفاً من مكانه وسأله بإصرار:

- من قال لك أن تذهب إلى هناك؟
- سيدي، توجد أشياء كثيرة في بيته، وأردت أن أقوم بشيء.
- رجب، هل جننت؟

كان كل جسده يرتجف، هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها مضطرباً وعنيفاً إلى هذا الحد، ولم أكن أتصور أبداً أن يفقد سيطرته على نفسه بهذا القدر، وضع لوحة الرسم على الكرسي، ونزع معطفه الأبيض وجلس، ثم قال لـ «آقا رجب»:

- اذهب، لقد أفسدت كل شيء، ماذا تنتظر واقفاً؟

حين هدأ قليلاً، قال:

- إذا وقعت الأوراق والوثائق وآلة النسخ في أيديهم، فسيسوء الأمر كثيراً، يجب أن أعرف كيف اعتقلوه، من الممكن أن يفسد كل شيء ويوقعنا في مصيبة بسبب عدم حذره هذا.

كان الخوف قد فتك بي، لكن ليس من أجل نفسي، فلو كان عندي يقين بأنني سوف أُعتقل مقابل الظفر بحبه لكنت سعيدة.

تمشّى قليلاً في الغرفة، ونادى بعد ذلك، على «رجب»، وسأله:

- من أين عرفت أنهم فتّشوا منزله؟

أجاب «رجب» بهدوء:

- حينما أحضروا «فرهاد ميرزا» في سيارة إلى المنزل، كنت واقفاً على ناصية الشارع.
- متى؟

- قبل ساعة من الآن.

نظر إلى ساعته وسأل:

- كم الساعة، الآن؟

كانت الساعة تشير إلى الواحدة زوالاً.

- هل رآك «فرهاد ميرزا»؟

- نعم، سيدي.

- هل أعطاك أية إشارة؟

- كلا، سيدي، لم يبد أي شيء، لكن عند خروجهم من المنزل، ألقى إليّ نظرة من داخل السيارة، يبدو أنه كان سعيداً لأنك ستعلم باعتقاله.

- رجب، ألم تعرف ماذا طادروا من بيته؟

- كنت واقفاً على ناصية شارع «ري» وبيته يقع وسط الزقاق، فلم أعرف ماذا كان في السيارة.

- لقد قمت بعمل سيئ جداً، أغظتني كثيراً، هل كان من المقرر أن يقوم كل واحد بعمل حسب مزاجه؟ لقد انتهى الأمر، إذا وقعتَ في الشراك فأنت المقصّر! والآن يجب أن نفعل شيئاً، فلو أخذوا المعدات والأوراق لانتهى أمرنا، وإذا لم يأخذوها فيجب أن نعرف أين هي، كان يفترض أن تنقل هذه الأشياء خلال أيام قليلة إلى مكان آخر، لا أعرف أين أخذوها، ويجب أن نفهم شيئين؛ الأول: بأية تهمة أُلقي عليه القبض، والثاني أأخذوا معدات ووسائل عملنا أم لا؟

حينها، فكّر قليلاً، وقال لـ «رجب»:

- لا تذهب إلى أي مكان، انتظر حتى نفكر قليلاً.

خرج «آقا رجب» من الغرفة، وقلتُ:

- كيف تريد أن تعرف كيف تم اعتقال «فرهاد ميرزا»؟

- يجب أن نسأله هو.

- كيف تريد أن تسأله بنفسه؟

- يجب أن نرسل أحداً باسم أحد أقربائه إلى السجن.

تبادرت إلى ذهني فكرة، فقلت:

- ماكان، أنا أذهب إلى السجن.

- أنتِ؟

- نعم، أنا.

- لا لا، هذا ليس عملك.

- لماذا؟ ألأنني غير كفوءة؟ أنت لا تسند إليّ العمل الصعب أبداً، فهل حياتي أغلى من حياة الآخرين؟

- لا يتعلق الأمر بما تقولين، فهذا عمل دقيق، ويجب ألا نخاطر بشخص مثلك، يجب أن نستفيد من وجودك في مهمات أخرى.

هذه ذريعته دائماً، ويرفض إسناد المهام الصعبة إليّ، أيكمن السبب في تعلّقه بوجودي، أم أنه كان يقيم لي أهمية كبيرة؟

ثم قال بعد ذلك:

- فضلاً عن ذلك، فإن لغة «فرهاد ميرزا» هي اللغة التركية، ولا يمكن أن نجعل منك أخته، «فرهاد ميرزا» هو اسمه المزوّر.

- يمكنني أن أكون خطيبته أو زوجته.

- ماذا لو اعتقلوك أنت؟

- وقتها، سيكون قلبي سعيداً حين أخرج من السجن، مرة أخرى..

قاطعني:

- إن يعتقلوكِ فلـن يطول الوقت حتى يقضوا عليّ أنا أيضاً، حينها لن تريني للأبد.

- لا، لن أسمح بأن يقتلوك.

فتح قبضته ورتّب شعره بأصابعه الطويلة والسميكة لعدة مرات، وأدار رأسه لمرات، وقال:

- ليس بوسعك القيام بشيء، كيف تريدين الذهاب عنده؟

- أتّبع أوامرك، فضلاً عن هذا، فأنا أعرف رئيس دائرة الأمن شخصياً، ومتيقنة من أنه إذا طلبت منه مثل هذه الخدمة فلن يرد طلبي، بالتأكيد. أعرفه منذ أن كنت في باريس، إضافة إلى ذلك، فإن له صلة نسب بعيدة بأبي، تعلم أنه أرسل والدي من قزوين إلى كربلاء.

أصابته الغيرة، كانت هذه المرة الوحيدة التي أشار فيها إلى ماضيّ أنا، سألني:

- أهو أيضاً من الأشخاص الذين افتتنوا بعينيك؟

- أنا لا أعرف إن كان أحد قد افتتن بعينيّ.

- أما أنا فأعرف.

- إذن، فقل لي من؟

حدّق فيّ، لكنه لم يقل شيئاً، كنت أعرف نظراته هذه، لم يكن وجهه وحركاته ولا تجهماته تبدي شيئاً، لكن بعد لحظات أضاف بنبرة معترضة:

- لماذا تريدين سحب الكلام مني؟ دعينا نهتم بعملنا.

جاب الغرفة مشياً لبضع دقائق، كان يتوقف أحياناً وينظر إليّ في حيرة، ويحرك رأسه، ثم يقف مجدداً مقابل إحدى لوحاته،

ويمســـح بأصبعه الغبار الذي تراكم عليها، وينظر إلى الأشـــجار التي اكتست بحلّة الثلج البيضاء.

فجأة قال:

- فرنكيـــس، اذهبي، اذهبي من هنا، وافعلي ما بدا لك، أنا أريد أن أعرف شـــيئين فقط؛ الشـــيء الأول: هل صادروا أيضاً الوثائق والمعدات؟ والثاني: كيف ألقوا القبض عليه؟

- أي نـــوع من الناس «فرهاد ميـــرزا»؟ تحدّث لي عنه قليلاً، حتى أعرف كيف أواجهه.

حينهـــا، عرّف لـــي «فرهاد ميرزا»؛ كان شـــاباً يبلغ من العمر خمســـاً أو ستاً وعشرين سنة، أكمل للتو دراسته في كلية الطب، والده من ملّاك الأراضي فـــي مدينه «زنجان»، وقد توفي، وأمه تعيش في «زنجان»، كان أبوه في الماضي من المدافعين المســـلحين للزعيم العشائري لزنجان، وكان لفترة من المتمردين، وتم إعطاؤه الأمان بعد الانقلاب العســـكري، وأقسم بالقرآن أيضاً، بعد مدة تم اعتقاله، ومات في ســـجن القصر بســـبب عدم حصوله على الأفيـــون. لـ «فرهاد ميـــرزا» قامة معتدلة، وفـــي وجهه ثمة أثر لمرض الجدري، يتحدث بحدة وعصبية، وهو ذو طبع انبســـاطي مرح، صامد وثابـــت، إنما له أنانياته الخاصة بـــه. ليس جباناً، لكنه يتظاهر بالجســـارة، يستسهل كل شـــيء، وحتى حينما كان في الكلية، لم يكن يســـتطيع أن يلجم فمـــه، لدرجة أنه في تلك البيئة التي يســـيطر عليها الرعب والخـــوف كان الطلبة يتوانون فـــي التعاطف مع كلامه، وكان انفعاله يصل أحياناً إلى حد يفقد فيه الســـيطرة على نفســـه بشـــكل كامل، هو من أولئك الشباب الذين يتصورون، بســـبب التعصب الزائد، أنـــه بالتغيير والعنف

يمكن تنوير أفكار الآخرين. يهاجم كل شـــخص لا يشاركه ميوله وفكره ويرفض الانقياد لرغبتـــه، وربما يكون عدم توخي الحذر أحد أســـباب اعتقاله. يقع منزله في زقاق بشارع «ري» المحاذي لسوق «نائب السلطنة»، اسمه محسن كمال، واسم والده..

فكّر كثيراً، لكنه لم يستطع تذكّر اسم أبيه، قال:

- كان معروفاً في «زنجان» باســـم حاجي كمال، لو سألوك عن اسم والده، فقولي لا أعرف، لأنه مات، ولا أعرف اسم أمه أيضاً.

- ألديك صورة له حتى أتعرّف إليه؟

- ليست لدي صورة، لكن سأرسم الآن بعض الرسومات له.

جلس على مكتب عمله، وبدأ يرسم صورته بقلم رصاص كبير على ورق مقوّى سميك، يبدو كما لو كان يحادث نفسه، كان يذكر تقاســـيم وجهه بصوت عال، ويقول: له جبين طويل، يرسل شعره إلى ناحية واحدة، ذو شـــارب، لا وجود لخط رقيق في وجهه، له أنف كبير وشـــفاه ســـميكة، ولون وجهه قاتم، وحينما ينفعل يعلو الاحمرار بشكل مفاجئ كامل وجهه.

وعلى مائدة الغداء، تحدّث لي عنه مجدداً:

- فرنكيـــس، إنه عمل صعب، يجب أن تبدي نفســـك له في اللحظة الأولى بشـــكل يفهـــم أنك حقاً خطيبتـــه، إنه ولد ذكي، وسيفهم قصدك ســـريعاً، وليكن معك مقدار من المال، لا تنسي أنهم إذا شكّوا بأمرك فيمكنك بالمال أن تبددي شكوكهم بسهولة، انتبهـــي وكوني حذرة، ولا تغامري، من الممكن أن يكون بين أولئك الحراس البائســـين من لا يستطيع، من شـــدة الخوف، أن يأخذ منك رشوة، لأنك جئت تزورين سجيناً سياسياً.

فجـــأة، قطع كلامه والاضطـــراب بادٍ عليه، ولـــزم الصمت،

ثم سأل من جديد:

- ماذا ستفعلين الآن؟ هل ستذهبين مباشرة عند رئيس دائرة الأمن؟

- لا، في البداية، سأحاول أن أنجز العمل عن طريق هؤلاء الصغار، وإذا لم ينجح الأمر فسأذهب عند رئيس دائرة الأمن.

نهضت من مكاني، كانت الساعة تشير إلى الثانية وبضع دقائق بعد الظهر.

حين كنت أهم بالانصراف سألني:

- هل ستذهبين، الآن؟

- كلما أسرعت كان أفضل.

- إلى أن ترتدي معطفك، ستكون صورته جاهزة.

إنه شتاء بارد، كنت أرتدي معطفاً جلدياً جميلاً اشتريته من الخارج، وكنت وضعت على رأسي وشاحاً أحمر اللون، وتوجهت عنده مرة أخرى وأنا مرتدية المعطف، فقال:

- تعالي وانظري إلى الصورة، واحفظي وجهه جيداً.

بدت لي ملامح وجهه مألوفة، تذكّرت أنني قد رأيت هذا الشاب ذا الشارب في مكان ما.

قلت:

- أستاذ، رأيت هذا الشاب في مكان ما.

- أين رأيته؟

فكّرت قليلاً ثم قلت:

- أليس هذا هو نفس الشاب الذي كان خلفك أمام باب السينما في تلك الليلة؟

- أية ليلة؟

- تلك الليلة..

أدركـــت من نظرته أنه فهم مقصــودي، بيد أني كنت أريد أن أكشف ذلك في وجهه.

قلتُ:

- تلك الليلة التي ذهبنا فيها معاً إلى نهر «كرج».

وضع يده على فمي، ولم يســمح لي بأن أضيف كلمة أخرى، فزممت شفتيّ وقبّلت يده.

ســحب يــده كما لــو أن عقرباً قــد لدغه، يبــدو أنه أحس بالاشــمئزاز، ذهب قرب النافذة وطفق يشاهد منظر الأشجار، وقد كساها الثلج لباساً أبيض كالفضة.

فتحت باب الغرفة وخرجت، فلحق بي قرب الشرفة، أمسكني من تحت ذراعي حتى لا أسقط من السلالم المتجمّدة.

عندما كان يريد فتح باب ساحة البيت، قال:

- الحق معك.

اعتقــدت أنه يريد أن يودّعني بكلمــات رقيقة، غير أن الأمر لــم يكن كذلــك، كان يفكر فــي عمله فقط، وقــد تلقى جرأتي وتضحياتي هذه كأمر عادي تماماً.

قال:

- الحق معك، محسن كمال يعرفك، هو الشخص نفسه الذي كان يرافقنا في السينما، تتمتعين بذاكرة قويّة، الله معك.

ذهبت مباشــرة إلى البيت، وارتديت ملابس تناســب خطيبة نصف طبيب من ســلالة مُلّاك أراض من زنجان، وتوجهت فوراً، وعلى وجه السرعة، إلى السجن المؤقّت الذي كان قد اكتمل بناؤه حديثاً.

آه، سيدي الوكيل، أدعو الله ألا يتورط أي مسكين مع حراس السجن ويذل لهم. أود أن أشرح لك مقدار الذل الذي عانيته ذلك اليوم، لكن للأسف الوقت متأخر، فضلاً عن ذلك، أخشى أن تمل، لكن لا تنس أن الإهانة والمذلة التي عشتها لأول مرة في حياتي ذلك اليوم كنت أراها من عينيه هو، افهمْ قصدي جيداً، بالطبع هو لم يقل لي أبداً أن أخضع لمثل هذه المذلة والوضاعة، لكن ما من عمل لم أكن مستعدة لفعله وعلى أمل أن أحظى به في الحياة لنفسي، في ذلك اليوم رأيت بأم عيني ولأول مرة مدى الإهانة والتعاسة التي يتكبدها الناس في هذه البلاد على يد أصحاب القرار.

كان جمع كبير من الناس ينتظرون أمام بوابة السجن المؤقت، والرجال يصيحون بأصوات مبحوحة وقبيحة، النساء يصرخن، والأطفال يبكون، والحراس يبادرونهم بالسباب، ويدفعون الجموع عن الباب الحديدي بالقوة، كان خلفي هناك رجل عجوز يحمل في يده تومان واحد تلقّفه الحارس من فوق رؤوس الجميع، وسحب العجوز بقوة نحو الباب، ثم دفعه من «درفة» الباب إلى داخل ساحة السجن، كان الناس يرفس ويكز بعضهم بعضاً، كل واحد منهم يحاول أن ينقذ نفسه فقط، نظرة واحدة كانت كافية بالنسبة لي حتى أعرف أنني لا يمكن أن أكون واحدة منهم.

سألت امرأة عجوزاً تحمل في يدها حزمة بها حصة طعام: ماذا يجري هنا؟

فهمتُ أن ذلك اليوم مخصص لزيارة السجناء، فسألتني العجوز: لماذا جئت أنت؟ قلت لها إنني جئت أيضاً لزيارة خطيبي، قالت: سجينك بالتأكيد سياسي أو مختلس، اليوم مخصص

للفقراء والمساكين، لا يسمحون بزيارة السجناء السياسيين والأعيان. أشفقت المرأة العجوز على وجهي الذي اعتلاه اليأس، وقالت لي حينها: أنا سأذهب لزيارة ولدي، هو سائق، وقد دهس شخصاً وحُكم عليه بخمس سنوات، تعالي معي أنت، هناك في الداخل قومي بما تستطيعين عمله.

على الباب الحديدي كان عدة رجال ونسوة يتجادلون مع حارس يسب ويلعن وهو يرفع عصاه، تعالت أصوات خمسين إلى ستين شخصاً.

سألت رئيس الحرس الذي كان ينظر إليّ بعينيه الشهوانيتين:

- لماذا لا تسمح لي بالدخول؟

أجاب بأدب:

- سيدتي، السجن ممتلئ، يجب أن تخرج مجموعة حتى يفسح المكان لهؤلاء.

- ائذن لي أن أدخل.

وضعت في يده خمسة تومان.

- من تريدين أن تزوري؟

- محسن كمال!

- ما عمله؟

- طبيب.

- ماذا فعل؟

- لا أدري.

- متى اعتقلوه؟

- ليلة أمس.

- إذا كان سياسياً فمن غير الممكن.

- أنت اسمح لي بالدخول وأنا سأتدبر الأمر.

فتح لي رئيس الحرس الطريق، وقال لحارس الباب:

- افتــح الطريــق، حينما تعود ســوف تعطيــك نصيبك من البخشيش.

ذهبــتُ إلى الناحية الأخرى مــن النافذة، كان الناس ينظرون إليّ بنظرات يملؤها الحســد والضغينة، ســألني شخص يلبس لباساً مدنياً:

- ماذا تريدين؟

فأجاب رئيس الحرس نيابة عني:

- جاءت لتزور سجيناً، سيد حسن، اتركها وشأنها، اسمح لها بالذهاب.

قلتُ:

- سيدي رئيس الحرس، أنا لا أعرف الطريق، تعال لترشدني.

تبادل رئيس الحرس بضع كلمات مع حارس الباب، حينها قال الضابط الذي كان يرتدي لباساً مدنياً:

- سيدتي، إذا كان سجينك سياسياً، فإنهم لا يأذنون لأحد.

التفتُّ ناحية رئيس الحرس وقلت:

- إذا اســتطعت أن توصلني إلى الســيد كمال، فسأجزل لك عطاء أفضل.

قال رئيس الحرس:

- سيدتي، لا تقولي للمسؤول الكبير في المناوبة إنه سياسي، قولي إنه اختلس أموالاً.

كان الرجل الغريب الشكل والقذر اللباس، الذي سألني قرب الباب، يتعقّبنا.

سأله رئيس الحرس:

- سيد حسن، هل أحضرت أحداً إلى هنا ليلة أمس؟

ردّ الضابط:

- إننا دائماً نحضر السجناء، أمس أيضاً أحضرنا اثنين أو ثلاثة.

- سيدتي، أنت تريدين زيارة من؟

- محسن كمال.

- إنه، بالتأكيد، من أولئك الذين يوزّعون المنشورات، ما قرابتك به؟

- أنا خطيبته.

همس رئيس الحرس في أذني:

- يجب أن تُرضيه، هؤلاء الأوغاد لا يخدمون أحداً ما لم يقبضوا.

لكن الرجل كان يبدو أذكى من رئيس الحرس، ويعطي أهمية أكبر لعمله.

- سيدتي، يجب أن تذهبي أولاً إلى الدائرة السياسية، وتأخذي التصريح من هناك، وإلا فلن يسمحوا لك بزيارة السجين.

كان رئيس الحرس يريد أن يهمس له بشيء، انتابني القلق، فإذا بضابط الدائرة السياسية ينهره:

- أنت ماذا تقول؟ أنت لا تعلم أن السجين لم يدلّنا بعد على عنوان بيته.

لكن، حينما فهم رئيس الحرس أن الموضوع مهم أغراه الطمع، تحدثا فيما بينهما بصوت خافت لمدة، وفي النهاية لم يستسلم ضابط الدائرة السياسية للضغوط.

- سيدتي، تفضلي اذهبي إلى الدائرة السياسية، يجب أن تأخذي تصريحاً من هناك.

قلت:

- ما دخلك أنت أساساً؟ ماذا تقول؟ لقد جاؤوا هذا الصباح وفتّشوا منزله.

قال الضابط:

- نعم، لكن ذلك لم يكن بيته، المنزل الذي أعنيه هو ذاك الذي توجد فيه آلة النسخ والمنشورات التي طبعها.

- لا وجود لهذه الأشياء أصلاً، أنتم مخطئون.

لم تكن زيارة «فرهاد ميرزا» ضرورية في الأساس، لأنني رأيت أن مأموريتي قد تمّت.

أراد مني الأستاذ إجابتين اثنتين، كيف وبأية تهمة تم اعتقاله؟ وهل صادروا الوثائق والمعدات أم لا؟ اعتقاله كان مؤكداً، كان أحدٌ ما قد وشى به، أحد ما قام بخيانته، لأن الدائرة السياسية كان لها علم بوجود آلة النسخ والوثائق الأخرى في بيته، من دون أن تكون قد عثرت فعلاً على هذه المعدات والأوراق، كان أحد ما إذن يعلم من قبل وسرّب الخبر، لكن الأثاث قد تم نقله من البيت في وقت سابق، ولهذا السبب، فتشوا منزل «فرهاد ميرزا» صباح هذا اليوم، ولأنهم لم يعثروا هناك على شيء، اعتقدوا أنه لم يُدِّلِ بعد بمنزله الحقيقي.

قال ضابط الدائرة السياسية:

- أتمنى أن نكون قد أخطأنا، وفي كل الأحوال، أنت يجب أن تأتي معي إلى الدائرة لأنك خطيبته، وبالتأكيد تعرفين منزله.

كنت حاضرة الجواب، فأجبت على الفور:

- نعم أعرف بيته، بالتأكيد.

- أين بيته؟

أجبت متلعثمة:

- شارع «ري»، الزقاق المحاذي لسوق «نائب السلطنة».

فتر حماس ضابط الدائرة الأمنية.

عندما أحس رئيس الحرس بضعف ضابط الدائرة السياسية، ازدادت جرأته.

- أرأيت، أرأيت أنك تتسبب للناس في المتاعب عبثاً ودونما فائدة، ما لقمة العيش هذه التي تكسبونها؟

كانت الساعة تقريباً الخامسة والنصف عصراً، قال ضابط الدائرة السياسية:

- في كل الأحوال، إذا أردت زيارته فيجب أن تأخذي تصريحاً من الدائرة السياسية، والآن انتهى الدوام هناك، زيارة السجناء السياسيين من دون الحصول على تصريح رسمي من الدائرة السياسية ممنوعة، ولا يستطيع أحد أن يسمح لك بزيارة سجينك.

- هل يستطيع رئيس دائرة الأمن أن يسمح بالزيارة؟

- بكل تأكيد.

- إذن، ائذن لي أن أستعمل هاتف السجن لأتصل به.

- هل تعرفين حضرة جنابه؟

- نعم، هو من أقربائي.

كنت أبحث عن طريقة أتخلّص بها من شر ضابط الدائرة السياسية، ولهذا السبب ذكرت اسم رئيس دائرة الأمن وقرابتي به لأزيح الضابط من طريقي، ولم أكن أنوي أبداً مراجعته من

أجل زيارة «فرهاد ميرزا» التي لم تعد ضرورية في الأصل.

آخر جملة نطــق بها الضابط في الدائرة السياســية أثارت انتباهي إلى فكرة فيها تعاستي ومصيبتي.

ســيدي العزيز، أنا حكيت لك القصة الكاملة لهذا الســجن، لكي ترى كيف أني نصبت شــركاً لتعاســتي وأوصلت حياتي إلى هذا المصير.

قال ضابط الدائرة السياسية:

- لو تعرفينه قومي بشيء ليخلّص خطيبك من السجن.

قال هذا الكلام من قبيل الســخرية، ولكن بالنســبة لي بدت الفكرة جيّدة.

ذهبــت من الســجن إلى البيت مباشــرة، غيّرت ملابســي، وتوجهت إلى منزل الأســتاذ لأول مرة دون أخذ موعد مســبّق، وقلت له:

- كنت قد سألتني سؤالين، فأحضرت لك جوابهما.

كأننــي حققت نصراً كبيراً، هكذا كشــفت لــه عن نجاحي، سألني:

- هل رأيته؟

- لا، لم أره، أي إنني لم أرد رؤيته.

- وإذن، ماذا؟

- أنت كنت قد سألتني سؤالين وأحضرت جوابهما.

- لماذا اعتقلوه؟

- بتهمة توزيع المنشورات.

- أين الأثاث؟

- لا أعلــم هذا، لكنني أعــرف أنهم لم يعثروا في منزله على

أشياء من هذا القبيل.

- هل ذهبت مباشرة عند رئيس دائرة الأمن؟

- لا، لم أذهب عند رئيس دائرة الأمن، إذا أذنت لي فسأذهب.

حينها، سردت له بالتفصيل ما حكيته لك أنت الآن، وطرحت عليه النتيجة التي خلصتُ إليها.

سكب لي كوباً ساخناً من الشاي، وأحضر الكرسي ذا القوائم الأربعة الذي يجلس عليه أثناء عمله إلى جوار المدفأة، وجلس قبالتي، بحيث كانت رؤوس ركبتينا تتلاقى، أمسك يدي بيده، وقال:

- أحسنت يا بنية، أنت جسورة، حقّاً.

كادت عيناي تمتلئان دموعاً، فقلت:

- على العكس من ذلك، أنا إنسانة جبانة، أنت من تمنحني الشجاعة والجرأة.

نظرت إليه بعينين ملتمستين، دونما تصنع، مثل إنسان يلهث وراء قطرة ماء ولم يعد له حتى قدرة على التنفس.

ترك مكانه، وأمسكني من تحت ذقني بشدة لم أشهد لها مثيلاً، ثم قال:

- يا فتاة، لا تنظري إليّ هكذا! عيناك هاتان سترغمانني، في نهاية المطاف، على ارتكاب خطأ فادح في حياتي.

- خطؤك هذا هو أمنيتي.

كان جوابي صحيحاً، لكنه لم يقر بذلك، وعلى العكس اعتقد أنني أريد أن أعذبه، كانت جملتي سهماً لم يصب الهدف، لكنه جرحه، انتصب واقفاً، وقال:

- أنت لا قصد لك إلا عذابي.

- أوه، كم أنت قاسي القلب..

لا فائدة، كان هذا الهاجس يوسوس في قلبه، وأنا لم أكن أعرف كيف أنزع ذلك من رأسه. قلت:

- أنت تخطئ.

أردت أن أخرج من الغرفة ولا أعود لرؤيته حتى يطلب هو مني ذلك، لكنه جاء إليّ مثل قنفذ لملم فجأة شوكه، وأمسك بيدي، وقال لي بليونة ومرونة:

- فرنكيس، ابقي، لدينا عمل نقوم به، يجب أن نكون أصدقاء فقط، هكذا ربطت الحياة بين مصيرَينا، اجلسي لدقيقة واحدة!

صمتنا للحظات، كنت واقفة بجانب النافذة، وهو جالس على الكرسي، ينظر إلى الأرض.

حينها سألني عن تفاصيل ما جرى أمام باب السجن، وتحدّث عن رجال الشرطة والحراس وسلوكهم مع الناس، بعد ذلك انغمس بالتفكير فيمن يكون قد وشى بـ «فرهاد ميرزا». كان يقول:

خلال هذه الأيام القليلة الأخيرة، تم اعتقال عدة أشخاص، ألقوا القبض على «جلال» و«عبدل» و«شاطر»، كان «شاطر» الوحيد الذي يعرف أن آلة النسخ موجودة في منزل «فرهاد ميرزا» والأوراق تطبع هناك، لكن «شاطر» لا يمكن أن يكون قد وشى بـ «فرهاد ميرزا»، لأن «فرهاد ميرزا» استطاع أن ينقل المعدات والأوراق عن طريق «شاطر» هذا، وهو يعرف المنزل الجديد.. هناك احتمال واحد فقط.

فكّر قليلاً، ثم قال:

- أنت لا تعرفين «شاطر»، هذا الرجل يبالغ في كل شيء، يعمل كعامل تقني منذ خمسة وعشرين عاماً، ومنذ أن كان يقود القاطرة

من «تبريز» إلى «جلفا»، لم يكن للأســف يكتم سرّاً، ففي رأيه مثل هذه الأنشطة السياســية غير ذات جدوى، ويعتبرها لعب أطفال، هو يتأمل أن يسندوا إليه يوماً قيادة قاطرة أو قطار مملوء بالجنود الثوريين، ويعطوه الإشــارة بالانطلاق: يا اللــه، انطلق! أخمّن أنه هو من ســرّب خبراً لشخص ما، ربما أيضاً لم يشِ أحدٌ من الذين اعتُقلوا بـ «فرهاد ميرزا»، والخائن ما زال بيننا..

تحدّث معي، أعني مع نفســه على الأقل لســاعة من الزمان، حول من يكون قد وشى بـ «فرهاد ميرزا».

نهضت من مكاني الســاعة العاشــرة، وقد فتــك بي الجوع، خرجنا معاً من بيته، كان البرد قارســاً، وجبل «دماوند» يتباهى من بعيد بقبعته البيضاء، كان يمســك بذراعي، ولم نتحدث ولا بكلمة واحدة.

ودّعته أمام باب المنزل، وشــدّ على يدي بقوة، أحسســت بأن أهميتي ازدادت عنده، لكنني لم أتذوق طعم المحبة في ضمة يده، وحين أردت أن أفارقه، قال لي:

- لا تستعجلي الذهاب عند رئيس دائرة الأمن، إذا لزم الأمر فسوف أخبرك.

عندمــا فتحت الباب، وجدت الغــرف مظلمة، وحده مصباح المدخل مضاء، أمي المســكينة تعوّدت على هذا الوضع، أحضرتْ لي «فضة ســلطان» العشــاء، وتناولتُ الوجبــة، ثم ارتميت على سرير النوم، وقضيت ساعات في الأرق.

لــم أذهب إلى بيته بضعة أيام، فهــذا الرجل يعذبني دون أي قصد، أنا لا أســتطيع أن أتصور أنــه يعذّبني عن وعي وإدراك، غير أن ســلوكه يؤلمني، وكنت أنتظر أن يرسل في إثري، لكنه لم

يفعل، فلم أحتمل، هاتفتُه مجدداً، وذهبتُ أيضاً مجدداً.

بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة على تلك الليلة، كلّمني بالهاتف، وطلب مني الحضور على الفور، كان الوقت هو الخامسة مساء، وبرودة فصل الشتاء ما تزال في أوجها.

حينما ذهبت إلى بيته قال:

- لم يفهموا شيئاً من «فرهاد ميرزا» لحد الآن، منذ يومين أو ثلاثة وهم يقومون بتعذيبه، ليلة أول أمس عذبوه إلى الصباح بتكبيل يديه من الخلف وتعليقه في السقف لمرات عديدة، والآن يجب أن نفكر في موضوع الذهاب إلى رئيس دائرة الأمن، في الحقيقة منذ ليلة أمس إلى الآن وأنا أفكر ما إذا كان من المفيد لك ولنا أن نلجأ إليه في هذا الموضوع أم لا، ليس هناك من خيار. أنت ماذا تقولين؟ هل تودين أن تحدثيني قليلاً عن هذا الصديق القديم وقريبك البعيد؟

كانت هذه أول مرة يسألني فيها حول ماضيّ أنا، وأنا حكيت له عين الواقع، حينما استمع إلى كلامي جيداً، قال:

- عزيزتي فرنكيس، أطلب منك أن تنقذي «فرهاد ميرزا»، يجب أن نخرجه من السجن مهما كلّف الثمن، وإلا فسيقتلونه، «فرهاد ميرزا» لن يفصح لهم عن شيء، سيعذبونه حتى الموت.

- بأي ثمن؟

لم يجبني، حدّق فيّ كأنه لم يدرك عمق الكلام.

قلت:

- ولو بثمن... «ماكان» حتى إذا كان الثمن أن أبيعه عمري كله؟

- لا، ليس بهذا الثمن الباهظ.

* * *

كانت هذه آخر مرة رأيته فيها، لم أره بعدها أبداً.

في صبـــاح اليوم التالي، اتصلت هاتفيـــاً بمنزل العقيد آرام، الرئيس العام لدائرة الأمن ودعوته إلى العشـــاء، وقد اســـتجاب لدعوتي بترحاب كبير.

سيدي الوكيل، ما سأفشيه لك الآن، هو أكبر سر في حياتي، ولا أحد يعلم به، وينبغي ألا يعلم به أحد أيضاً. أنا ألقيت بنفسي عن علم ووعي إلى مستنقع المصائب، كنت أرى هلاكي بكل وضوح وجلاء، لكنني لم أسمح للخوف أو الجزع بأن يتسرب إلى نفسي. أنت، الآن شـيئاً فشـيئاً، بدأت تفهم لماذا لم أعرّفك إلى نفسي؛ لأن لدي إصراراً على أن يبقى أكبر ســر في حياتي مخفياً تحت غطاء من النســيان إلى الأبد، لأنني لو تحدثت عنه فسيفقد كل قيمة له، وحينها ســوف أفقد أنا أيضاً ما كان يواسيني ويمدّني بالهدوء والراحة في ساعات الوحدة المليئة بالقلق والاضطراب، وسيســحق قلبي عــذاب قاتل ومرير. آه، لو كانـــت لديّ الجرأة وأفشــيت له هذا الســر، لربما أصبح هو الآخر سيكون سعيداً، غيــر أني كنت أعلم مدى تضحياته ومــدى قدرته على الصمود في وجــه الحرمان من كل متع الدنيا، لــو عَلِم بتضحيتي لربما ما كان قد رســم هذه اللوحة، لكن العذاب الذي كان يتحمله هو كان يعذبنــي أكثر. لمــاذا أقول لك هذا الكلام الآن؟ أنا نفســي لا أدري، ربما لكي أفرغ هذه العقدة التي تجثم على قلبي وتقطع أنفاســي، لو كان يعلم كيف افتديته لم يكن بالتأكيد ليرسم هذه اللوحة بهاتين العينين الفاجرتين، على العكس، فهو يتصور أنني تخلّيت عنه في أصعب ســاعة في حياتــه، وتركته ليواجه قدره المشؤوم بمفرده.

بـــدأت معرفتي بالعقيد «آرام» منذ اليـــوم الأول لقدومي إلى باريس، بمجرد توقف القطار في محطة Châtelet رأيت رجلاً رشـــيقاً ومتأنقاً وأبيض الســـحنة، لا يميّزه عن الفرنسيين سوى شـــعره الأســـود وحاجبيه الكثين، توجه ناحيتي وناداني باسمي، وأمســـك يدي بحرارة وحنان، وأعطى حقيبتي للحمّال الذي كان هنـــاك منتظراً، وأخذني إلى الفندق الـــذي حجز لي فيه غرفة مسبّقاً.

منذ تلك الأيام الأولى، توطّدت معرفتنا، وازدهرت صداقتنا، وكنت أراجعه في كل أمر دون تردد، وهو يتجاوب دون رياء، وكان يعطف عليّ أكثر مما يســـتوجب التماس رجل عجوز من العائلة له لمســـاعدة ابنته في بلاد الغربة. خـــلال تلك الأيام، كان مكلّفاً من قبل وزارة الدفاع الإشـــراف على الطلبة العســـكريين، وفي الوقت نفسه يأخذ راتباً من الدولة لقاء مزاولته المهام البوليسية والمخابراتية، حينها كانت رتبته العســـكرية هي نائب عقيد، غير أن كلامه في الســـفارة وفي أوساط الإيرانيين وفي وزارة الدفاع ووزارة الثقافة الفرنســـيتين وفي المحافل التي تهم شؤون الطلبة الإيرانيين كان له تأثيره، قدّم لي مســـاعدات جمّة في كل أموري وشـــؤوني؛ في التســـجيل في Ecole des Beaux Arts، وفي امتحانات القبول في هذه المدرســـة، وفي إعداد متطلبات العمل والبيت، وحتى في شـــراء الملابس، ليس هو فقط، بل ســـخّر لي حتى الأشـــخاص الذين يعملون في إدارة الإشراف تحت إمرته، لدرجـــة أنه بعد انقضاء مدة قصيـــرة، كنت أعتبره ليس ابن عم والدي فقط، والذي كان حقـــاً يعاملني بلطف ومحبة وأخوة، بل أضحينـــا أصدقـــاء مقربين أيضاً، وخلال شـــهور معدودة، زرت

بمعيتـــه كل الأماكن الجميلة والجديـــرة بالزيارة في هذه المدينة الرائعة في العالم، بدءاً من المســـرح والمتحـــف وانتهاء بالمقاهي والملاهي والمراقص الليلية، كنت أرافقه في الحفلات الرســـمية، وحقّاً كان هندامه الرائع ووجهه الطلق وملابســـه الأنيقة أخاذة، وبخاصة في اللقاءات الرسمية التي يرتدي فيها اللباس العسكري ذا الخيـــوط والحزام، كنت أفتخـــر بمرافقته في أرقى الحفلات في مجتمعات باريس، وفي السهرات العامة والخاصة للسفارات الأجنبية، فضلاً عن ذلك، فإن ســـخاءه - وأحياناً إسرافه - في دعوات العشـــاء التي يدعوني إليها كانت تترك أثراً فيّ، أنا التي أحبذ حياة البذخ والترف.

لكـــن إذا تركنـــا هـــذا جانباً، فـــإن أهم ما كان يميـــز حياته أنه لا يتظاهر بالزهد، ولا يحشـــر نفســـه فـــي دائرة الصالحين والصادقـــين، ولم يكـــن يتورع عن الإقرار لـــي بأنه منذ أن خرج من إيران لم يصرف في فرنســـا وأوروبـــا ديناراً واحداً من ماله الخـــاص، بل على العكس من ذلك تماماً فقد أودع كل أمواله في بنوك إنجلترا وسويســـرا، وحتى إنه فتح أيضاً حساباً معتبراً في بنك فرنسا.

لم يكن يقصد من ذلك الســـرقة وتبديد أمـــوال الدولة، كان علـــى يقين قاطع بأن المجتمع الذي يعيـــش فيه والذي يعتبر هو نفســـه أفضل من باقـــي أفراده بكثير، يجـــب أن يُؤمِّن له حياته ويلبّي لـــه احتياجاته، وكان يعتقد أنه يتفـــوق على أكثر مجايليه في الشـــرف والأصالة والوعي والشـــجاعة والفعّالية، فلا يمكن حبســـه في قالب حياة مواطن عـــادي، بل يجب أن تطلق يده في كل الأمـــور، ولو تقاطعت في هذا المجـــال مصالحه الخاصة مع

مصالـــح النـــاس العاديين فهو يعتبر نفســـه صاحب الحق الأول ليدوس على نعوشهم، وكان، في الحقيقة، رجلاً صريحاً وجريئاً وحاســـماً وفعّالاً، وفي أي وقت كان يحس بأقل خطر يتهدده من قبل المنافسين والحاسدين، كان الكيس ينفتح من تلقاء نفسه، إذ بمقدوره أن يملأ أكثر الأفواه طمعاً بما لذ وطاب، وهو على يقين من أن تعويض خســـائره أمر يســـير ويومي خلال بضعة أسابيع من بقائـــه صلداً وثابتاً في منصبه، لكن إذا لم يكن ممكناً خداع المنافسين وترويضهم بالحسنى، فحينها لا يبقى أمامه من مخرج سوى استعمال أكثر الوسائل عنفاً، ومن دون رحمة.

كان مؤمناً بأن كل شخص في هذه الدنيا مضطربة الأحوال، سواء في إيران أو في أوروبا، يجب أن يكون منتبهاً لعمله ولمستقبله، لا أحـــد يفكّر في الآخر، وكل من يريد، ولـــو لدقيقة واحدة، أن يضع مصالحـــه وأهدافه تحت قدميه دفاعاً عن المصالح العامة فهو غبي وقتله واجب، لكنه في الوقت نفســـه كان كفوءاً وفعّالاً، حينما كان يحس أن رضا شاه يريد شيئاً لم يكن يقيم أي حساب للربح والخســـارة، ويعبر على نعـــوش المهملين، ويصرف الأموال مثل الحصى من جيبه، ويلبي احتياجات الشاه ورغباته. ذات يوم أراد الشاه الحصول على حصان جيد ليوم الحادي والعشرين من شباط (فبراير)، فجاب أحد ذوي الرتب العليا من الخيالة خلال ثلاثة شـــهور كل أوروبا بحثاً عن الفرس، ولم يســـتطع الحصول على حصان مطابق لرغبة الشـــاه وبالســـعر الذي يراه مناسباً، فوقع تقرير بيد العقيد يشير إلى أن الشاه صب جام غضبه على صاحب الرتبة لتصرفه العاجز.

خلال أسبوع واحد استقل الطائرة إلى المجر واشترى حصان

«هرتسوك فن ميكاش» بسعر أغلى بكثير من قيمته الحقيقية، وأرسله إلى طهران. المصاريف التي احتسبها على الشاه في هذه المعاملة لم تكن تشكّل نصف المصاريف الحقيقية، ومن الطبيعي أن تتصور ماذا حلّ بصاحب الرتبة المسكين ذلك، والذي تجوّل لمدة ثلاثة أشهر في أوروبا، ولم يستطع أن يشتري الحصان الذي يريده الشاه بالسعر الذي يقبل به جلالته، كان ذنب صاحب الرتبة العالية هذا أنه نقل في تقرير قدّمه إلى المركز شيئاً عن تبذير العقيد بنفقاته في أوروبا.

بهذه الطريقة استطاع أن يحظى بثقة الشاه واحترامه، وكان في الآن نفسه يخاف منه، ولأن الشاه هو الشخص الوحيد الذي بمقدوره أن يمسحه من الوجود يوماً ما، فقد كان يحمل له في قلبه ضغينة عجيبة، غير أنه كان حذراً جداً في التعبير عن هذا الحقد، حتى مني أنا كاتمة أسراره، ليس لأنه كان خائفاً ويريد أن يخفي كرهه له، وهو الذي لا يقصّر في التعبير عن انزعاجه، وإنما كان يضفي على ذلك طابع الوطنية، فيقول:

- إن غِلطة الشاه في الأزمة العالمية الحالية ستلحق الضرر بالبلاد، والوطني هو من يوجه له الضربة قبل سقوطه.

وكان يقول لي لأنني أحفظ أسراره وأهل ثقته مراراً وتكراراً:

- سأصدمه يوماً صدمة لا تخطر له على بال، على الأقل سأفعل ما من شأنه أن يوقف إيذاءه لي.

أتذكّر جيداً عندما أريته صحيفة كان «خداداد» قد أعطاني إياها، ألقى نظرة، قرأها وضحك ساخراً، وقال:

- هل بألعاب الأطفال هذه تريدون أن تتصارعوا مع هذا الرجل؟ لو نفخ هو نفخة واحدة فسيمحوكم جميعاً، إذا كان أحد

ما يستطيع أن يقوم بعمل، فذلك هو أنا، وليس الأطفال الصغار.

على الرغم من العنف والعناد اللذين كان يبديهما للأشخاص حينما يتعلق الأمر بمصالحه وأهدافه، لكنه كان مع ذلك متسامحاً، يعتبر نفسه أكبر من سائر المنافسين الآخرين جميعهم بكثير، وحينما كان أحدهم يخطّط لمؤامرة من أجل توريطه، وهو موقن أنها لن تنجح، كان يسامحه، لا يظهر أي اهتمام، ويكشف له عمله بكل صراحة ووضوح.

كان الملحق العسكري الإيراني في باريس قد أرسل تقريراً إلى الشاه يقول فيه إن العقيد آرام له علاقة غير علنية مع مثيري الفتنة من الإيرانيين في برلين، لم يكن هذا التقرير فاقداً للصحة، فقد كان في معرض سفره إلى برلين لمرة أو مرتين، وبغرض اقتناء الآلات العسكرية والأسلحة التي يحتاج إليها الجيش، قد تعرف إلى بعض الإيرانيين الذين كانوا يؤسسون نواة نهضة ثورية، كانوا يروقون له، وكلما حَلّوا بباريس للمشاركة في مؤتمر للطلبة لا يتورع عن مخالطتهم، ويقول:

– لا تهمني قناعتهم، لكنهم يدركون المنطق الصحيح، ولم يكونوا يجترون الكلام كما تجتر الخرفان العلف، إنهم يتحلون بالجرأة، وهذه ميزة تميزهم عن الآخرين، لكن للأسف لا يقدرون على فعل شيء، لو يأخذون بعين الاعتبار جرأتي وشهامتي وأموالي وتاريخ عائلتي فإن عملهم سيثمر نتيجة.

أرسل الشاه التقرير إلى إدارة التفتيش العامة، وطلبوا منه توضيحاً بهذا الخصوص، كان العقيد رجلاً ذكيّاً، ويدرك أن هذا التقرير حين تم إرساله إلى المكتب الخاص في الأركان العامة وإدارة التفتيش فهذا يعني أن الشاه لم يعره أي اهتمام، حضّر

جواباً وأرسله وانتهت القضية.

بعد أيام من هذه الحادثة، وحينما كنت أصعد برفقته سلالم السفارة الإيرانية، التقينا العسكري الذي كان أعلى رتبة من آرام بدرجة واحدة، وكان العقيد يحمل في يده عصا صغيرة يلعب بها على الدوام، حتى حينما كان يلبس ملابسه، ضرب بها على كتف الملحق العسكري بليونة، ثم قال مازحاً:

- أيها العقيد، لماذا تدخل في معركة مع من هو أكبر منك؟

قال الملحق العسكري:

- لم أكن وقحاً مع جناب العقيد.

قال آرام:

- اتعظ بهذه، واندم على ما فعلت.

تبادل الطرفان الحديث، فأفسح له الملحق العسكري ذو رتبة العقيـد الكاملة الطريق وذهب، في حين لـم يقدم نائب العقيد آرام على أية خطوة تضر بمنافسه، في وقت كان يقدر على ذلك، ويستطيع أن يصرعه ويسحقه.

وكانت النتيجة أنهم بعد أسبوع أو اثنين أحضروا العقيد آرام إلى طهران، وعندما رجع تم تعيينه معاوناً خاصاً لجلالة الشـاه في أوروبا بأسـرها بدرجة عقيد بأقدمية ستة أشهر، وأُسندت له أيضاً مهمة اقتناء الأسـلحة، وقد شكّل هذا المصدر الأساس الذي كون ثروته الهائلة من خلاله.

لهذا السـبب، كان الجميع يعمل له ألف حساب، وحتى سفير إيـران أيضاً يعلم جيداً أن العقيد آرام من أولئك الغريبين الذين يجب التكيف معهم.

كان العقيـد آرام منذ ذلك الزمان من خطّابي الجادين، لكنه

لم يكن يلعب دور العاشق الولهان، كان له رأيه الخاص عن الزواج والحب، ويقول:

- يجب على المرء أن تكون له زوجة تعيش معه، تقوم في البيت على كل شؤونه، وتحترمه، وتستطيع أن ترافقه إلى المسرح وحفلات الموسيقى وتسافر معه، ويجب على امرأة مثل هذه أن تستطيع تثبيت نفسها أمام أشخاص مقتدرين، وتكون في الضيافات الرسمية مرافقة له ومن نفس مستواه، فأحياناً يكون بمقدور امرأة واعية أن تقوم بأعمال صعبة بمنتهى السهولة لا يقدر حتى الرجال الأشداء على القيام بها، غير أن مثل هذه المرأة ليست كافية للحياة، وفي الآن نفسه فممارسة الحب من ضروريات الوجود، الحب موجود في الكتب للأغبياء فقط، إنما المرء لا يستطيع أن يعيش حياته مع تلك التي يذوق المتعة معها فقط، فيجب أن تبقى واحدة في البيت ترعى الأطفال وتستقبل الضيوف وتدير شؤون البيت كلها تحت سلطتها، وللرجل الحق في أن يحتسي في بعض المرات عصارة الحياة مع امرأة أتقنت فنون الإغراء في مدرسة المجتمع.

لم يكن يجهل تماماً حياتي المتحررة من القيود مع أقراني من الشباب في مدرسة الفنون الجميلة، لكن رأيه كان أن هذه نزوات طارئة، ومن تريد أن تتزوجه يجب أن تكون قد مرت بهذه المراحل.

ولهذا السبب كان يرغب بالزواج مني، لأنه كان يتصور أنني امرأة موقرة، وبمقدوري أن أتدبّر أموري بمفردي، وأستطيع أن أستثمر كل الأمور والثروة والمقام والجاه الذي يوفره هو لي أحسن استثمار، وأنّ مساعدتي ستكون مفيدة لمساعيه، وكان

يعتقد أنني سأكون امرأة متمرّسة وقوية، وأنه بإرادتي المدعومة بجهوده وآماله لن تستطيع أية قوة في الحياة أن تصمد أمامنا، فكان يقول لي بمنتهى الوضوح والصراحة:

- عيشي معي، وأنا سأفتح في وجهك أبواب الجنة في هذه الحياة المضطربة، سأوفّر لك كل ما تريدين وأكثر مما تتوقعين ومما يمكن أن يعدك به أكثر العشاق إخلاصاً؛ السفر، والترف، والاحترام، والمال، والمجوهرات، والبيت، والبستان، لا تخافي من نزواتي، فهي مؤقتة ومنتهية، ستبقين أنت.. وأنا.

على إثر حادثة اعتقال موظفي البريد والتلغراف الذين نشروا الرسائل، تم تغيير رئيس دائرة الأمن، وبعث الشاه إليه تلغرافاً في باريس يطلبه، وأسند إليه الرئاسة العامة لدائرة الأمن.

وبعد دخوله إلى طهران ببضعة أيام، زرته في بيته، كان من الضروري أن أقوم بهذه الزيارة لأنه على اطّلاع بنفي أبي، ولكنني لم أشر إلى ذلك بتاتاً، حتى لا يظن أنني قد زرته من أجل إنقاذ والدي، كنت أعرفه جيداً، وأعلم أنه لا يخطو خطوة واحدة صغيرة في الحياة دون أن يطلب مقابلاً مادياً، ولست أرضى أن أصبح ممتنّة له، وحين آن وقت زيارتي أثار موضوع نفي والدي بنفسه، وقال:

- هذه تصرفات الرئيس السابق الحمقاء، كان قد أفهم جلالة الملك أنه لو بقي أبوك في طهران لبضعة أيام أخرى فستعم الفوضى في المدينة، في الوقت الذي.. ماذا أقول؟

- والدي أيضاً لا يرغب في العودة إلى طهران، إذا كان من الضروري أن يبقى في المنفى فأرسلوه إلى كربلاء، لا يهم الأمر بالنسبة لكم، رغم أن هذا ليس طلباً أرجوه منك.

- أنت فقط تأمرين، ونحن مستعدون دائماً للطاعة، فأنا ما زلت مصراً على رجائي.

- أي رجاء؟

- الرجاء الذي تعرفينه جيداً سمو جناب الآنسة.

- حضرة القائد، إنك تمزح، أنت أصبحت الرئيس العام لنا جميعاً، وبنات المدينة جميعهن يتمنين لو يصبحن زوجات لك.

قاطعني قائلاً:

- نعم، لكن هذا من جانب واحد فقط، كلهن يردنني، بيد أنَّ التي أريدها أنا لا تريدني.

- حضرة القائد، إنك تسخر مني.

- هذا ما تتصورينه.

بعد أيام، أرسل عن طريقي تذكرة والدي وأعدّ له كل المتطلّبات من قبيل توفير العملة الصعبة ووسائل السفر، فقط رجاني أن أكتب لوالدي ألا يأتي إلى طهران، وأن يسافر من هناك إلى كربلاء، وتقرر أيضاً أن تلحق به أمي في غضون شهر أو شهرين.

أنا متأكدة من أنه تيقّن أنني سأستجيب لطلبه القديم حينما اتصلت به بالهاتف ودعوته إلى العشاء، ولم يخطر بباله أبداً أني سأطلب منه تحرير متهم سياسي.

أعددت الكثير، كنت أريد أن أهيئ ضيافة تليق به، وكان غرضي أن أرد له على الأقل جميله بصورة تليق به، طلبت من فندق «پالاس» طبّاخاً، وأمرتهم أن يعدّوا عشاءً فاخراً، لم أقتصد في المصاريف بأي وجه كان، وجلبت الشمبانيا والويسكي والجن والليكور، ورغم أن ضيافتي لم تكن تشبه دعواته لي في فنادق الدرجة الأولى في باريس، لكن بالنظر إلى الإمكانات المتاحة

لدي فقد بذلت كل ما بوسعي.

كانت والدتي حاضرة على مائدة العشاء، ولم تتعد محادثاتنا ما يكون في مثــل هذه المحافل العادية، وأحياناً كنا نســتحضر ذكريات فرنسا.

تحدّثنا عن معارفنا المشتركين، ومدحني وأثنى عليّ في حضور والدتي؛ كان تعامله مع والدتي في منتهى الأدب والتواضع، وتحدّث عن سفر أمي، وأخبرته أمي العزيزة أن السيد لم يستطع بعد أن يحصل على بيت جيد، وبمجرد أن تصل رسالة منه سوف ترحل.

سأل والدتي:

- هل أخذت تذكرتك؟

- ليس بعد.

- أرجو أن تتصلي بي هاتفياً فور اتخاذك قرارك حتى أرسلها لك.

بعد ذلك توجه إلي بالقول:

- حينها ســأبقى أنا والســيدة، هل نقلت لحــد الآن رجائي لوالدتك؟

- نعم، والدتي العزيزة على علم بالأمر.

كانت أمي تدعو الله أن يتم طرح هذا الموضوع، فقالت:

- نحــن لا كلام لدينا، والدها يدعو الله أن يتم الأمر، آمل أن تكون هي بنفسها راضية، مَنْ أفضل مِنْ فخامتكم؟

أدرت وجهي ناحيته ضاحكة، وقلت:

- أيها القائد، لم تشّرفنا اليوم في بيتنا لتطلب يدي؟

ضحك وقال:

- لا، إنما كنت أفكّر فيْ ذلك.

انتهى العشاء، فقمت من مكاني، وقلت:

- لنترك هذا الموضوع الآن إلى وقت لاحق، تفضل لنتناول القهوة في الصالون، أريد هناك أن أتحدّث معك بموضوع آخر.

علَتْ وجهَه سحابةٌ سوداءُ، كما لو لم يكن يتوقع مني أن أطلب منه شيئاً، قام هو أيضاً من مكانه، وجاء ناحيتي، أمسكني من تحت ذراعي، وقال:

- تفضلي لنذهب، ألن تأتي السيدة برفقتنا؟

قالت أمي:

- لا، أنا أستأذن في الذهاب.

ودّع والدتي وأمسكني من ذراعي، وقال:

- سأنفذ أي أمر منك، حتى قبل أن أسمع، فأنا مستعد لقبول طلبك.

- سيدي الجنرال، أنا سعيدة جداً، لم يكن لديّ توقع غير هذا.

ناديت على إحدى الخادمات، وقلت:

- أحضري القهوة وشراب الليكور إلى الصالون.

كانت في الصالون في الجهة الشمالية لوحة كبيرة معلقة، من أعمال الأستاذ، أثارت انتباهه، وسأل:

- عملُ من هذه اللوحة؟

- إنها من أعمال الأستاذ «ماكان».

- هل تعرفينه؟

- لا، فقط هكذا.

جلس على مقعد وثير، ووضع رِجلاً على رجل، قرّبتُ له علبة السجائر، فتناول سيجارة، وتناولتُ أنا واحدة، قام من مكانه

وأوقد عود ثقاب، ثم قرّب لهيبه إلى وجهي، وقال:

- إنه إنسان مزعج.

- من؟

- هذا الرسّام.

- كيف ذلك؟

- لا شـــيء! لا أحد بمقدوره أن يقول له يا رجل اعتنِ بعملك، ما دخلك بالسياسة؟!

أحضرت الخادمة، علـــى الفور، القهوة مع الفناجين وزجاجة الليكور مع كؤوســـها، ووضعتها على طاولة صغيرة ســـطحها من البرونز المنقوش، ثم انصرفتْ. كان لم يخرج بعد من الغرفة حين قلت له:

- أودّ أن أتحدّث معك قليلاً على انفراد.

- حسنٌ، هذا أفضل، ماذا تأمرين؟

- لــن أتحدث معك عن طلبي، أنت وافقت عليه، حينما تنوي الذهاب سأخبرك به لكي تسجّله.

- بل أنا لا أريد أن أذهب.

- لا، أنت ستذهب.

سألني ضاحكاً:

- وإذا لم أذهب فماذا سيحدث؟

أجبته ضاحكة أيضاً:

- كمـــا تشـــاء، إن للبلاد رئيس أمن، ســـأنادي على الحراس وقتها.

قهقه ثم قال:

- أحسنتِ.. حسنٌ، كنت تتحدثين.

- جنرال، هل أنت راض عن أعمالك؟
- كنت تريدين ألا أكون راضياً.
- ألم تكن في باريس أكثر ارتياحاً؟
- طبعاً هناك كان أفضل، لكنني أحب السلطة والمقام.
- مـاذا كنت تريد أن تصبح أكثر من هذا؟ رئيس دائرة الأمن هو الكل في الكل بعد الشاه.
- لن تظل أوضاع البلاد هكذا، أريد أن أكون الكل في الكل.
- يعني كيف يمكن أن تصير؟
- العالم الآن، يتجه نحو الحرب، لو رأيت كيف يتسـلحون في ألمانيا؟
- وما علاقتنا نحن بذلك؟
- بمجرد أن تثار الضجّة وتشتعل الفوضى، صاحبنا، الذي له رِجْلان، سيقترض رجلين أخريين ويختفي فجأة.
- وإذن، لماذا تخدمه إلى هذا الحد؟
- كيف عرفت أنني أخدمه؟
- أرى أنـك تؤذي الناس، ومن لا يعلم أنك تعتقل الناس عبثاً ومن دون داع؟
- قولي لي مثلاً من اعتقلت؟
- خلال هذه الأيام الأخيرة، بحسـب اطلاعي، اعتقلت على الأقل خمسة أشخاص.
- في بلاد تعدادها عشـرة ملايين، لنسمح أن يعتقلوا عشرة أو خمسة عشر شخصاً، ماذا سيحصل؟

ثم تجهّم، وقال:

- أنت من أين تعرفين؟

- كانت والدة أحد هؤلاء الذين اعتقلوا توسلّت إليّ قبل يومين أو ثلاثة، وأنا أطلب إطلاق سراحه.

- ما اسمه؟

- محسن كمال.

قطّب جبينه، وأمسك بطرفي شفتيه وسحب يده مرتين أو ثلاث مرات إلى ما تحت ذقنه.

قال في هدوء وروية:

- سيدتي، أتمنى ألا تكوني منشغلة هنا بنفس تلك الأعمال التي كنت تعملينها في باريس.

- وماذا كنت أفعل في باريس؟

- ما أدراني أنا؟ أعمال من قبيل توزيع الصحف، من قبيل تصرفات الأطفال تلك.

- إذن ستعتقلني هذه الأيام؟

- لا، لن أوقفك أنت، سأضعك داخل صندوق وأغلقه وأختمه بالشمع، ثم أرسلك جواً إلى الخارج.

- ألم يكن من الأفضل أن ترسلني حيث والدي؟

- لا، هناك ستفرّين من بين يديّ.

- وهل ما زلت تنوي الذهاب إلى الخارج؟

- لنترك المزاح جانباً، لو أردتِ الصدق، أنا في إيران بصفة مؤقتة، فالحياة في إيران بهذا الشكل من تسلط العسكر، لا تناسب طبعي اللطيف، ما فائدة العيش في هذه المدينة المقرفة؟ أنا خلقت للترفيه والاستمتاع، يترك المرء تلك الحفلات والسهرات والنساء الراقيات وتلك الأبهة والجلال ويأتي ليسمع السباب والكلام البذيء، هذه ليست حياة.

- هل جلالة الملك يسبك أنت أيضاً؟
- حينما يسبّ رئيس الوزراء، فسيصل دوري بالتأكيد.
- إذا كنت أنت تقول هذا الكلام، فما بالك بالناس الذين هم تحت سلطتك؟

قال بانفعال شديد:

- أيتها السيدة، الناس؟ مَنْ الناس؟ هؤلاء الناس الـ Mentalité (*) خاصتهم هكذا، فهم لا يفهمون أفضل من هذا، كما لو أنك تخرجين الضفدع من رواسبه الطينية وترقدينه على ريش البجع؛ فالضفدع في الأوحال يكون أكثر سعادة، أنا لا أطيق ذلك، ولست في أمان هنا ولا ليوم واحد، أنا نفسي معرّض كل يوم للوقوع في ورطة، هل تتصورين أن نفي والدك إلى كربلاء كان عملاً يسيراً؟ لا أريد أن أمتنّ عليك، فهناك، في وسط دائرة الأمن، حفنة من الجواسيس عديمي الشرف يوصلون تقارير كاذبة إلى القصر بانتظام. المسألة العجيبة هي أنه لم ينتبه أحد إلى هذا العيب الكبير في العمل؛ يقوم أساس هذه الدولة وعمادها منذ خمس عشرة سنة على التقارير الكاذبة، ويلاحظون أنّ عملهم لا يتقدّم، ومع ذلك يستمرون فيه، كيف يمكن القيام بأي عمل؟
- وأنت نفسك تشتغل على تلك التقارير الكاذبة.
- إلى حد ما، نعم، كما تفضلت.
- لماذا إلى حد ما، فمحسن كمال هذا اعتقلتموه على أساس هذه التقارير الكاذبة.
- لا يا عزيزتي، لا تتسرعي في الحكم، ليس الأمر كما تقولين، فالفتى كان يوزع المنشورات.

---

(*) عقلية (المترجم).

- وهل يكبل الإنسان ويعلق من السقف لمجرد توزيع البيانات؟

- من أين تعرفين هذا؟

حينها تريّثَ قليلاً، وأوقد سيجارة، ثم قال:

- أين هاتفك؟

- هناك في ردهة الطابق العلوي.

- كم الساعة؟ الساعة تجاوزت العاشرة والنصف والوقت متأخر الآن، وإلا كنت سآمرهم الآن بإطلاق سراح محسن كمال، سوف أطلق سراحه يوم غد، لكن اعلمي أن هذا العمل أضرني.

- أنا موقنة أنك ستعمل عملاً خيّراً، وستؤجر عليه من الله.

- تعلمتِ هذا الكلام من والدتك، كأنك قضيت عمرك كله جالسة على سجادة الصلاة، لقد انقضى على عملي في دائرة الأمن ما يقارب الشهرين، بيد أني لن أستمرّ أكثر من سنة واحدة، إلى ذلك الوقت يجب أن أنجز الأعمال التي أريدها.

- أية أعمال؟

- حسنٌ، العمل الذي سيؤمن لي حياتي، بحيث لا يستطيع أحد أن يتجرأ على إيذائي.

- وما فائدته؟

- يجب أن تأخذي المستقبل بعين الاعتبار، كما قلتُ لكِ، النظام الآن في طور الزوال والانهيار، ففي وقت الحرب لا يمكن وضع الناس تحت السيطرة بالقوة، شاؤوا أم أبوا فسوف يمنحون للناس بعض الحريات، وأنا لو أستطيع أن أوجه ضربة لهذا النظام وأختفي فسوف أوفّر رأس مال جيد لمستقبلي.

- وفي هذه الحالة، فإنك بالتأكيد قد حصلت على رضا وموافقة الإنجليز.

- الآن، لا دخل لي بهم، إنما سيجبرون هم على البحث عني والاستنجاد بي في وقت الشدة، مَنْ أفضل مني؟ أنا سوف أكون الحامل لراية الحرية.

ضحكتُ وقلت:

- لقد رسمت خطّتك بإحكام.

- الجميع هكذا، كل واحد يفكر في نفسه، لنترك المزاح جانباً، أريد أن أقول لك هذا الكلام بجدية، آمل أن تكوني إلى ذلك الوقت قد اتخذت قرارك النهائي، فأنا سأهيئ لك حياة ملكية خلال الفترة التي سأقضيها في أوروبا، وحين تضطرب الأمور وأعود إلى إيران وأنجح في مهمتي، ستكونين أنت الكل في الكل، وستكون كامل السلطة والثروة التي تكبر يوماً بيوم تحت تصرفك، وسيكون طريقك مفتوحاً إلى جميع محافل أعيان أوروبا ومجالسهم، سوف يستقبلك الملوك والرؤساء ويقبلون يديك، وإذا لم أنجح فسوف أكدّس ثروة كبيرة إلى آخر يوم أقضيه في إيران، بحيث لن ينقصك أي شيء، ولو عشت العمر كله حياة باذخة في أوروبا. هذا ليس وهماً أبيعه لك، أقول لك هذا الكلام حتى تعلمي أنك سوف تعيشين معي حياة مرفّهة. حسنٌ، لقد تأخّر الوقت، ودّعي والدتك بالنيابة عني، وآمل أن أراك عمّا قريب، أجيبيني في أسرع وقت ممكن!

كان يريد أن يُمسك يدي ويودعني، احتفظتُ بيده، وقلت:

- أطلق سراح كمال يوم غد، سوف تفرح أمه كثيراً.

- أمه ليست هنا، لماذا تقولين كلاماً غير صحيح، أنت التي سوف تفرحين، وهذا كاف بالنسبة لي، عزيزتي لديّ رجاء واحد منك، إن كنت تعرفين شيئاً عن هؤلاء الأطفال الصغار فأخبريني

بذلك، أنا لن أؤذيهم، لكني سأطوي بساطهم، وفي هذه الحالة سيكون أفضل لك ولي أيضاً، لأنه في نهاية المطاف طال الزمان أو قصر، سأقضي على الجميع بنفسي، سوف أطوي بساطهم، لأن هذا في حد ذاته مفتاح نجاحي، فحين أقنع جلالته بأنني اقتلعت لعب الأطفال هذا في ظرف خمسة أو ستة أشهر فسوف تزداد ثقته بي، وحينها، سيسهل عليّ كثيراً توجيه ضربتي إليه، دعيني أقلُ لك هذا: لو أني كنت أعلم منذ البداية أنك تريدين مني تحرير أحد الأطفال الطائشين ما كنت سأوافق بهذه البساطة، لا أفكر أبداً في أن أمتنّ عليك، لا، هذه ليست أخلاقي، لكني أنتظر منك بجدية وصدق ألا تعودي مرة أخرى لتطلبي مني نفس الطلب! إلا إذا أفشيتِ لي جميع الأسرار، حتى أستأصل شأفتهم. على كل حال، لا تطلبي مني طلباً أُجبر على رفضه. ولمن؟ لشخص أرغب في تحقيق كل طلباته، لأنني على يقين أنك لا تحبين أن يمسّني أذى، وتلبية مثل هذه الرغبات هي بمثابة العمل بشكل ملتوٍ، مع خالص احترامي! ودّعي والدتك نيابة عني، وإذا كتبت رسالة لوالدك فأقرئيه سلامي، وقولي له إنني سأنفذ له كل ما يريد.

ناديتُ الخادمة، وأمرتُها بأن تخبر سائقه، ثم رافقتُه إلى باب البيت، وعدتُ مجدداً إلى الصالون.

تمددت على المقعد الوثير، واحتسيت كأساً آخر من الليكور، ثم استغرقت في التفكير بكل هدوء.

سيدي الوكيل، أنت تعرف جيداً بماذا فكرت، باتت قراءة نهاية القصة أمراً يسيراً، هل سكنني الشيطان؟ الراحة والشغف إلى الترف والمتعة وجمال باريس وروما وبرلين والحياة المتنوعة

في أوروبا، والمســـرح، والســـهرات الموســيقية وآلاف الأنواع من اللذات، هل أدخلتني هذه الأفــكار مثل أبخرة الأفيون في حالة من الانتشاء؟ لا، ليس الأمر هكذا، لو تضاعفت هذه المزايا مئات المرات، ما كانت تســـاوي شيئاً أمام الطيران على أجنحة العشق، وأي عشـــق؟ الحب الخالص والبعيد عن كل رِياء كالذي جمعني بالأســـتاذ، كيف كنت أســـتطيع أن أعيش مع هـــذا الرجل الذي يحكم على كل شيء من زاوية نظره هو، ويعتبر المكان الذي يقف عليـــه مركز الأرض والزمان والعالم اللامتناهي؟ كيف أســـتطيع العيش مـــع هذا الرجل الذي لا يريد وجـــودي، إنما يحب فقط اســـم عائلتي الكبيرة، ويريد ذلك وسيلة جديدة لترقيته ورفعته؟ أنت فكّر في هذا! كان يريد الزواج بي لأتأبط ذراعه في حفلات البلاط بأوروبا، وحتى يستطيع التباهي في كل مكان بأن زوجته أجمـــل امرأة، يريد الزواج بي ليطفئ ظمأ تعطشـــه للجاه، يريد الزواج بي ليكون بيته آمناً مطمئناً، وينام على سرير مريح، ويأكل طعامـــاً لذيذاً ويؤمن راحته، وماذا ســـيمنحني في المقابل؟ المال والبيت والحياة والســـفر إلى الخارج؟ وقد كنت أمتلك هذا كله؛ كنت جميلة، وبمقدوري أن أكتســـب بجمالي أكثر من هذا بكثير، وعلى الرغم من كل هذا كان يأبى أن يمنحني حتى قلبه القاسي والمنحوس.

كان يريد امرأة واحدة لتؤمّن حياته الشخصية وترعى أطفاله، ويريد نســـاء كثيرات لتأمين رغبات جســـمه المتعفنة، كان يقترح عليّ مثل هذه الحياة.

لا تنسَ أنني مللت من حياة اللهو والمتعة في الخارج، لســـبب وحيد، وهـــو أن الجميع هناك يحبني، وأنا لـــم أجد أحداً أهلاً

لحبي وحناني، لماذا أصابني الضجر والاشمئزاز في الخارج؟ لأني أحسست فجأة بأنني وحيدة ومسكينة، ولم أجد نفسي فنّانة، وكان هذا أكبر شيء يسلي خاطري، أدار الفن نظرته المبتسمة والمشرقة عن وجهي، والحال أنني وجدت في إيران شخصاً فناناً، وكنت أحبه.

كنت على حالتي تلك ممدودة على الكرسي الوثير، حيث ارتسم في ذاكرتي منظر مرسمه، فرأيت أن أجمل الأماكن في الدنيا بالنسبة لي هو مرسمه، هناك حيث يجلس أناس مثلي ينظرون إليّ من جميع الزوايا.

كان مرسمه مكاناً آمناً، لا أحد ينظر إليّ هناك بعين شهوانية أو حقودة، فالناس الذين يعيشون هناك هم أولئك الناس الذين كنت أجسّمهم في عالم خيالي، لكني لم أكن أقدر على إخراجهم في قالب حي ومتحرك. لقد تشكّلت في مرسمه عوالم كان قلبي يتوق إلى إدراكها، كم كنت أستمتع بضحكات تلك الفتيات اللائي كن يقضمن حبات الذرة، والوجه الطلق للدرويش بعينيه الكبيرتين وحاجبيه الكثّين، ولباسه الأبيض وعباءته الحريرية، ومروّض الأفاعي الذي يريد أن يعضّ رأس الأفعى، والشاعر الذي يجلس على قطعة من الجلد قرب المنقل وهو يسكب الشاي، كل هذا كان مألوفاً لديّ، وكنت قد رأيت كل واحدة منها يوماً في حياتي.

فجأة، تراءى في ناظري وجه الأستاذ المشوّش، أحسست بأنه ينتظرني، ويجب عليّ أن أساعده، تذكّرت كلام العقيد، وأحسست بأنه في خطر، ويمكن أن يتعرّض لحادثة في أية لحظة، كان قد قال عنه: إنه إنسان مزعج.

أردت أن أذهب إلى منزله على الفور، غير أن الوقت كان متأخراً، فضلاً عن ذلك، فلم يعد لديّ أدنى شك بأن بيته مراقب، فكان من الضروري أن أتوخى الحذر من أجل إنقاذ الأستاذ، وليس من أجل النضال الذي ينتظره، وكان واضحاً بعد هذا اللقاء مع العقيد وبعد أن استجاب لطلبي المهم هذا أنه ينبغي عليّ أن أحفظ حياة الأستاذ من هذا البلاء الذي يحوم حوله.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، وحتى تجاوزتها، اتصلت هاتفياً ببيت الأستاذ، ظل الهاتف يرن دون أن يجيب أحد، ربما كان غير موجود في البيت، ففي بعض الليالي، يعود متأخراً إليه، وفي بعض الأحيان يخرج في وقت متأخر للنزهة، لكن، لماذا «آقا رجب» لا يرد؟ أعدت الاتصال لعدة مرات، لكن دون جدوى، ما كان أحد يجيب.

داهمني خوف غريب، وأيقنت أن حادثة قد تكون وقعت في ذلك المنزل.

فجأة، سمعت صوتاً أمام باب المنزل، فسقط قلبي من شدة الخوف، في هذا الوقت من الليل، سألت: من بالباب؟ فعلمت أن نادلي الفندق يغادرون.

هل اعتُقل الأستاذ؟ لم يكن مستبعداً، بالرجوع إلى ما قاله الجنرال فإن هذا ما كان يجب أن يُتوقّع طال الزمان أم قصر، ما من شك بأن دائرة الأمن قد عثرت على دليل ما.

حاولت أن أربط الحوادث ببعضها حلقة حلقة، قبل أيام قليلة، تم اعتقال شخصين أو ثلاثة كانوا يوزعون المنشورات، تم إيقاف محسن كمال، يريدون منه أن يدلهم على عنوان

البيت الذي توجد فيه آلة النسخ والأوراق، ورئيس دائرة الأمن يعتبر الأستاذ إنساناً مزعجاً، ويقول: سأطيح بالجميع وأطوي هذا البساط، ألم يكن هذا ناقوس الخطر؟ ليته كان ممكناً إخبار الأستاذ في هذه الليلة.

شيئاً فشيئاً، كان تعب اليوم كله ومشاق الضيافة ونشوة احتساء كأس من الويسكي والليكور بدأت تفقدني الوعي، أحسست بألم في ركبتي مثل الأشخاص المحمومين، ونمت مضطربة ومنزعجة.

اتصلت صباح اليوم التالي هاتفياً بالأستاذ، لم يكن قلقي عبثاً.

سألته:

- لماذا لم يكن أحد يجيب على الهاتف ليلة أمس؟

- لم يكن أحد موجوداً، لكي يجيب.

- أين كان رجب؟

- اعتقلوه عصر يوم أمس.

- لماذا؟

- لا أدري.

خرس لساني، وأحس هو بذلك، بالتأكيد، لكنه لم يضعف، فقال مواسياً:

- من المؤكد أن الأمر ليس مهماً، سيطلقون سراحه يقيناً.

- اليوم سيُطلق سراح «فرهاد ميرزا»، أنا سآتي الآن لبيتك.

- أرجوك لا تأتي حتى أعطيك أمراً بذلك، وضعي السماعة.

- أنا أحتاج إليك في أمر.

- أعلـم، لكن القول ما قلته لك للتـو، لا تأتي عندي بأي وجه من الوجوه، إلى اللقاء فرنكيس!

أغلق الخط وانصرف، وبقيت لمدة ممسـكة بالسماعة وأنا مسندة رأسي إلى الحائط.

لم يكن من نصيبي أن أراه مرة أخرى.

* * *

لا، هـذا ليس صحيحاً، رأيته مرة أخـرى، إنما لم تكن لدي الجرأة هذه المرة للتحدث معه.

كانت الأحداث تمر بسـرعة فائقـة، بحيث لم يكن بمقدوري فعل أي شيء.

مهما حاولت التواصل مع الأستاذ، لم يكن يسمح بذلك، حتى في الهاتف، كان يجيب بشـكل متقطـع ومختصر، ويغلق الخط، كانت طريقـة تعامله معي مهينة وغير قابلـة للاحتمال، حينما كان يضع السـماعة ويتركني أنتظر، كنت كمن يغرس المثقاب في كبده، وكنت أعتقد أنني سأسمع خبراً عنه، وسيرسل إليّ رسالة ويدعونـي إلى بيته، حتى إنني في مرة رجوته وتوسـلت إليه أن يأتـي إلى مكان آخر فـي منزل أحد الأصدقـاء حتى ألتقي به هنـاك، لكنه لم يقبل، كنت أترقـب لقاءه في كل لحظة حتى في الأوقات التي كنت متيقنة بحسـب تجربتي من أنه منشـغل فيها بعمل ما في مكان من الأماكن، وكنت أقول في نفسـي إنه يحتاج إليّ، وسوف يدعوني عنده، كنت أتصور أنه سيقوم بما لم يقم به أبداً، وسيأتي فجأة إلى بيتي دون سابق إعلام.

كنـت في كل مرة أعـود إلى البيت، ورغـم علمي بأن (فضة سلطان) سوف تضع أية رسالة تصلني على الطاولة في غرفتي، لكني حينما لا أجد أثراً لشـيء أسـأل «بابـا» وأمي أو أول من ألتقـي به فـي البيت: هل اتصل بي أحد؟ ألـم يُحضر أحد إليّ رسالة؟ وحتى الرسائل التي تصلني من الخارج أسارع في فتحها على أمل أن تكون رسالته، بالرغم من وجود الطابع الأجنبي على غلافها، وعندما لا أرى خطه أرمي الرسائل على الطاولة دون أن أقرأها، وتبقى أحياناً على هذه الحال لعدة أيام.

ذات يوم، رأيت «فرهاد ميرزا» في الشارع، تعرّفت إليه من خلال التصميم الذي كان الأستاذ قد رسمه ومن خلال شاربه، اعترضت سبيله، وسألته عن أحوال الأستاذ، أجابني بجفاف ولامبالاة:

- أنا لا أعرفك.

- أنا أعرفك، أنت «فرهاد ميرزا»، واسمك الحقيقي هو محسن كمال.

- أنت مخطئة، سيدتي، أنا لست «فرهاد ميرزا».

- أنا لا أريد منك شيئاً، أريد أن أعرف فقط ما إذا كانوا قد أطلقوا سراح «آقا رجب» أم لا.

- سيدتي، إنك مخطئة، أنا لا أعرفك أنت ولا «آقا رجب».

ضقت ذرعاً به، نظرت إليه نظرة تحقير، ومن دون كلمة اعتذار أو وداع أعرضت عنه وانصرفت، وقلت لنفسي:

- ولد دميم جبان! أنا أنقذته، والآن يتوجس من الحديث معي.

انقضى شهر حالك من الانتظار على هذه الحال، وخلال هذه المدة، كان البوم المشؤوم قد غرز في قلبي مخالبه الحادة، وكلما أردت التخلص من هذا الكابوس المهيب كان يغرز مخالبه الدموية في قلبي بشكل أعمق.

اتصلت بالهاتف مرتين أو ثلاثاً، وفي أحد الأيام أجابني شخص غير معروف، وقال:

- الأستاذ غير موجود.

وفي المرات التالية، بمجرد ما كان هذا الشخص يسمع صوتي، يضع السمّاعة.

آه، أتعرف أين كانت تكمن تعاستي؟ في عدم تمكني من تبرير سلوكه غير الإنساني هذا معي، هل تضايق مني؟ استعدت في ذهني آخر حوار دار بيني وبينه خلال اللقاء الأخير، وكان قد قال:

- عزيزتي فرنكيس، أطلب منك أن تنقذي «فرهاد ميرزا»، يجب أن نخرجه من السجن مهما كلّف الثمن، وإلا فسيقتلونه، لن يفصح لهم عن شيء، سيعذبونه حتى الموت.

سألته:

- بأي ثمن؟

لم يجب، سألته بشكل أوضح:

- حتى إذا كان الثمن أن أبيعه عمري كله؟..

قال: لا، ليس بهذا الثمن الباهظ.

لأجل نجاة صديقه كان على استعداد لأن يرسلني عند رئيس دائرة الأمن.

ولكن الآن حيث إنه هو نفسه في خطر، وروحه معلقة بشعرة، لم تكن لديه رغبة في رؤيتي.

ماذا كان يظن؟ أكان يظن أنني سأبيع نفسي إرضاء لخاطره، أم أنني من شدة الخوف سألقي بروحي في حضن رئيس دائرة الأمن؟

آه، لو لم يرسم هذه اللوحة بهاتين العينين، لكنت سأفكر بهذه الطريقة وأرتاح، وأبحث عن حياة مرفّهة ومريحة وألقي بنفسي في متاهة الحياة العادية، وما كنت سأعاني كما أعاني اليوم.

* * *

كما عشــت في الســنوات التاليــة، كنت أســتيقظ من النوم متأخــرة في الصباح، وأتناول الشــاي والحليب والبيض والزبدة والمربى وشــراب الليكور في الســرير، وأتفرغ ساعة أو ساعتين للاســتحمام والتزين، كنت عند الظهر أتنــاول وجبة الغداء في أحد فنادق الدرجة الأولى في باريس أو في ضيافة شــخصيات مرموقة، وبعد الظهر كنت أركب الخيل، أقود الســيارة بســرعة 80 إلى 90 كيلومتر في الســاعة وأتسابق مع أقراني، أو أتبضّع في المتاجر، وفي الليــل يحين مرة أخرى وقت التزين والاحتفال والاســتمتاع والقمار والمشــروبات الكحولية والوجوه الضاحكة وارتــداء الفســاتين والملابــس الجميلة والتســيب في الحديث والتســكّع.. هذا هو معنى الحيــاة وهدفها، كنت أعتني بزوجي، إلــى أن وصل ذلك اليوم الذي قرأت فيــه خبر موته في إحدى الصحــف التي تأتي من إيران، وبعدها بقليل نُشــرت في مجلة ألمانية لوحة الأستاذ الأخيرة هذه بهاتين العينين اللعينتين، ومنذ ذلك اليوم إلى الآن أنا كما ترى..

اسمح لي أن أحكي لك آخر القصة وأنهي كلامي.

يــا للصبر الذي تتحلى به أنت، إذا كنت تبقى ســاكتاً هكذا، أستطيع أن أسرد لك كتاباً كاملاً.

بعد مرور شهر واحد عيل صبري، استدعيت مرة أخرى آرام فــي الليل إلى بيتي، وخلال هذا الشــهر، كان يهاتفني في أغلب الأوقات، وحينما لم أكن في البيت، يستفسر من أمي عن أخباري، وجاء مرة أو مرتين بعد الظهر إلى منزلنا من دون موعد ســابق، كان يجلس ويحتسي الشاي ويدخّن ويلمّح إلى طلبه ويذهب.

في تلك الليلة، بمجرد أن أتيحت لي الفرصة، سألته:

- حسنٌ، ما زلت منهمكاً في الخدمة؟
- كيف ذلك؟
- أما زلت تعتقل الناس؟
- لا، لم نعد نعتقل أحداً، فقد عثرنا على وكر الفساد.
- أين كان؟
- أحدها كان في بيت الأستاذ الرسام.

سألته في هدوء:

- أي أستاذ رسّام؟
- لا تتظاهري بعدم الفهم، إنه الأستاذ ذاته، صاحب هذه اللوحة، أنت تعرفينه جيداً، ووصلني تقرير عنك أيضاً، أنت كنت ترددين على بيته.
- أنا لم أذهب إلى هناك منذ شهر، وكنت أذهب في السابق ليرسم لي صورة لوجهي.
- وإذن كيف لم نعثر على صورة لك في بيته؟
- لأنني ذهبت مرتين أو ثلاث مرات إلى بيته، وحينما لم يرق لي عمله، مللت ولم أذهب مجدداً، وبقيت الصورة غير مكتملة، وهل فتّشتم بيته؟
- فتّشنا بيته ووجدنا كل ما كنا نريد، خلاصة الأمر أننا عثرنا على الرأس المدبر، اعتقلناه هو أيضاً، يا له من رجل مموّه، لم نستطع إلى الآن أن نستخرج منه ولو كلمة واحدة..

لا أريد أن أقول لك الحالة التي داهمتني، وحسبك أن تعلم أنني حينما سمعت هذا الكلام، ورغم أني كنت قد أعددت نفسي لسماع أسوأ الأخبار، فقد فقدت سيطرتي على نفسي، علا الشحوب وجهي، وكدت أصاب بصدمة، بيد أن الرجل كان

مؤدباً، ولم يبدِ لي معرفته باضطرابي.

أخفيت اضطرابي وجلست هادئة، دخّنت سيجارة، واحتسيت شراب الليكور والقهوة، وأصغيت لما كان رئيس دائرة الأمن يقوله:

- .. سوف نجبره، فضلاً عن ذلك، فما عدنا نحتاج منه إلى شيء، يجب أن يخبرنا فقط من كان يرسل إليه تلك الرسائل التي كانت تصله من باريس وبرلين، بعد ذلك لا دخل لنا به.

- هل تعذبونه؟

- مجبرون على ذلك، وإلا فلن يعترف بشيء.

- وإذا مات؟

- وما ذنبنا نحن؟ إذا تكلم فسيرتاح، وإذا كنت تريدين الصراحة، حتى ولو اعترف فلن يرتاح، لأن جلالة الملك غاضب جداً من هذه القضية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تهدئة خاطره المبارك.

- هل سيقتله؟

- يستحق ذلك.

- يا لكم من أناس شريرين.

لم يقل شيئاً، لكن لم يرق له كلامي هذا، قلت هذه الجملة ضاحكة، لكن نبرة تصنّعي لم تكن متقنة، مما جعل الحقيقة، التي كانت خفية وراء كلامي، تزعجه.

غيّرنا موضوع الكلام، وتحدّث عن عروس ملك بلجيكا، وعن الفضيحة التي تورط فيها القائد الأعلى الكرماني في مونتوكارلو، وعن احتلال النمسا على يد قوات هتلر، وعن حريق مخزن الأسلحة والسرقة التي حصلت في سفارة مصر، وعن مشاغله الكثيرة، والتي على الرغم من وجودها يحب أن يراني في بعض

الأحيان، وعن مواضيع أخرى لم تكن مهمة لي ولو بمقدار شعرة واحدة. أَحَسَّ بأنني أجيبه أجوبة باردة وفيها الكثير من التكلّف، فقام وانصرف على غير العادة قبل الموعد.

حينما شدّ على يدي مودّعاً قال:

- لا تحزني، الأمر هين، بلغي سلامي إلى السيدة الوالدة.

في تلك الليلة، اتخذت قراري في الحياة.

سيدي الوكيل، أنت ماذا تظن؟ لم تعد تتكلم، ولا تسأل؟ فرأيك عني لن يؤثر في مجرى حياتي ولو قيد أنملة. قل.. لا تقل شيئاً، أنا أحس من نظرتك المرعوبة بأنك تشفق على حالي، أنا لم أطلب من أحد أن يتلطّف بي ويحسن إليّ، أنت في قرارة نفسك تقول إنني منبوذة، خفت، وتسرّعت، واتخذت القرار دون فهم. آه، ما أسهل قول هذا! لكن لو كنتَ ليلتها مطلعاً على أسراري، وأنا أريتُك روحي عارية، لكنت أنت أيضاً قد ترددت، وليس من السهولة بمكان أن يصبح لك رأي ثابت وقطعي كما تحكم اليوم على حوادث الماضي.

الحكم على الماضي عمل يسير، لكن حينما تجد نفسك داخل تيار الطوفان تتقاذفك سيول الحياة الجارفة من صخرة في أفواه الأمواج العاتية، لو استطعت هناك أن تظهر همّتك وصمودك وألا تترك خوف الوقوع في الخطر يسيطر عليك، نعم، فحينها سوف تتذوق لذة الحياة في فترة السكينة والهدوء. ما أجمل هذا! ما أسهل التفكير هكذا! لكن أنت احكم بنفسك، هل كانت مثل هذه البطولة العظيمة ستصدر مني أنا، بتجربتي تلك التي كانت لديّ في الحياة، وبذلك التزلزل والتشتت الذي كان قد عشّش في حياتي، وبتلك الحيرة والسأم؟ أنا كنت ابنة

أبي، ولمّا واجه صعوبة في الحياة مرة واحدة، طأطأ الرأس وبرك على ركبتيه مستسلماً، وقبّل الأرض تأدباً، واعتزل الأمر. ماذا يمكنك أن تتوقع مني؟ والأستاذ كان أيضاً ينظر إليّ باحتقار كما تنظر إليّ أنت. وهو بالتأكيد كان له توقع آخر مني، هاتان عينا امرأة فاجرة وصاحبة نزوات.

هو أيضاً كان يعتقد في قرارة نفسه ما تعتقده أنت.

فكَّرَ أنه بمجرد ما إن شَعَرت بالخطر يداهمني، اختفيت كالبطة في المستنقع وفي الأوحال، وهربت من تلاطم أمواج البحر العاتية.

لكن الأستاذ كان مقصّراً كذلك، كان بمقدوره أن يؤثّر فيّ، لماذا كان يحبس نفسه في قفص من السكوت؟ لماذا لم يكن يسعى لفتح طريق نحو قلبي؟ لم يكن ضرورياً أن أكون زوجته أو حبيبته، ألم يكن يستطيع أن يجتذبني إلى الحياة المثمرة التي كنت بدأت أتحسسها؟ على العكس من ذلك، أبعدني عن نفسه وعن ذلك العالم المتحرّك وأرسلني إلى عالم الأوغاد.

ما الفائدة؟ لماذا أدافع عن نفسي؟ هذا ليس دفاعاً، إنه ما قلت في البداية: مقصودي هو فقط الفضفضة عن العقدة التي كانت تعتصرني وتخنقني.

في اليوم التالي في الساعة السادسة والنصف صباحاً، وقبل أن يذهب إلى مكان عمله، اتصلت بالعقيد هاتفياً، وطلبت منه أن يزورني قبل أن يذهب إلى دائرة الأمن.

سألني:

- هل هناك خبر جديد؟

- ربما يكون بالنسبة لك جديداً.

- سآتي.
- أرجو أن تأتي وتتناول وجبة فطورك هنا.
- أنا الآن أتناول الفطور، سآتي حالاً.

يجب على الأقل أن تدرك هذا، فاتخاذ قرار بهذه الأهمية في حياتي لم يكن أمراً سهلاً، هل هناك امرأة مستعدة لكي تبيع جسدها بمحض رضاها؟ لا وجود لشيء أكثر فظاعة من أن تسلّم امرأة جسدها لرجل لا تحبه، أنتم، معشر الرجال، لم تذوقوا أبداً طعم هذا النفور، وليس فقط لليلة واحدة أو لمرة واحدة أو لمرتين، بل لسنوات، ولعمر بأكمله! فما بالك بالنسبة لامرأة مثلي كانت لسنوات تلهث وراء حنان وعطف من تحب، ودارت الدنيا بحثاً عن ذلك، المرأة التي وصلت لتوها إلى ملاذ واحة حبها بعدما قطعت مسالك الحياة الوعرة.

حينما دخل العقيد إلى غرفتي الخاصة ووقعت نظرته على عينيّ وهما تذرفان الدموع استغرب، وسألني:

- ما الخبر؟
- أيها العقيد، أنا رجوتك أن تأتي إلى هنا قبل الذهاب إلى العمل لأمر طارئ لديّ..

كان يريد أن يقاطع كلامي بمجاملاته المعتادة، فقلت:

- انتظر! ائذن لي أن أقول ما عندي، بعد ذلك لك أن تجيب. أنا لديّ رجاء منك، وأعلم جيداً أن تحقيق هذا الطلب أمر صعب جداً بالنسبة لك، بيد أني موقنة بأنه ليس مستحيلاً، وفي المقابل، فأنا مستعدة أيضاً للقيام بما تريد وتحقيق كل ما تطلب مني..

انتصب واقفاً، وأحضر منضدة صغيرة من زاوية الغرفة،

ووضعها بجانب أريكتي وجلس عليها، أمسك بيدي، وكان يريد أن يقول شيئاً، غير أنني لم أسمح له بالكلام، وقلت:

- أيها العقيد، لم أُنْهِ كلامي بعد.

- اسمحي لي أن أقول كلمة واحدة، أعلم ماذا تريدين.

لم أتركه يكمل كلامه.

- لا، دعني أكمل أنا كلامي، لا أريد أن أسمع منك جواباً بالرفض.

حينما أقول لك إنني مستعدة لتنفيذ كل ما تطلبه مني، فهذا يشمل أيضاً طلباتك السابقة، أنا أقبل بكل رغبة ورضا أن أصبح زوجتك، واعتبر هذا جوابي النهائي والأكيد وغير المشروط.

ضغطتُ على يده التي كانت ممسكة بيدي.

صدّق أو لا تصدّق، أنا كنت أشمئز من هذا الشخص كرجل وكزوج لي، وهو لم يجرؤ أبداً على أن يظهر ميوله ورغبته في الزواج بي إلا من خلال طلباته المتكررة، لكن حين قلت له: أقبل أن أكون زوجتك برغبتي وإرادتي، راق لي ضغطه على يدي.

قلت:

- أنا مستعدة، وأستطيع أن أكون زوجة جيدة لك، أؤمن لك رفاهية الحياة كما تريدها أنت، لكن يجب أن تنقذ الأستاذ «ماكان»، أعلم أن نجاته ليست منحصرة في يدك وحدك، وأعلم أن منافسيك سوف يستغلون هذه الوقاحة منك، وأعلم أن جلالته لن يغفر لك تسامحك هذا، وأعلم ألف شيء آخر تفكر فيه أنت، لا تقل لي هذا، ولا تسألني أيضاً عن علاقتي بالأستاذ، فأنت تعلم بشكل أو بآخر عن الصلات السياسية التي كانت تربطني به، لكن ليس لهذا السبب فقط ألتمس هذا الطلب المهم من رجل

أريد أن أعيش معه في المستقبل، فالأستاذ أكبر رسّام في إيران في السنوات المئة الأخيرة، لا تنظر إلى اليوم، حيث لا أحد يعيره أي اهتمام لأنه مغضوب عليه ومكروه من قبل الشاه، إنّ أعماله خالدة، وغداً ستكون كل لوحة من لوحاته أثمن وأغلى لوحات هذه البلاد، إذا قتل بيد الديكتاتور وبمساعدة منك، فعار ذلك سيرافقك إلى الأبد، وسوف تذهب أدراج الرياح جميع أمنياتك، وفيما بعد سيصبح لقبك قاتل الأستاذ «ماكان»، فهذا الرجل له تأثير على الشباب وعلى الطبقة المتعلمة والمثقفة في إيران، أنا بنفسي كنت في يوم من الأيام رسامة، أو على الأقل كنت أريد أن أصبح فنّانة، وأعلم مدى قيمة أعماله، أنت اعتقلت شخصاً معارضاً للدولة، لكن بموت هذا السجين لن يُنسى الأستاذ، وستبقى نادماً على الدوام. لمَ تنظر إليّ مرعوباً هكذا؟ أنت لا تعرف طعم الخوف والرعب، نعم، إنه أمر مهم، وعمل كبير، ألم تقل لي دائماً إنك تريد توجيه ضربة إلى أعدائك الذين وقفوا في طريق ترقيتك؟ الآن، الفرصة مواتية، فالأستاذ مشهور في جميع أنحاء العالم.

رتّب أمور حياتك، تظاهر بالمرض، اجمع ثروتك وانقل أموالك النقدية إلى الخارج، وبع ما تقدر على بيعه، وأطلق سراح الأستاذ، وهيّئ له وسيلة للهرب من إيران، ونحن سنسافر معاً إلى أوروبا، ما إن تخرج من إيران فستكون الأمور سهلة بالنسبة إليك، نظّم مؤتمراً صحافياً في باريس وفي لندن وفي أي مكان تريد، واجمع صحافيي العالم وأخبرهم بأنك كنت المدير العام لدائرة الأمن، وكان الديكتاتور يسند إليك العديد من المهام التي لا تتناسب مع الأدوار الإنسانية التي تضطلع بها، وأخبرهم بكل ما تعلم،

واكشف الأسرار التي لديك، والتي من شأنها زعزعة استقرار الحكومة، وتحدّث عن تدخل الإنجليز في الشؤون الإيرانية، لمَ أنت خائف؟ فالإنجليز أنفسهم لن يبقوا دائماً كباراً وأسياداً، وبخاصة الآن حيث فتح الطريق إلى إيران أمام قادة هتلر، ومن المؤكد أن الإنجليز غير راضين، وأنهم سيقدرون شجاعتك هاته. تحدّث لهم عن ظلم مديري الأملاك وجورهم في المحافظات الشمالية، وعن سرقة رجال الدولة ونهبهم، وعن ضغوط النظام الديكتاتوري والاستبداد المشؤوم الحاكم في هذه البلاد، ووضح بالدلائل التي تتوافر عليها أن جهاز القضاء في إيران ما هو إلا وسيلة لاستخدام القوة والبلطجة والنهب، أنت تعلم هذه الأشياء أكثر مني، وليس ضرورياً أن أعطيك دروساً.

لا تبتسم! أنا أتكلم لمصلحتك، اروِ لهم أنك اعتقلتَ الأستاذ الرسّام بأمر من الديكتاتور بتهمة معارضة سياسة الدولة، وأردت أن تتعامل معه وفق القوانين الموجودة، لكن الشاه أراد منك قتله، قل: رؤساء دائرة الأمن السابقون دسّوا السم في السجن لوزراء ورجال آخرين، وأجهزوا عليهم، ولأنك لم ترضَ بهذه الجرائم اضطررت للهرب من إيران، وستستمر هنا في أوروبا في أداء واجبك الإنساني المتمثل في مكافحة نظام الظلم والجور.

هذه هي الضربة التي كنتَ تتمنى أن توجهها له، والآن الفرصة سانحة، ألا تريد أن تكون في هذه البلاد صاحب مقام وجاه أعلى؟ هل فكرت أن هذه التصريحات، على الرغم من وجود الرقابة الشديدة، ستصل في نهاية المطاف إلى أسماع الشعب في إيران؟ كم سيكون ذلك في مصلحتك في المستقبل، فقط تخيل للحظة! تعلّم مدى الأهمية التي سيوليها الأحرار في

إيران لشجاعتك هذه.

لا تضحك! أعـــرف أنه ليس لديك أمل في الناس! أعلم أنك يائس مـــن مصطلحات مثل الشـــعب والتحـــرر والحركة وإرادة الشـــعب والمقاومة، وتعتبر كل هذا مجـــرد مزاح، ربما هي اليوم كما تتصورها أنت، إنما اليوم أيضاً ثمّة أناس بين أفراد الشـــعب من أمثال الأستاذ ومحسن كمال اللذين مهما بالغتم في تعذيبهما فلن يفصحا لكم عن شـــيء، أنت نفسك تحدثت لي باحترام عن أولئك الشـــباب الذين تعرفت إليهم في برلين، أمثالهم في إيران موجودون وسيكونون بانتظارك في أوروبا.

هل تعلم أن هذا أكبر رأس مال تســـتطيع أن تدّخره لنفســـك في المستقبل؟ لا تتخيل أن الشعب في إيران سيبقى دائماً حبيس هذا الخمول والجمود الذي يعيشه الآن.

ألا تقول إن الحرب العالمية ستشتعل خلال بضع سنوات قادمة، وإن أصغر فوضى ســـتزلزل الوضع هنا؟ اترك غطاء القهر هذا ينكشف، حينها سوف ترى في أركان هذه المساجد والمدارس، من بين هؤلاء المحامـــين المتطفلين والعملاء، ومن بين هؤلاء القضاة الذين ينحنون أمامك، ســـوف ترى من بين هؤلاء الجهلة والعمال والقرويين.. من سيشـــعل فتيل الفوضى، وســـيضربون الصدور تحت لوائك، وسوف يضحّون بأرواحهم بصدق لأجل تحريك هذه البـــلاد الملعونة، فهؤلاء في انتظارك منذ الآن، وحينها، ســـتكون سمعتك الطيبة هي رأس المال الذي لا يملكه أي من الرجال في الوقت الراهن، حتى الرجال ممن كانت لهم تجارب سابقة والذين يقبعون في بيوتهم حالياً لا يحركون ســـاكناً ويتحينون الفرصة.

هـــذا هو الحق، نعم هذا هـــو الحق، لأنه لا أحد من هؤلاء أظهر

جرأة وشجاعة مثلك، ولم يصارعوا الديكتاتور..

تحدّثت معه ساعة كاملة، وأثرت أنانيته، كلما كان يريد مقاطعتي، لا أمنحه الفرصة للحديث، وكنت أورد حججاً منطقية أخرى لكلامي، فيغالبه الضحك أحياناً، وأحياناً يرحّب بفكري الجريء، ويستغرق أحياناً في التفكير ويستقرئ الحوادث.

لم يستطع أن يهرّب الأستاذ، كان باستطاعته أن ينقذه من السجن وينفيه، وأنا قبلت، كان هذا آخر ملاذ لي، وهذه آخر وسيلة تبقّت لديّ لإنقاذ حبيبي الوحيد في الحياة، ليس لديّ حل آخر، كان عليّ أن أقنعه.. أو لم أكن أعلم ماذا كنت سأفعل لو أنني لم أنجح.

في نهاية المطاف، وعدني بأن يذهب مباشرة إلى القصر، ويتحدث هناك مع الشاه، ويسعى لإقناعه بأن إطلاق سراح الأستاذ سيكون لمصلحة جلالته، وبخاصة الآن، إذ لم يعد يشكّل أي خطر. سوف يقول له إن «ماكان» له تأثير ونفوذ في أوساط المثقفين، ويعرفه رجالات العصر، وإن اعتقاله سيثير سخطاً، وإن قتله سيثير زوبعة من الانتقادات في الصحافة الدولية، والمصلحة تقتضي أن يهتم بالموضوع من الناحية السياسية.

كان ينتقدني، وكنت أسارع لإقناعه، والغريب في الأمر أنني لم أكن مؤمنة بالكلام الذي أقوله، وأكرر ما تعلمته من «خداداد».

سألني:

– طيب، لو طبقنا خطّتنا، ونشرنا مثل هذه الأخبار في صحف العالم، فحينها سيحقد الشاه على الأستاذ أكثر، وسيعدمه بكل تأكيد.

في البداية، لم يكن لديّ جواب؛ لأن الحقيقة كانت تكمن

في سـؤاله، لكن، بالنسبة لي كان الانتقال من مرحلة إلى مرحلة فرجاً في حد ذاته، فالآن يجب إنقاذه من العذاب والإعدام، ومن يدري ما الذي سيحدث في الغد.

قلت:

- لا، ليس هكذا، لو أخبرت العالم بأنهم أمروك بدس السم له في السجن، وأنت لم تستجب للأمر، ولم تقترف هذا الجرم، فلن يستطيعوا قتله، لأن صدق كلامك سيكون مسلَّماً به، من هذه الناحية سيكون الأستاذ في أمان، لكن الأفضل من هذا كله لو أنك جعلته يفر من إيران.

مهما فعلتُ، لم يقتنع ولم يسلّم بفراره، وحتى أخذ الإجازة اعتبرها لا تنطوي على مصلحة، لأنه كان متأكداً من أنها ستثير الشكوك، وبخاصة مع التقرير الذي قُدّم للشاه في السابق عن لقائه بالمعارضين للنظام الديكتاتوري في برلين، لم يكن ممكناً إطلاق سراح الأستاذ. وافق فقط على إرساله إلى إحدى مدن محافظة «خراسان»، ولهذا الغرض، ذهب من بيتي مباشرة إلى البلاط.

اتفقنا أن أنتظره في البيت، وهو سيكلمني بالهاتف بمجرد رجوعه إلى دائرة الأمن، وسأذهب إلى مكتبه للاطلاع على النتيجة.

عند الوداع، قبّل يدي، وكان يريد تقبيل شفتيّ، لكني أدرت وجهي، واستطاع أن يقبّل خدي الأيمن فقط.

وكانت النتيجة أن نُفي ماكان إلى «كلات» مع صاحب رتبة ورجلي شرطة من الدائرة السياسية. ومنذ ذلك الوقت لا أملك خبراً عنه.

* * *

سكتت المرأة المجهولة، ووضعت مرفقها الأيسر على الطاولة، وأسـندت جبهتها علـى يديها، كانت قد أغمضـت عينيها وهي تحرك رأسـها، ربما كانت تستحضر في ذهنها مشهدَ آخرِ لقاءٍ، وكنـت أودّ كثيراً أن أعرف منها لمـاذا لم تتجرأ على لقائه لآخر مرة. إن هـذه المرأة باتت في رأيي تسـتحق الاحترام والعطف، والعجيب أنها ما كانت تعتدّ بتضحياتها، كما لو أنها كانت تشـعر بالخجل من كونها قدمت تضحيات بهذه العظمة لأجل الأسـتاذ. كنـت أنظر إلى العينين اللتين في اللوحة، لم يكن في عيني المرأة التي كانت جالسة أمامي أي لغز، لم يكن الأستاذ قد عرفها.

ولكي أجبرها على الكلام، قلت:

– لقد نُفذت خطتكما، لأني أتذكّر أنه في السـنوات الأخيرة للديكتاتوريـة فرّ أحد رؤسـاء دائرة الأمن من إيـران، لا أتذكر اسـمه، بالتأكيد هو العقيد «آرام» هـذا، ولم يعد أبداً، في ذلك الوقت، راجت بين الناس العديد من الروايات، وسمعت أيضاً أن الصحف الأوروبية نقلت عن لسانه حكايات كثيرة.

لـم تجبني، كانت تنصت إلى كلامي، ولـم تكن تبدي أية ردة فعل في قسمات وجهها، فأجبرتُ على سؤالها:

– نعم، بات واضحاً أنك أصبحت زوجة للعقيد «آرام»، وحينما سمعتِ بخبر موت الأستاذ، تراجعتِ عن وعدك وعدتِ إلى إيران، اسـمحي لي أن أسألك سـؤالاً آخر؛ قلت إنك رأيته مرة أخرى، ولكنك لم تجرئي على الكلام معه، كنت أود كثيراً أن تتحدثي لي عن هذا الموضوع، ولو في بضع كلمات.

كانت المرأة المجهولة تذرف الدموع، وقالت:

– سـيدي الوكيل، كان هذا أكبر سر في حياتي، لم يكن أحد

على اطّلاع به، لقد كان هناك أشخاص يعرفون بعض الشيء عن أعمالي الأخرى، وحتى عن علاقتي السياسية به، فكما تعرف كان للشرطة، في نهاية المطاف، علم بذلك، لكن لا أحد غير «آرام» يعرف أنني أنقذته من السجن، ضحّيت بكل حياتي على أمل أن أنقذه، لكن...

كان البكاء يمنعها من الاستمرار، تذرف الدموع، وتتحدث وهي تشهق من البكاء.

- لكن لو تجرأت قليلاً، لو ضحّيت قليلاً، آه، لو أفسح المجال لي أكثر، وقرّبني إليه في تلك الأيام السوداء التي كان في أمسّ الحاجة إلى مساعدتي، وشجّعني أكثر، لم أكن لأفقده، ولم أكن لأتخلّى عنه، كنت سأرافقه في المنفى، وكنت ربما سأسترجعه من المنفى بعد مرور سنة أو سنتين بالمال وبالرشوة وبالنفوذ الذي كان لديّ، وبالعلاقات التي تربط عائلتي بأصحاب القرار وقتها، وسأهيئ له وسائل الحياة والعمل، وسآخذه إلى حيث الحياة المثمرة.

الآن، تعرف لماذا لم أكن أريد التعريف بنفسي، لم أكن أريد أن أعرّفك بنفسي حتى أنت الذي اطّلعت على أكثر الزوايا ظلمة في روحي، وأقول إنني كنت الزوجة السابقة لرئيس دائرة الأمن، رئيس دائرة الأمن الذي اعتقل الأستاذ «ماكان» وأرسله إلى المنفى، أنا تخلّيت عن صديقي وحبيبي والشخص الوحيد الذي أستطيع أن أقاسمه الحياة، في أحلك الظروف وأصعب لحظات الحياة، وتزوجت بعدوّه، بألد وأشرس أعداء آماله وأمنياته، نعم، كان هو أيضاً يعرف هذا، لأنه بعد مرور أسبوع أو أسبوعين، عادت «مهريانو» خطيبة «خداداد» إلى إيران، وقد

أصبحت طبيبة أطفال، رجعــت لتحقق في الأوضاع والحيثيات التي أعقبت اعتقال الأســتاذ، وتهيئ الظــروف لعودة «خداداد» إلى إيران، وخلال تلك الأســابيع الثلاثة التي قضيتها في إيران بعد الاتفاق مــع العقيد، جاءت ذات يوم «مهربانو» للقائي، لكني لم أمنحها الفرصة لتتحدث عن الأمور الجارية التي كنت مطلعة عليها، فقلت لها بضحكات مصطنعة وبشاشة مفتعلة إنني عقدت قراني، وسأسافر إلى باريس خلال أيام، ولقد اطّلع الأستاذ على ذلك بالتأكيد، ولهذا السبب، رسم هذه اللوحة.

من كان مقصّراً؟ أكنت أنا المذنبة أم هو من أوصلني إلى هذا اليوم الأسود..؟

حينما ذهبت إلى مكتب رئيس دائرة الأمن، كان مسروراً جداً، بمجرد أن دخلت نادى معاونه، وقال:

- لا تــدع أحــداً يدخل إلى هنا، وأرســل في طلــب «ماكان» الرسّام من السجن. ابقي حتى أنادي عليه.

عندمــا ذهب معــاون الرئيس، قام من مكتبــه، وجاء عندي، وأمسك بيدي، وقال:

- أنجزت لك رجاءك، سأرسله اليوم إلى «كلات».

- هل كان عملاً شاقاً.

- إن عملنا الشــاق يبتدئ من اليوم، ســأكون جاهزاً للســفر خلال شهرين، أنت ماذا ستفعلين؟

- احجز لي تذكرة، سأسافر هذه الأيام إلى باريس.

- وأين سنقيم مراسم عقد القران؟

- ســنقيم مراســم القران هنا من دون أية ضجة، وليس من السيئ أن تحضر والدتي.

- جميل جداً.
- هل سيأتي الأستاذ إلى هنا الآن؟
- أتريدين رؤيته؟
- لا، لا شأن لي به.
- إذا أردت، تستطيعين أن تتحدثي معه على انفراد، سآمرهم بإخلاء قاعة الانتظار، اجلسي وقولي ما تشائين.

تظاهـــرتُ بالهـــدوء، وخدَعَتْه ضحكاتـــي المصطنعة وعيناي اللامعتان، وصدّق حقّاً أني لست راغبة في لقائه.

ضحكت بصوت عال، وقلت:

- لا، أيها العقيد، أنا أصبحت زوجتك، وليست لديّ رغبة في الحديث مع رجل من غير المحارم على انفراد.
- ربما يكون ضروريـــاً أن تتحدثي معه قليلاً، وتخبريه بأنك أنت من أنقذت حياته.
- أبـــداً، لـــو أدرك أنني أنقذته بمســـاعدتك، لألقى بنفســـه مجدداً في السجن.
- أتريدين أن ألمّح له أنا بذلك؟
- لا تقم أبداً بذلك! أرجوك ألا تزعجه، خفف عنه! قل له إنه استفاد من عفو ملكي لأنه فنان كبير، ومن المجحف أن يبقى في طهران ويتطرق للأعمال التي ليست من شأنه وفي مقامه، ولهذا الســـبب ســـيبقى خارج طهران لمدة، وبمجـــرد أن تعود المياه إلى مجاريها، يمكنه أن يرجع إلى بيته ويباشر أشغاله، هل سيرافقه خادمه أيضاً؟
- لا، خادمه مسجون أيضاً.
- ألن تطلق سراحه؟

- سأطلق سراح كليهما، لكني لن أرسل خادمه رفقته.

دخل المعاون إلى المكتب، وقال:

- سيدي، السجين حاضر.

- أفرغوا قاعة الانتظار، أريد أن أتحدّث معه هناك.

خرج العقيد من الغرفة.

كنت أسمع صوته، هل كان في وسعي أن أذهب إليه، وأخبره بأنني لأجل إنقاذه توسلت بأسهل طريقة ممكنة، ورميت بنفسي في أحضان رجل متكبّر وأناني لا يملك في حياته أعز وأقدس من جسده وحاجات هذا الجسد؟ لا، لم تكن لديّ هذه الجرأة، وما كنت أريد أن أطلعه على كيفية اتخاذ مثل هذا القرار.

ظل رئيس دائرة الأمن يتحدث معه في الغرفة المجاورة مدة ربع ساعة، كأنهم اعتقلوني أنا ويريدون الإلقاء بي في السجن عوضاً عنه، كان قلبي ينبض بشدة لدرجة أني كنت خجلة من حركة صدري، وكنت أستطيع سماع حوارهما، لكنني ما كنت أريد أن أستمع، كان رئيس دائرة الأمن يتحدث بأدب وبهدوء، والأستاذ ينصت، ونادراً ما يجيب إجابات متقطّعة. انتصبت واقفة مرة وذهبت حتى وصلت قرب الباب، وأمسكت بالمقبض علّني أشاهده من ثنية الباب، أخافني صوت رنة هاتف رئيس دائرة الأمن، فعدت وجلست في مكاني.

عاد العقيد إلى مكتبه بوجه طلق وضاحك، ورفع السمّاعة، وأجاب جواباً مختصراً، ثم جاء نحوي وأمسك بيدي واقتادني ناحية النافذة، وقال:

- تعالي وتفرّجي!

كان ينزل من سلالم دائرة الأمن برقبة مرفوعة، مرتدياً

ملابس مرتّبة ومكوية، يرافقه ضابط أمن وشرطيان من الدائرة السياسية، وكان الحرّاس يؤدون له التحية ويفتحون الطريق، وكان الأستاذ يومئ برأسه في هدوء.

حينما نزل من الدّرج، تريّث قليلاً، وألقى نظرة إلى السماء، فرد صدره كأنه يتنفس نفساً عميقاً.

كانت هذه آخر مرة رأيته فيها، وهذا المشهد ما زال منقوشاً في ذهني.

سيدي الوكيل، أرجوك اختصر الكلام، ولا تسألني المزيد، اذهب! وأنا أيضاً لم يبقَ لي ما أحكيه لك، لم أقل لك شيئاً أصلاً، لأن ما ينخر أعماقي ويشغل بالي لم أقله بعد، لو كنت أستطيع أن أفصح عمّا يشعل داخلي، لكنت أصبحت حينها شاعرة وكاتبة ورسّامة وفنّانة، والحال أنني لست كذلك.

أنت كنت تريد منّي معرفة حياة الأستاذ، وقد حكيتها لك، فالنساء من أمثالي ممّن أوقفن حياتهن على نزوات رجال هذا المستنقع ورغباتهم كثيرات.

أشكرك على نَفَسك الطويل وعلى صبرك في سماع القصة المشؤومة التي لم يكن لها علاقة بعملك ولا بصلتك بحياة الأستاذ.

خذ معك لوحتك! لم أعد أحب هذه اللوحة، لقد أخطأ أستاذك.

هاتان العينان ليستا عينيّ!

**كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ - أيار (مايو) ١٩٥٢**


Twitter: @ketab_n



**الاسم: د. أحمد موسى**

- مواليد مدينة تطوان في المغرب عام 1973.
- يعمل حالياً في جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة – المغرب.
- حاصل على شهادة الإجازة الجامعية في تخصص الآداب من جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.
- حاصل على الماجستير في تخصص اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران بإيران.
- حاصل على شهادة الدكتوراه PHD في تخصص اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.
- عمل مترجماً من الفارسية إلى العربية وبالعكس في دار الترجمة "پرچم" في طهران من عام 2000 – 2003
- حاصل على عضوية دائمة في اللجنة الدولية للتعاون العلمي في مؤسسة الدراسات الإيرانية بطهران منذ عام 2007.
- مؤسس ورئيس خلية البحث في الثقافة الشرقية وآدابها منذ سنة 2005.
- ترجم العديد من البحوث والأطروحات والكتب والدراسات من الفارسية، منها ترجمة كتاب "تاريخ مختصر زبان فارسي" إلى العربية (2005 - 2006).
- شارك في العديد من الملتقيات والندوات والمؤتمرات الثقافية والأدبية في إيران والمغرب.
- له عدة دراسات ومقالات منشورة باللغتين العربية والفارسية.


Twitter: @ketab_n




**الاسم: د. زبيدة أشكناني**

- كويتية الجنسية.
- حاصلة على شهادة الدكتوراه في الأنثربولوجيا الاجتماعية من جامعة درهام.
- عملت أستاذاً مساعداً في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب.
- لها بحوث عدة في الأنثربولوجيا، إضافة إلى عدة ترجمات من اللغتين الإنجليزية والفارسية إلى العربية.
- راجعت عدة نصوص لسلسلة إبداعات عالمية وهي: «واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق» دراسة إبداعية، «نون والقلم» رواية، «ست وصايا للألفية القادمة» دراسة إبداعية، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «سبع نساء سبع قصص»، «النمر الأبيض» رواية.



# ما صدر من هذه السلسلة

| | | |
|---|---|---|
| 314 | حياة إنسان | تأليف : ليونيد أندرييف |
| 315 | دون كيشوت | تأليف : ميخائيل بولجاكوف |
| 316 | واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق | تأليف : كنيث ياسودا |
| 317 | ملحمة علي الكاشاني | تأليف : خلدون طائر |
| 318 | نون و القلم | تأليف : جلال آل أحمد |
| 319 | سيري سامبيجي | تأليف : تشاندرا سيخار كامبار |
| 320 | أيام بورمية | تأليف : جورج أورويل |
| 321 | ست وصايا للألفية القادمة | تأليف : ايتالو كالفينو |
| 322 | السكرتير الخصوصي | تأليف : ت. س. إليوت |
| 323 | قصص برازيلية | تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين |
| 324 | شذرات من خطاب في العشق | تأليف : رولان بارت |
| 325 | لون الماء | تأليف : جيمز ماكبرايد |
| 326 | وجهان لحواء | تأليف : أمريتا بريتام |
| 327 | المنزل ذو الشرفات السبع | تأليف : اليخاندرو كاسونا |
| 328 | من الأدب الباكستاني الحديث | تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين |
| 329 | مختارات من القصة التركية المعاصرة | تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك |
| 330 | مسرحية محكمة العدل في بلخ | تأليف : بهرام بيضائي |
| 331 | مطبخ - خيالات ضوء القمر | تأليف : بنانا يوشيموتو |
| 332 | الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة | تأليف : جونتر جراس |
| 333 | شمل تشابه ضائع | تأليف : هاينرش فون كلايست |
| 334 | حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم | تأليف : أندريه شديد |
| 335 | زهرة الصيف | تأليف : فلاديمير هلباتش |
| 336 | طام - طام زنجي | تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين |
| 337 | البيبروح | تأليف : ليوبولد سيدار سنغور |
| 338 | منزل النور | تأليف : نيكولو ماكيافللي |
| 339 | كثبان النمل في السافانا | تأليف : جوهر مراد |
| 340 | أناتول وجنون العظمة | تأليف : تشنوا أشيبي |
| 341 | غرام ميتيا | تأليف: أرتور شنيتسلر |
| 342 | آرنجندن والحارس الليلي | تأليف: إيفان بونين |
| 343 | ورقة في الرياح القارسة | تأليف: فيمي أوسوفيسان |
| 344 | مدرسة الدكتاتور | تأليف: تنغ - هسنغ يي |
| 345 | رسائل عيد الميلاد | تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز |
| 346 | حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك | تأليف: سليمان جيغو ديوب |
| 347 | مسرحية عذراء أورليان | تأليف: فريدريش شيللر |
| 348 | حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي | تأليف: سليمان جيغو ديوب |


Twitter: @ketab_n

# ما صدر من هذه السلسلة

| | | |
|---|---|---|
| 349 | القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين | تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية |
| 350 | مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو | تأليف: وول سوينكا |
| 351 | روض الأدب (مختارات قصصية) | تأليف: أو. هنري |
| 352 | مسرحية «آنتيجون» | تأليف: ب. بريشت |
| 353 | أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو | تأليف: هنري برونل |
| 354 | مسرحية «المقهى» | تأليف: لاوشه |
| 355 | مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات | تأليف: برايان فرييل |
| 356 | رواية «الشباب» | تأليف: ج. م. كويتتزي |
| 357 | مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات) | تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين |
| 358 | مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة | تأليف: إيجون وولف |
| 359 | اسمي آرام (مجموعة قصصية) | تأليف: وليام ساروبان |
| 360 | حامل الإكليل (قصص مختارة) | تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية |
| 361 | الصُّـــورة (مسرحية) | تأليف: سيلافومير مروجيك |
| 362 | الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية) | تأليف: تحسين يوجل |
| 363 | سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند) | تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي<br>أندجي ماليشكا<br>ستانيسلاف ليم (ستانيسواف)<br>سوافومير مروچيك |
| 364 | سبع نساء... سبع قصص | تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات |
| 365 | زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول) | تأليف: نويل كاورد |
| 366 | بالأبيض على الأسود (رواية) | تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو |
| 367 | مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور | تأليف: تيان هان |
| 368 | إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة | تأليف: مايكل هلمان |
| 369 | «الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي) | تأليف: ييجى شانيافسكي |
| 370 | ليلة التنبؤ (رواية) | تأليف: بول أوستر |
| 371 | هذا الجيل المحظوظ (مسرحية) | تأليف: نويل كاورد |
| 372 | لا وجود لخصومات صغيرة | تأليف: أمادو همباطي با |
| 373 | الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية) | تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي |


Twitter: @ketab_n

# ما صدر من هذه السلسلة

| | | |
|---|---|---|
| 374 | مختارات من الشعر الإيراني الحديث | تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين |
| 375 | العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول) | تأليف: بول بولز |
| 376 | العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني) | تأليف: بول بولز |
| 377 | «الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر) | تأليف: فروغ فرخزاد |
| 378 | شارع بريك لين (الجزء الأول) | تأليف: مونيكا علي |
| 379 | شارع بريك لين (الجزء الثاني) | تأليف: مونيكا علي |
| 380 | الطريق (رواية) | تأليف: كورماك مكارثي |
| 381 | مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية | تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك |
| 382 | عشيق الصين الشمالية (رواية) | تأليف: مارغريت دوراس |
| 383 | المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول) | تأليف: إرنست همنغواي |
| 384 | المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني) | تأليف: إرنست همنغواي |
| 385 | المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث) | تأليف: إرنست همنغواي |
| 386 | النمر الأبيض (رواية) | تأليف: آرافيند آديغا |
| 387 | موطن الألم (رواية) | تأليف: دوبرافكا أوجاريسك |
| 388 | فيلا أماليا (رواية) | تأليف: باسكال كينيارد |
| 389 | الإحساس بالنهاية (رواية) | تأليف: جوليان بارنز |
| 390 | ياسمينة (وقصص أخرى) | تأليف: إيزابيل إبرهاردت |
| 391 | المغامرة الغامضة (رواية) | تأليف: شيخ حامد كَان |
| 392 | الرجال الذين يحادثونني (رواية) | تأليف: أناندا ديفي |
| 393 | أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة | تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين |
| 394 | حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال | تأليف: أمادو همباطي با |
| 395 | خرائط (رواية) | تأليف: نور الدين فرح |
| 396 | إله الصدفة (رواية) | تأليف: كريستن توروب |
| 397 | أزهار عباد الشمس العمياء (رواية) | تأليف: ألبرتو مينديس |
| 398 | الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى) | تأليف: تيه نينغ |
| 399 | اذهب حيث يقودك قلبك (رواية) | تأليف: سوزانا تامارو |
| 400 | الحضارة أمي (رواية) | تأليف: إدريس الشرايبي |
| 401 | فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة) | تأليف: أنيتا ديساي |


Twitter: @ketab_n




| البيان | إبداعات عالمية | | مجلة الثقافة العالمية | | مجلة عالم الفكر | | سلسلة عالم المعرفة | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | د.ك | دولار | د.ك | دولار | د.ك | دولار | د.ك | دولار |
| المؤسسات داخل الكويت | ٢٠ | – | ١٢ | – | ١٢ | – | ٢٥ | – |
| الأفراد داخل الكويت | ١٠ | – | ٦ | – | ٦ | – | ١٥ | – |
| المؤسسات في دول الخليج العربي | ٢٤ | – | ١٦ | – | ١٦ | – | ٣٠ | – |
| الأفراد في دول الخليج العربي | ١٢ | – | ٨ | – | ٨ | – | ١٧ | – |
| المؤسسات في الدول العربية الأخرى | – | ٥٠ | – | ٣٠ | – | ٢٠ | – | ٥٠ |
| الأفراد في الدول العربية الأخرى | – | ٢٥ | – | ١٥ | – | ١٠ | – | ٢٥ |
| المؤسسات خارج الوطن العربي | – | ١٠٠ | – | ٥٠ | – | ٤٠ | – | ١٠٠ |
| الأفراد خارج الوطن العربي | – | ٥٠ | – | ٢٥ | – | ٢٠ | – | ٥٠ |

**الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك**

| | |
|---|---|
| **الاسم:** | |
| **العنوان:** | |
| **اسم المطبوعة:** | **مدة الاشتراك:** |
| **المبلغ المرسل:** | **نقداً/ شيك رقم:** |
| **التوقيع:** | **التاريخ: / / ٢٠٠م** |

**تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.**

**وترسل على العنوان التالي:**

**السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**

**ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147**

**دولة الكويت**


Twitter: @ketab_n

# أسماء وكلاء التوزيع

| الدولة | وكيل التوزيع الحالي | العنوان | تليفون | فاكس |
|---|---|---|---|---|
| الكويت | المجموعة الإعلامية العالمية | الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452 | 24826820/1/2 24613872 /3 | 24826823 |
| الإمارات | شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع | Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499 | +971 242629273 | +971 42660337 |
| السعودية | الشركة السعودية للتوزيع | المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585 | +966 (01) 2128000 | +966 (01) 2121766 |
| سورية | المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات | سورية - دمشق - البرامكة | +963 112127797 | +963 112128664 |
| مصر | مؤسسة دار أخبار اليوم | جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372 | +202 25782700- 25782632 | +202 25782632 |
| المغرب | الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر | المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنقة سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008 | +212 522249200 | + 212 522249214 |
| تونس | الشركة التونسية للصحافة | تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000 | +216 71322499 | +216 71323004 |
| لبنان | مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع | لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز | +961 1666314/5 01 653259 | + 961 1653260 |
| اليمن | القائد للنشر والتوزيع | الجمهورية اليمنية - صنعاء | +967 2/3201901 | + 967 1240883 |
| الأردن | وكالة التوزيع الأردنية | عمان - تلاع العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي | +962 65300170 - 65358855 | + 962 65337733 |
| البحرين | مؤسسة الأيام للنشر | ----- | +973 17 617733 | ----- |
| سلطنة عُمان | مؤسسة العطاء للتوزيع | ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عمان | +968 24492936 | +24493200968 |
| قطر | دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع | قطر - الدوحة - ص.ب 3488 | +974 4557809/10/11 | + 974 44557819 |
| فلسطين | شركة رام الله للنشر والتوزيع | رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314 | +970 22980800 | + 970 22964133 |
| السودان | دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع | السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11 | +2491 83242702 | + 2491 83242703 |
| الجزائر | شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة | Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria | +213 (0) 31909590 | + 213 (0) 31909328 |
| العراق | شركة الظلال للنشر والتوزيع | ----- | +964700776512 780662019 +964 | ----- |
| نيويورك | Media Marketing | Long Island City. NY 11101 - 3258 | + 1718 4725488 | +1718 4725493 |
| لندن | Universal Press | Universal Press & Marketing Limitd | + 44 2087499828 + 44208 7423344 | +44208 7493904 |
| ليبيا | شركة الناشر الليبي | ----- | +218 217297779 | ----- |


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب


Twitter: @ketab_n



## بزرگ علوي

- فارسي الأصل
- ولد السيد مجتبى بزرگ علوي عام 1904. وتوفي عام 1997م.
- أكمل دراسته في ألمانيا منذ عام 1922 ليعود إلى إيران عام 1928 بعد تخرجه في جامعة ميونيخ.
- عمل في سلك التدريس في شيراز وطهران.
- نشر مذكراته عندما كان في السجن في كتاب أسماه «قصاصات أوراق السجن» عام 1941.
- رواية «عيناها» له تعتبر من أهم وأكثر الروايات الإيرانية شيوعاً.

# عيناها

نقدم للقارئ في هذا العدد رواية من عيون الأدب الفارسي الحديث، حيث إن أحداث هذه الرواية دارت في زمن (أمير كبير) مؤسس الحداثة ومهندس التعليم الحديث في إيران. وتعد هذه الرواية للسيد مجتبى بزرگ علوي (1904-1997) الذي ولد في أسرة تجارية متدينة وسياسية؛ فوالده هو سيد أبوالحسن علوي، ووالدته خديجة قمر السادات، اللذان كانا من المناصرين للحركة الدستورية في إيران. وكان والد السيد مجتبى من أعضاء حزب إيران الديمقراطي المناهض للوجود الإنجليزي والروسي في إيران، ووالدته حفيدة آية الله طباطبائي أحد أقطاب الحركة الدستورية. كما يعد السيد بزرگ أحد مؤسسي حزب (توده) الشيوعي.

كما نلاحظ انغماس بزرگ علوي في التيار الأدبي الذي ساعده على التعرف على الأديب والكاتب صادق هدايت إثر قراءته مسرحية هدايت «بروين بنت الساسانيين»؛ حيث تكونت مجموعة الأربعة التي كانت تضم كلا من صادق هدايت وبزرگ علوي ومسعود فرزاد ومجتبى مينوي.

وعندما نتعمق في أحداث هذه الرواية نجد أن الشخصيتين الرئيسيتين هما: الأستاذ (ماكان)، وهو فنان تشكيلي مناضل مشغول بهموم الناس الكادحين وبمشكلات وطنه السياسية والاقتصادية، ويوظف فنه للدفاع عن قضايا وطنه، والشخصية الأخرى (فرنكيس) الفتاة الجميلة التي تنتمي لأسرة غنية؛ حيث تتعرف على الفنان المناضل الذي يكبرها سناً، وينتمي إلى طبقة مختلفة بعد أن يطلب منها والدها أن تتعلم الرسم على يديه، فتصدمها لامبالاته وعدم وقوعه في حبها، وتكتشف أنها لا تملك أي موهبة حقيقية، فتذهب إلى فرنسا للدراسة، ومن بين العديدين الذين تلتقي بهم كان اليساري (خداداد) الذي يكون سبباً في لقائها بـ(ماكان) مرة أخرى إثر عودتها إلى طهران، حيث تبدأ قصة حبها له أثناء ترددها على مرسمه، وحينها قام برسم بورتريه لها وأطلق على اللوحة اسم «عيناها».

ثم تبدأ بالعمل السياسي السري، وحين يتم القبض على (ماكان) تقوم هي بالتضحية بسعادتها وحبها ومستقبلها حين تطلب من رئيس دائرة الأمن أن يُفرج عنه في مقابل قبولها بالزواج منه، ويتم لها ما أرادت، فيُطلق سراحه ليُنفى إلى قرية نائية، وتتزوج هي وترحل للعيش مع زوجها في أوروبا.


رقم الإيداع: 2014/385
ردمك: 6-427-0-99906-978